ليونارد كوترل

مدن اندثرت في العصور القديمة

ترجمة

عديلة حسن مياس

مراجعة وتدقيق

د. عبد المنعم فتحي

الكتاب: مدن اندثرت في العصور القديمة

الكاتب: ليونارد كوترل

ترجمة : عديلة حسن مياس

مراجعةوتدقيق : د. عبد المنعم فتحي

صدرت الطبعة الأولي عام ١٩٦٥

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

كوترل، ليونارد

مدن اندثرت في العصور القديمة/ ليونارد كوترل، ترجمة : عديلة حسن مياس، مراجعة وتدقيق: د. عبد المنعم فتحي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٠١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٤٦ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٧٤٦ / ٢٠٢٠

مدن اندثرت في العصور القديمة



وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

عن الكتاب والمؤلف

يعرض الكتاب وصفا شيقا لعشر مدن أقيمت في العصور القديمة ثم اندثرت عبر الأجيال إلى أن أتيح للمنقبين أن يكشفوا عنها . ومن بين هذه المدن نذكر : بابل التي كانت أعظم وأغنى مدينة في غرب آسيا، ونينوى عاصمة الآشوريين، وأور الكلدانية، ومدينة بومبي التي قضى سكانها أثناء ثورة بركان فيزوفيوس .. الخ .

وكان المؤلف في ايطاليا، يعمل ملحقا حربياً للإذاعة البريطانية عندما رأي آثار مدينة بومبي الأول مرة وأخذ بحمى الكتابة عن الآثار من جراء تلك الزيارة، فظل يعمل بالإذاعة حتى عام ١٩٥٩ ثم تفرغ للتليفزيون والتأليف .

وعلى نهج هذا الكتاب، ألف كتاب عن الحضارات القديمة في اليونان، وكريت، ومصر، والشرق الأدنى . وتتسم كتبه بالبساطة والعرض الممتع مع الإفادة من البيانات التاريخية التي يعرضها في قالب قصصي، سهل، جذاب .

المترجمة

مقدمة

لعلي نجحت بعض النجاح في أن أضفي على كتبي السابقة عن الآثار الصبغة التعليمية، وإذا كان بعض قرآني تفضلوا فأعربوا لي عن المتعة التي وجدوها في قراءة كتب مثل : Mountains of the Pharaohs أو Bull of Minos فإن هذه المتعة قد جاءت عرضاً، لأن الهدف الأول من هذه الكتب كان الإفادة العلمية . وكتابنا هذا لا يستهدف شيئاً من هذا القبيل . فليس به قصص تاريخي أو قوام بأسماء الملوك، أو عرض مفصل للعادات الدينية والحركات السياسية . إنه كتاب يسهل الاطلاع عليه دون جهد، كتب للتسلية، ومع أنه يشتمل على بيانات كثيرة أكثرها معلوم – إلا أنه لا يهدف إلى دراسة.

إن عبارة " مدن دارسة " تثير مشاعر الغالبية العظمى منا، وقد أدرك "رايدر هاجارد" ذلك منذ أمد بعيد حين ألف كتابه "هي"، الذي حاز إعجاباً كبيراً في عصر الملكة فيكتوريا لما تضمنه من ضروب المغامرات كقصة تلك الملكة البيضاء التي تحكم مدينة غامضة مندثرة في أدغال أفريقيا. ومنذ أمد قريب كتب "جيمس هيلتون" عن المدينة الخيالية – شانجريلا – التي أصبح اسمها في لغتنا رمزا على الفرار من الواقع . وكتابي هذا ينحو نفس النحو مع فارق بسيط، وهو أن المدن التي يصفها كانت موجودة فعلا و مكن رؤية أغلبها.

وقد بقيت بعض هذه المدن – مثل تلك التي في أدغال بيرو ويوكاتان – مندثرة فعلا طيلة قرون عدة، بالنسبة للرجل الأبيض على الأقل، بينما عمرت

مدن أخرى مثل حاتوساس عاصمة الحثيين في آسيا الصغرى – وغدت أماكن صغيرة بعد أن تلاشت عظمتها، وظلت كذلك إلى أن نقب عنها الأثريون و تحققوا من أصلها . وثمة مدن قديمة لم تندثر بمعنى الكلمة، إذ بقيت مواقعها معروفة، لكن أعمال السطو والإهمال عبر آلاف السنين حولتها إلى أكوام من الخرائب، ومع ذلك فقد شهد القرن الماضي أعمال المنقبين في تلك الأطلال، حيث كشفوا عن كنوز من العمائر والتماثيل، وعن أدوات منزلية، و أثاث جنائزي، أتاحت لنا، بالإضافة إلى النقوش التي أمكن قراءتها، تصور ما كانت عليه هذه المدن من أبهة وجلال كمدن : نينوى وبابل في العراق .

وكثيراً ما كانت مغامرات الرجال الذين قاموا بالكشف عن هذه المدن – مثيرة كالأماكن نفسها . فرحلة حيرام بنجهام في بيرو بحثاً وراء مدينة الانكا المندثرة التي لم يرها أي رجل أبيض حتى ولا الغزاة الأسبان، تعتبر في ذاتها ملحمة وفي قارة أخرى، في العراق بالذات تزخر استكشافات رجال الطليعة مثل كلوديوس ورتشى، وسير هنري لايرد، مغامرات شخصية و متاعب ومخاطر يندر أن يصادفها الأثري الحديث . وقد أفسحت في كتابي مجالاً كبيرا لهذه المغامرات، حتى عندما تشير بطريقة غير مباشرة إلى المدن الدارسة التي ذهب المكتشفون ابحث عنها .

وقد لا يكون سحر القصة فيما تنطوي عليه أعمال الكشف من إثارة، ولا فيما تكشف عنه أعمال الحفر من ضروب الأبهة والعظمة، وإنما يرى هذا السحر كامناً فيها يبذله عالم الآثار من أناة وصبر وهو يعمل بمهارة ليعيد بناء مدينة طمست معالمها، فإذا هو يبعث الحياة في أطلالها المتناثرة، وإذا هو يملأ شوارعها بمن كانوا يعيشون فيها من رجال ونساء، كما حدث في مدن تل

العمارنة بمصر.

وليس هذا الكتاب شاملا لجميع المدن التي اندثرت، فقد نحيت عامداً عدداً من أشهرها مثل طيبة وتدمر وموكنباى وكنوسوس، إذ سبق أن تحدثت عنها في بعض مؤلفاتي السابقة، والأساس الوحيد الذي اعتمدت عليه في اختيار المدن هذه المرة يرتكز على الفكرة التي طالما كررتها من قبل وهى: اختيار شيء يلفت النظر ويسترعى التفكير باعتباره جديداً علينا، وعظيماً، وغامضاً .. شيء غير عادي، غريب، خارق، لم يفهم بعد، وربما كانت عبارات سير فيليب سيدني أصدق في التعبير عن هدفى، حين يقول:

... يجيء إليكم بقصة حقيقية صادقة، قصة تلفت الأطفال عن لعبهم وتجتذب العجائز من جانب المدفأة .

ليونارد كوتريل

الفصل الأول

مدينة الثيران المجنحة

"قبل أن أبلغ الثالثة عشرة من عمري كنت قد قرأت كل ما نشر من روايات "والترسكوت" لكن العمل الذي أبهجني أكثر من غيره كان كتاب ألف ليلة وليلة، وكان من عادتي أن أقضي الساعات متمدداً على الأرض تحت الحصة الفلورنسية المذهبة غارقاً في ذلك الكتاب الأخاذ .... ولازمني الإعجاب به لدرجة أنني إذا ما قرأت فيه الآن أشعر بنفس البهجة التي كنت أحسها أيام طفولتي، ولم يكن الأثر الذي تركته قصص ألف ليلة وليلة في حياتي وفي مستقبلي أثراً ضئيلاً، فهي التي ألهمتني حب الترحال والمغامرة الذي دفع بي إلى الشوق وأدى إلى اكتشافي أطلال نينوى ..."

هذا ما كتبه سير : أ. هنري لايرد G.C.B., D.C.L. وهو يستعيد ذكريات أحداث عام ١٨٣٣ قبل أن تحصل على ألقابه العلمية بسنين طويلة، وهي فترة كان فيها تلميذاً ثائراً يتلقى العلم في إيطاليا وفرنسا وانجلترا بطريقة مرتجلة دون أن يمر بخلده أن القدر قد كتب له القيام بمغامرات وأعمال أشبه ما تكون بقصص ذاك الكتاب المحبب لقلبه . وعندما كتب سيرلايرد هذه العبارات كان قد أصبح سفيراً لصاحبة الجلالة في مدريد، وهو تتويج غير متوقع لحياة إنسان مر بتجارب متباينة كتلك التي وقعت له وهو تلميذ في إحدى مدارس انجلترا، وقد كتب عنها يقول :

"كنت متهماً بنشر الشغب والثورة وإغراء زملائي من التلاميذ بالفساد ودفعهم إلى التمرد، ولذلك قرر أستاذى أن يعاقبني على تمردي، فأمرني

بارتداء سترتى مقلوبة والوقوف على كرسي بين التلاميذ وقت تناولهم الطعام هاتفاً لكوبيت وهانت – وهما أشهر زعيمين شعبيين في ذلك الوقت، وكان أستأذي يمقتهما مقتاً بالغاً . ولم أشعر بأية مهانة من هذا العقاب بل إنه على العكس – جعله أزداد تمسكا بمبادئي الثورية، وأغضب أشد الغضب لما اعتبرته تدخلاً استبدادياً وغاشماً في آرائي السياسية" .

وتحت تأثير ألف ليلة وليلة انحصر تفكيري تقريباً في الجنيات و الغيلان والأميرات الفاتنات حتى أصبحت أؤمن بوجودهم بل إني وقعت فيلا في حب شابة جميلة غدوت أسيرة لها وتخيلتها واحدة منهن وهي بعد على قيد الحياة . كانت أخت أحد زملائي بالمدرسة وظننت أن زميلا انجليزيا في مثل سني يزاحمني في حبها، فتشاجرنا لهذا السبب، ولما كنا نتعلم معا لعبة ، "الشيش" فقد قررنا أن نحسم الخلاف بيننا مبارزة بالسلاح عارية . ولست أذكر الآن كيف حيل بيننا وبين تنفيذ هذا القرار الدموي "

كان لا يرد في صباه يتدفق حيوية، وعندما انتقلت أسرته إلى فرنسا والتحق بالليسيه قال لزملائه : إن الصبية في المدارس الإنجليزية قد تعودوا مقاومة المعاملة السيئة بالتمرد على المسئول عنها وقذفه بالكتب أو بأية أدوات أخرى يجدونها في متناول أيديهم، . واسترسل قائلا: "واقترحت أن نستعمل نفس الطريقة لمعاقبة طاغيتنا – وهو مدرس قاس كان يمسك أصابعنا بقبضته الحديدية ويلهب أطرافها بمسطرة ثقيلة .

وظفر اقتراحي بالموافقة التامة، وأجمعنا على ضرورة تنفيذه، واتفقنا على إشارة معينة في درس المساء تمطر بعدها المدرس بالكتب وغيرها من القذائف . وعندما حانت لحظة التنفيذ التقطت محبرة صغيرة مصنوعة من

الرصاص ... وصوبتها نحو رأس المدرس الممقوت، ولكنها لحسن الحظ لم تصبه وساد الحجرة صمت عميق، والتفت نحو شركائي في المؤامرة فوجدتهم منهمكين في دروسهم . لم يرفع واحد منهم رأسه عن كتابه وكأنهم أبرياء تماما لا علم لهم بالموضوع كله ".

وأدت خيانة التلاميذ الفرنسيين إلى مزيد من العنف، فبعد أن قام المدرس بضرب (الخنزير الإنجليزي) ضرباً مبرحاً انقض " الخنزير " بدوره على الخونة، وكما يقول لايرد : انتهت المعركة بأن جرحني أحد التلاميذ في وجهي بحافة قبعته الجلدية الحادة".

وأخرج لايرد الأب ابنه من المدرسة .

وكلما ازدادت قراءتنا عن هنري لا يرد ازداد ميلنا إليه . فهو من نفس فئة شباب القرن التاسع عشر المغامر الذي ينتمي إليه كلوديوس ريتش وجيمس سيلك با كنجهام . هؤلاء الرجال الذين عكسوا القول السائد واذهب إلى الغرب أيها الفتى واتجهوا إلى الشرق الذي كان على أيامهم مجهولا ومثيرة كالغرب البعيد تماماً .

كان الشرق يشد هؤلاء الرجال إليه "بما فيه من سحر وغموض، وهو غموض تضاءل كثيراً في أيامنا هذه بعد أن أصبح الوصول إليه سهل المنال . وانقضت ستة قرون منذ قطعت الحرب الصليبية الأخيرة أسباب الاتصال بين أوربا والعالم العربي فبعد سقوط عكا نهائياً – كما يقول جيبون – (خيم صيت عميق حزين على الشاطئ الذي ظل دهراً طويلا ميدانا للتنافس العالمي)، وظلت الأجزاء القريبه من آسيا غارقة في هذا الصمت إلى القرن التاسع

عشر حين اكتشف العالم الغربي مرة ثانية أنها مكان جدير بالتنافس عليه [1] .

ولد هنري لايرد عام ١٨١٧ لأبوين من أصل هجوتى وقضى طفولته متنقلا بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا، لأن صحة أبيه كانت تستدعي تغييراً مستمرة في الأجواء . وترتب على هذه التربية غير التقليدية أن ظفر الفتى بقسط من الثقافة أرقي مما يظفر به أغلب أبناء طبقته، وصادف هذا هوى في نفسه نظراً لميله الطبيعي للفن إذ يقول بنفسه " اكتسبت مقدرة على تذوق الفنون الجميلة، وإلماما بماهيتها بقدر ما يتسني لصبي مثل يجد نفسه دائماً في صحة الفنانين وخبراء الفن"، كذلك نما في نفسه حب الأسفار، لكن أمله هذا لم يتحقق، وخاب ظنه

عندما أعاده أبواه إلى لندن لدراسة القانون وكان حينذاك في السادسة والعشرين من عمره، وهناك أمضى كارها ست سنوات يتمرن ندى أحد المحامين قصاها على مضض، ويقول لايرد إنه، عندما بلغ الثانية و العشرين من عمره، قرر لأسباب مختلفة أن يرحل عن انجلترا بحثا عن عمل في الخارج. وكما يقول ستون لويد في كتابه الطريف . Foundations in the "Dust":

إن نظرة عابرة إلى الرسم الملون في الصفحة الأولى من كتاب : Early Adventures، وهو لشاب يرتدي ملابس قبيلة بختياري، يدل على أن تلك الأسباب المختلفة كانت كافية (للرحيل)".

كان لا يرد قد قرأ مذكرات ريتش عن بابل . كما أنه انفعل بالقصور التي

(1) Lloyd, Seton, Foundations in the Dust.

شاءت آنذاك عن نقوش غامضة منحوتة على الصخر في جبال فارس، وقد دونت بالخط المسماري الذي بدءوا حينئذ في حل رموزه. وأصبح التفكير في الشرق لا يزايله، ولذلك عندما عرض عليه أحد أقاربه في عام ١٨٣٩ وظيفة في جزيرة سيلان قبل العرض دون تردد، لكن الطريق الذي قرر أن يسلكه إلى مكان عمله أثار دهشة أصدقائه إذ كانوا يعتقدون أنه سوف يقوم بطبيعة الحال بالرحلة العادية البحرية الممتعة، ولكن هنرى كان يرى هذا الطريق بطيئة وملا، لذلك قرر السفر براً، وكان هذا طبعا قبل أيام السكك الحديدية . وبصحبة صديقه متفورد، وهو شاب مغامر مثله، قرر لايرد أن يسيرا عبر وسط أوربا إلى دلماشيا، ثم الجبل الأسود، وألبانيا و بلغاريا إلى قسطنطينية، وبعد هذه المرحلة الأولى، يواصلان السفر عبر آسيا الوسطى وسوريا وفلسطين وصحراء العراق إلى بغداد .

وكتب لايرد (من بغداد) يقول :

"كنا نعتقد أننا نستطيع أن نصل من بغداد إلى الهند عن طريق فارس وأفغانستان لنستقر في كولومبو ".

ومن الواضح أن هنرى كان عازماً على أن يشبع رغبته في رؤية البلاد التي سيطرت على خياله أيام صباه قبل أن ينتهي به المطاف إلى زراعة الشاي في سيلان، ولعله قد عقد العزم في قرارة نفسه على ألا يذهب بتاتاً إلى سيلان وأن يبحث في الطريق عن عمل محبب إلى نفسه غير الأعمال التقليدية المتبعة في ذاك الوقت، وهذا هو الذي حدث فعلا على أية حال .

ولا يتسع المجال هذا الوصف تلك الرحلة الجنونية، ويستطيع القاري أن

يطلع عليها في الكتاب الأخاذ الذي ألفه بعنوان " نينوى وآثارها " [1] وقد نشر عام ١٨٤٩ . وفي بلوفيلف (في بلغاريا) أصيب لايرد باضطراب في المعدة و قرر الطبيب المحلى فصده، فرسم على بطنه دائرة غطاها بالديدان . وفقد المريض مقداراً كبيرا من الدم بعد هذا العلاج مما اضطره إلى التخلف عن السفر عدة أسابيع، ولم يتمكن من اللحاق بمتفورد إلا في آسيا الصغرى . وصادفته مشاكل عديدة أخرى في بيت المقدس عندما قرر السفر إلى بيترا عبر أراض مليئة بقطاع الطرق والبدو . وفي طريقه إلى حلب، ليلحق بصديقه المكدود متفورد – كما اتفقا – زار كيراك، وجواش وعمان . وهاجمه اللصوص مرتين، إحداهما بالقرب من كيراك والأخرى بالقرب من دمشق . وعندما وصل على قدميه تحت الأمطار الهاطلة إلى منزل القنصل البريطاني بدمشق، كان حافي القدمين نصف عار، وخالي الوفاض، لكنه كان قد رأى كل ما أراد رؤيته [2] .

وأخيراً التي لايرد بصديقه متفورد الذي نفذ صبر، في حلب، وأخبره أنه استطاع أن يرى بيروت وبعلبك في طريقه . وبعد أن استراحا بضعة أيام، واصل الصديقان رحل ما متجهين صوب الجنوب مارين باورها ونصيبين ووصلا الموصل في الثاني من مايو .

ومنذ اللحظة الأولى أحب لايرد العراق رغم أن هذا البلد لم يستهو معظم زائر به، فهناك – كما كتب هو :

"كانت الوحشة تلتقي بالوحشة، وأحاسيس الدهشة تعقبها مشاعر الرهبة"

---

(١) **Niniveh and its Remains.**

(٢) بعد مرور أربعين عاما على هذه الزيارة عاد لايرد إلى دمشق سفيرا الملكة بريطانيا .

وليس ثمة ما ينعش الفكر أو يوحي بالأمل أو ينبئ عما وقع من أحداث .... ولكن آكام آشور الضخمة أثارت في نفسي أفكاراً ومشاعر، أكثر جدية وأشد عمقاً مما أثار ته معابد بعلبك ومسارح أيونيا".

وجدير بالذكر أن آشور كانت في ذاك الوقت مجرد اسم ورد في التوراة وذكره قليل من المؤلفين القدامى . وقبل زيارة لايرد لتلك الأماكن بحوالي قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان، كانت قد جاست خلالها حفنة من الرحالة الأوربيين . ففي عصر الملكة إليزابيث زار بغداد رحالة (بريطاني) يدعى جون الدريد . كما أن طبيباً ألمانياً أسمه راو ولف زار العراق في نفس الوقت تقريباً . كذلك جاءها القس دى بوشامب كمبعوث بابوى في بابل عام ١٧٨٠ . وكان جيبون قد كتب عن نينوى وبابل لكن معظم معلوماته كانت مستقاة إما من الكتاب المقدس أو من الكتاب الكلاسكيين مثل هيرودوتس . ومع ذلك فقد كانت الأماكن الأثرية في بابل ونينوى معروفة، وأحيانا كان زوار البلاد يذهبون لمشاهدة الأطلال الضخمة التي كانت على ما يبدو كل ما تبقى من هذه المدن التي كانت لها عظمتها في الأيام الغابرة .

والواقع أن تلك الآثار القديمة حظيت ببعض الاهتمام قبل أن يصل لايرد هناك . كانت المنطقة جزءا من الإمبراطورية العثمانية التي أقامت معها بريطانيا علاقات سياسية منذ عهد قريب، فعينت نائب قنصل في بغداد و آخر في الموصل، ولما كان هؤلاء في أغلب الأحيان من الشباب المغامر، ونظرا لوفرة وقت الفراغ لديهم، فقد جلبت آثار المنطقة اهتمامهم، بل إن بعضهم حاول الحفر والتنقيب عنها، كما أثارتهم محاولة حل رموز الكتابة المسمارية التي رأوها على كتل ضخمة من الأحجار وعلى قوالب الابن التي تخرجها معاول الحفارين من الأطلال ويحملها الرحالة إلى أوطانهم باعتبارها من العاديات .

وفي كتاب دون جوان (Don Juan) – للشاعر الإنجليزي لورد بايرون – مقطع شعري يسخر فيه من كلوديوس الذي كان مثلا دائما للشركة الشرقية الهنديه في بغداد، فيقول :

"برغم أن السيد كلوديوس ريتش، قد حصل على بضعة قوالب (للبناء)

وكتب عنها أخيرا مذكرتين .....

وريتش هذا الذي توفي ولايرد في الثالثة من عمره، كان قد خص في خرائب- بابل (في حوض الفرات الأدني جنوبي بغداد) وتل كويونجيك (وهو موقع نينوى القديمة تجاه الموصل) . ورغم أنه كتب مذكرات قيمة عن أسفاره و مشاهداته [1] إلا أنه لم يستطع القيام بأعمال الحفر الجدية، فقد أثر الجو على صحته تأثيراً بالغاً . وصرعه وباء الكوليرا عام ١٨١٧ بعد أن رفض مغادرة مدينة بغداد الموبوءة، بل إنه – كما جاء في ترجمة حياته – قد أجهد نفسه في مواساة المصابين والمحتضرين وفي نشر الطمأنينة بين السكان ".

ولكن الحال كان قد تغير عندما وصل لايرد إلى الموصل . إذ تقدم حل رموز الخط المسماري تقدما ملموسة، وفي عام ١٨٠٢ نجد في طليعة الباحثين في هذا الميدان العلامة الألماني جر و تفند، وتبعه عام ١٨٢٥ الضابط الإنجليزي الملازم رولنسون (أصبح فيما بعد سبر هنرى) الذي أخذ على عاتقه مهمة نقل نقوش صخرة بهستان بلاد فارس، وهي نص واحد بثلاث لغات . الفارسية القديمة – والعيلامية – والبابلية . وبفضل هذا النقش

---

(1) جمع كلوديوس قدرا كبيرا من المخطوطات والعاديات الشرقية قدمها جميعها إلى المتحف البريطاني .

وغيره من النقوش توافرت لدى رولنسون وغيره من الباحثين مادة كافية للدراسة المقارنة، يسرت لهم البدء في معرفة الحروف المسمارية، ومنذ ذلك الوقت أصبحت لكل قالب أو حجر يحمل نقوشاً أهمية كبرى وصفه وثيقة قيمة . ولو استطاعوا التغلب على عقبة فهم اللغة أيضا لكان ذلك فتحاً جديدة في تاريخ البشر، و لأمكن لتلك الأطلال الخرساء أن تنطق بعد طول صمتها.

كانت زيارة لايرد الأولى للموصل زيارة قصيرة، ومع ذلك فقد أتفق بعض الوقت في مسح ودراسة تل كوبونچيك الكبير، ثم انتقل مع متفورد إلى بغداد . وكان المقيم البريطاني في ذلك الوقت شخصا يدعى الكولونيل تيلور، وهو مستشرق ضليع ارتبط لايرد معه بأواصر الصداقة . كذلك تعرف ببعض مرؤوسي.

تيلور من صغار الضباط وهم الملازمون كاميل، وسلبى، وجونز الذين قال عنهم لايرد إنهم بالإضافة إلى عملهم الرسمي كانوا يقومون بأبحاث في الجغرافيا والآثار، وأخيراً واصل الشابان رحلتهما، فقاما بدراسة نقوش بهستان التي أثارت فضول لايرد لدرجة أنه عندما وصل مع متفورد إلى همذان كان رأيه قد استقر على عدم الذهاب إلى سيلان، فتوجه متفورد إلى الهند، بينما اتجه هو جنوبا الاستكشاف المنطقة الموحشة التي تسكنها قبائل البختيارى (التي أحب ملابسها واعتاد أن يرتديها) ورجال قبيلة البختيارى هم أكثر القبائل الفارسية شغباً، لكن مغامرات لا يرد معهم وهي عديدة تملأ جزءاً كبيراً من كتابه لا يتسع لها المجال هنا.

وأخيراً رجع لايرد إلى بغداد حيث أضطر بسبب دخله المحدود أن يعيش

في كوخ من اللبن، إلا أنه كثيرا ما كان يتردد على دار المندوب السامي البريطاني للاطلاع في مكتبة تيلور . وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين سلى وجونز، وكانا من سنة تقريبا، ورافقهم في عدة رحلات على القار بين البخاريين المسلحين «رآشور» و « نيتو كريس» وفي عام ١٨٤٢ عندما كانت الحرب وشيكة الوقوع بين فارس وتركيا، كلفه تيلور بالذهاب إلى مدينة القسطنطينية ليقدم تقريراً للسفير البريطاني عن الحالة الراهنة . وفي طريقه مر بالموصل حيث سنحت له فرصة مقابلة پول أميل بوتا، نائب القنصل الفرنسي الذي بدأ التنقيب تلك السنة في تل كويون چيك وكانت هذه هي بداية أعمال التنقيب في العراق وأوشك ستار الغموض أن يرتفع عن العالم الآشورى القديم.

عندما نشررتش كتابه Narrative of a Journey to the Site of Babylon أثار اهتمام الدوائر العلمية في أوربا، وكانت الجمعية الفرنسية الآسيوية مهتمة بصفة خاصة بالإمكانيات المتاحة للتنقيب في الموصل، وعين بوتا Botta (وهو عالم في التاريخ الطبيعي وكان والده مؤرخاً) نائبا للقنصل الفرنسي نظراً لخبرته الدبلوماسية في الشرق الأوسط، ولأن جول موهل Jules Mohl عضو الجمعية الآسيوية، توسم فيه كفاية الأثري . كذلك لعبت الهيبة الوطنية دورها في هذا الميدان، ذلك أن أول مثل دائم للشركة الشرقية الهندية البريطانية [1] في بغداد، كان بالمصادفة أثرياً هاوياً موهوباً فأفاد البريطانيون كل الفائدة، أما الحكومة الفرنسية فلم يكن اختيارها لبوتا قنصلا في الموصل مجرد صدفة، وهكذا يتضح لنا اختلاف موقف البلدين (انجلترا وفرنسا) في مجال البحث الأثري، وهو اختلاف نستطيع أن تراه واضحاً خلال السنوات التالية عندما نجده لايرد – الذي جعلته الظروف من رجال الآثار – يقوم

---

(١) British East Company.

بعمله العظيم مستعينا بمنحة مالية ضئيلة قدمها له المتحف البريطاني، بينما مولت الحكومة الفرنسية أعمال بوتا بسخاء . ومما يثير الإعجاب حقا بهذين الرجلين أن صداقتهما لم تتأثر بكل الخلافات بين بلديهما أو بالتنافس الشديد بينهما في ميدان العمل .

وكان أول كشف هام لبوتا في قرية خورسياد التي تقع على مسافة أربعة عشر ميلا من الموصل . وكان قد بدأ بحفر خنادق تجريبية فى كويو نچيك، لكنها لم تسفر عن نتائج مجدية . ثم سمع مصادفة عن أحجار منحوتة بالقرب من خورس باد فنقل عماله إلى تلك المنطقة . كان هذا في شهر مارس من عام ١٨٤٣.

ولم يكد العمال يبدءون حفر الخنادق في التل الكبير حتى اكتشفوا ألواحاً ضخمة من الحجر الجيري عليها نقوش بارزة واضحة، تمثل معارك حربية وحصاراً واحتفالات دينية لآلهة غريبة، تتكرر فيها دائماً صورة ملك آشورى يرتدي غطاء عالياً للرأس وله لحية كثة، وقد وقف يراقب انتصارات جيوشه [١].

ويقول سيتون لويد إنه في خلال بضعة أيام أصبح واضحاً أن هذا الكشف سوف يفتح آفاقا جديدة في التاريخ، وأرسل بوتا إلى موهل رسالته الشهيرة التي يقول فيها . "أعتقد أنني أول من اكتشف نقوشاً يمكن القول إنها ترجع إلى فترة ازدهار مدينة نينوى" [٢] .

وواقع الأمر أن بوتا كان قد اكتشف العاصمة الآشورية الجديدة التي بناها

---

(١) Lloyd, Seton - Foundations in the Dust.

(٢) Lloyd, Seton - Foundations in the Dust.

الملك سارجون الثاني في أواخر القرن الثامن ق.م. ولم تكن قراءة الخط المسمارى – الذي نقشت به هذه اللوحات قد تقدمت تقدماً يتيح معرفة اسم الملك، لكن هنرى رولنسون الضابط الشاب الذي حاول حل نقش صخرة بهبستون، عين مقيماً بريطانياً في بغداد حيث واصل أبحاثه في تلك اللغات القديمة ولم يبخل معلوماته على علماء الآثار ومنهم بوتا ولا يرد وغيرهم ممن يعملون في نفس الحقل.

وكان لاكتشاف بوتا في عصر فيكتوريا أثر شبيه بالأثر الذي أحدثه الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون في عشرينات هذا القرن، وأصبحت آشور فجأة ملء الأسماع، وأقبل الناس على دراسة الكتاب المقدس ليتنسموا أية بيانات ذكرها المؤرخون اليهود، وأخذوا يرددون في زهو أشعار بايرون في وصف هزيمة الملك سنخريب حيث يقول :

"وانقض الملك الآشورى كالذئب على قطيع الغنم .

وجيوشه تتألق في ملابسها الأرجوانية المذهبة

وبريق رماحه يلمع لمعان النجوم على صفحة البحر

حيث يهدر الموج الأزرق كل مساء على أرض الجبل" ..

وزخرت المجلات المصورة في كل من انجلترا وفرنسا بصور تمثل تفاصيل مناظر الحرب والفتح، والاحتفالات، والحياة اليومية لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت إلا بعض تلميحات في التوراة وبيانات غير واضحة للمؤرخين الكلاسيكيين . وأخيرة اضطرت السلطات البريطانية إلى القيام بإجراء ما، واستطاع لا يرد خلال عامى ١٨٤٣ و ١٨٤٥ أن يظفر

بوظيفة دبلوماسية مع السفير البريطاني، سير سترافورد كاننج في تركيا . و عندما ذاع نبأ اكتشاف بوتا التاريخي أثار ذلك النبأ اهتمام كل من كانتج ولا يرد، و كان بوتا كريما إذ سمح لها بالاطلاع على رسائله السرية التي تمر عن طريق استمبول، ونفذ صبر لايرد فألح على كانتج بضرورة الحصول على مساعدة رسمية للتنقيب باسم حكومته في التلال الأخرى التي يعرفها كتل كويو نچيك أو تل نمرود. وقبل نأ يقوم كانج بأجازته إلى انجلترا أخبر مساعده الشاب أنه –أي كانج – يوافق على تمويل عمليات التنقيب في نمرود فإذا أثمرت فقد يستطيع إقناع الحكومة البريطانية بتمويل عمليات أوسع، وفور الحصول على موافقة الحكومة التركية أسرع هنرى لابرد شرقا عبر الجبال... وجاء في كتابه :

"عبرت جبل بونتس وأحراش أسون بلاك، بأسرع ما في وسع جياد عربات البريد، ثم نزلت من الهضاب إلى وادي الدجله، وأسرعت عبر سهول آشور حتى وصلت الموصل في اثني عشر يوما".

الفصل الثاني

مدينة الثيران المجنحة

لاشك أن كل من زار المتحف البريطاني يعرف هذين العجلين اللذين يقفان كديدبانين عند مدخل القسم الآشوري، ولكل منهما جناحان ورأس آدمية، وتبلغ زنة الواحد منهما أكثر من عشرة أطنان وهما مصنوعان من البازلت الأسود ولهما بريق مرعب، وتبدو عليهما قوة غاشمة رهيبة . هذان الثوران وأغلب التماثيل والرسومات والنقوش البارزة الموجودة في القاعة من خلفهما قد رفعت جميعا من أماكنها بالعتلة ثم شدت بالحبال إلى أن استقرت على مصطبة أعدت لها خصيصاً، ودحرجت على عجل عبر أميال تحت شمس الصحراء المتوهجة، ثم نقلت بالآلات الرافعة إلى سفينة أقلتها من الخليج العربي إلى بمباى، فرأس الرجاء الصالح، وأخيرا وصلت إلى لندن، تم كل هذا تحت إشراف هنرى لايرد منذ أكثر من مائة سنة . وقام بكل هذا تحت ظروف قاسية.

وعندما وصل لايرد إلى الموصل استقبله الحاكم التركي محمد باشا . ولم يكن لايرد يطمئن إليه فأخفي عنه الغرض من تلك الزيارة وادعى أنه ينوى القيام برحلة للصيد.

ويقول لايرد:

"بعد أن حصلت سراً على بعض الأدوات واتفقت قبل الرحيل مباشرة مع أحد البنائين، أخذت معي مجموعة مختلفة من البنادق والرماح وغيرها من

الأسلحة، وأعلنت في الثامن من نوفمبر أنني ذاهب لصيد الخنازير البرية في قرية مجاورة، ثم ركبت نهر دجلة فوق طوف صنع خصيصا للرحلة . وكان يرافقني السيد روس وهو تاجر بريطاني بالموصل، وقواصي الخاص وخادم".

كان هدف لايرد هوتل نمرود، وهو أحد التلال الكبيرة التي تمتد بمحاذاة الشاطئ الغربي لنهر دجلة جنوبي تل كوبونجيك حيث كان يعمل بوتا . ولهذا الاسم رقة شاعرية، ذلك أن نمرود – كما جاء في سفر التكوين – كان نمرود اين كوش و حفيد حام الصياد الشهير، وكان ارتباط هذا الاسم الأسطوري بأحد تلال آشور القديمة حافزا قويا أثار في لايرد رغبة شديدة لاستجلاء الأمر، وحين ترامي أمامه التل الكبير ومن ورائه الشمس الغاربة، بعد رحلة استغرقت خمس ساعات، كان انفعال لايرد قد بلغ أقصاه .

يقول لايرد:

لم أنم طوال الليل إلا لماماً . فالآمال التي راودتني طويلاً توشك الآن أن تتحقق أو تنتهي بخيبة، ..... وسرح في الخيال وأخذت تتراقص أمام عيني صور قصور طواها الثرى، وحيوانات هائلة، وتماثيل آدمية ونقوش لا حصر لها ... وفي الصباح بعد أن غادرت خيمتى ... « رأيت تل نمرود الضخم في شكله المخروطي الهائل وكأنه جبل بعيد رسمته يد الطبيعة على صفحة سماء الصباح السافية، ولكن الصورة التي بقيت في مخيلتي إثر زيارتي الأولى لهذا المكان قد اختلفت تماما، فلا أثر للخضرة والزهور الزاهية التي كانت، تكسو الأطلال، فالخرائب ليست مكسوة بالخضرة والزهور المختلفة الألوان ولا أثر للسكان على الإطلاق، بل إن الخيام السوداء التي نصبها البدو لسكناهم في السهل قد اختفت هي الأخرى ولم تعد العين تقع إلا على فلاة موحشة

تلفحها هوج الرياح من آن لآخر وهي حاملة في طياتها سحب الرمال.

وكان لا يرد قد رأى نمرود آخر مرة في فصل الربيع ..ربيع العراق البديع القصير حيث تحقق الأمطار لأسابيع قليلة نبوءة التوراة (فتزدهر الصحراء مثل الورود) لكنه يزوره الآن في نوفمبر حيث يخيم على الصحراء صمت موحش فيتضاعف قحطها ورهبتها، وكانت أساليب الاستغلال والعسف التي اصطنعها الحكم التركى كريتلي أوغلو، سببا في هجرة سكان القرى من منازلهم ورحيل قبائل العرب من السهل الذي كانوا يقيمون فيه عادة إلى جنوب نهر زاب، ورغم ذلك فقد وجد الزوار بعض الأعراب في كوخ صغير، وتطوع أحدهم – وكان يدعى الشيخ عوض فأخبر لايرد درب هجرة السكان المنطقة ... وعندما عرف عوض هدف لايرد من زيارة نمرود، بدا عليه السرور وأبدى استعداده لإحضار عمال الحفر، ثم قص عليه أسطورة قديمة عن هذه الأطلال، فقال:

"إن الذي بنى القصر هو أتهور أحد ضباط نمرود، وهنا قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بتحطيم الأصنام التي كان يعبدها الكفرة، وثار نمرود الكاف لتحطيم آلهته وبحث عن إبراهيم ليقتله وشن عليه الحرب. لكن التي تضرع لله قائلا : ربي أنقذني من هذا الرجل.

واستجاب الله لإبراهيم.

فأرسل بعوضة أزعجت نمرود ليل نهار حتى بنى لنفسه حجرة من زجاج في ذاك القصر، كي يعيش فيها بعيدا عن الحشرة، ولكن البعوضة دخلت الحجرة، ونفذت من أذن نمرود إلى مخه، وأخذت تقتات منه، وحجمها يزداد يوماً بعد يوم، وكان الخدم لا يكفون عن دق رأى نمرود مطرقة ليخففوا من

وطأة آلامه المبرحة، لكنه مات بعد أن قاسي من ويل هذه الآلام أربعة قرون من الزمان".

ويضيف لا يرد:

تلك هي القصص التي يرددها إلى الآن الأعراب الذين يتجولون حول أطلال مدينة عظيمة، ولقد كانت أساطير هم تلك – دور علم منهم – سبباً في الكشف عنها.

ومنذ اليوم الأول في التنقيب، اقتنع لايرد بأن المكان يضم مبانى مهدمة، فقد كشف أول خندق حفره عن الجزء العلوي من لوحة كبيرة من الالباستر، وبمواصلة الحفر في نفس المكان اكتشف لوحة ثانية وثالثة ورابعة، وعندما انقضى الصباح كان قد عثر على عشر لوحات قائمة جميعا ومثبتة بعضها إلى بعض حيث تكون مربعة كبيرة، وفي وسط كل لوحة نقش بالخط المسمارى – بعد ذلك بدأ الحفر في جانب من جوانب التل وجدت على مقربة منه بقايا من حجر الالباستر، وسرعان ما ظهر جدار يحمل نقوشاً مماثلة باللغة القديمة، لكن لايرد لاحظ أن (اللوحات قد تعرضت لحرارة مرتفعة أحدثت بها شروخاً كبيرة حتى أنه خشى أن تنهار بعد رفع التراب عنها).

كان لدي لايرد في اليوم الأول ستة رجال، زاد عددهم إلى أحد عشر عاملا في الأيام القليلة التالية . وكان التنقيب المعلم مجهولا في تلك الأيام، ولذا فإن الأسلوب الذي اتبعه لا يرد في الحفر يعتبر بدائية إذا قيس بالأساليب الحديثة . ولم يكن لديه من الوقت ولا من الأيدي العاملة ما يكفي للكشف عن جميع الحجرات كشفاً دقيقاً، وكان إذا وجد جدارة حفر بجانبه حتى يكشف عن النقوش، لكنه "كان يترك وسط كل حجرة على حاله، وعلى

الرغم من ذلك فقد كشف في يومه الأول و حض الصدفة عن بقايا قصرين آشوريين وكان واضحا أن أحدهما وهو الأصغر قد استخدمت في بنائه بعض مواد انتزعت من الآخر، كذلك نقب لايرد في المرتفع المخروطي الضخم الذي يقع في الركن الشمالي الغربي من تلك المنطقة واكتشف أنه مشيد بقوالب متينة من اللبن . ولم يدرك وقتئذ أن ما عثر عليه هو بقايا برج درج، يمثل الطابع المميز لمدن آشور ومن قبلها مدن بابل وسومر. وقد صادف بوتا مبنى مماثلا في خر سو باد دون أن يدرك ماهيته في أول الأمر .

وخلال أيام قلائل تسربت بطبيعة الحال أنباء الاكتشاف إلى كريتلى أوغلو في الموصل فاستدعن لايرد لمقابلته، وكمعظم الشرقيين كان الحاكم يعتقد أن أية عملية تنقيب إنما تهدف للبحث عن الذهب . وتحققت شكوكه عندما وصلت إلى حوزته رقيقة صغيرة من الذهب كان لا يرد قد عثر عليها في إحدى الحجرات . وبعد ذلك بقايا طلب داوود أغا – قائد القوات التركية غير النظامية بالمنطقة إلى لايرد – في أدب جم – أن يكف عن التنقيب، إذ تما إلى علم الحاكم أن والمنطقة مقبرة المسلمين وأن الرجل الإنجليزي يقلق المؤمنين في قبورهم !.

وذهب لايرد مرة ثانية إلى كريتلي أوغلو، وكان تركيا بدينا له وجه قبيح كسمعته تماما . ويقول عنه لايرد: أمدته الطبيعة بكل أسباب النفاق والرياء . له عين واحدة وأذن واحدة، كان قصير القامة مترهلا، شوهت وجهه آثار الجدرى، صوته أجش خشن .. بحث كثيرا من العادات القديمة التي كادت أن تتلاشى أمام موجة الإصلاح التي سادت في ذلك العصر، وأصر إصراراً شديداً على ما يسمى : (ديش بارامى) Dish Parassi، أي (نقود الأسنان)، وهى جزية فرضها – بوصفه من أصحاب الجاه والسلطان – على جميع

أهل القرى مقابل ما يصيب أسنانه من تلف بسبب الغذاء الذي يتفضل بقبوله منهم !

وقال له لايرد : إنه لا توجد أية مقابر بالتل، كما نوه برفق إلى حادث صادف الحاكم إبان عمله وكان قد قصه الحاكم بنفسه حيث قال :

" أيام كنت في سيواس حاول علماء الدين أن يثيروا الشغب ضدي عندما استوليت على جزء من مقبرة عامة . لكني جعلتهم يسفون التراب وأخذت كل شواهد الأضرحة و بنيت جدران قصرى بها"

ولكن العجوز اللعين كان مستعدة للرد على لايرد وأجابه :

"ذلك حق، لكني كنت أتعامل هناك مع مسلمين، أما هنا فإني أتعامل مع أكراد وعرب، ويعلم الله أنهم حيوانات. لا، ليس في وسعي أن أسمح لك بالاستمرار في العمل وأنت أعز وأقرب أصدقائي إلى"، وإذا حدث لك مكروه فلن أغفر ذلك لنفسي أبداً" ..

وحين رجع لايرد إلى نمرود تبين أن الحاكم كان يحاول تطبيق ما فعله في سيواس، وإن يكن معكوسة هذه المرة . إذ بينهما هدم الأضرحة في سيواس، أقام في نمرود أضرحة جديدة . وذات يوم جاء داود أغا إلى لايرد واعترف له في خجل بأنه قد قام هو ورجاله — بناء على أمر الحاكم – طيلة ليلتين كاملتين بإحضار شواهد مقابر من قرى بعيدة لإقامتها في نمرود . كذلك قال داود أغا: «لقدم هدمنا من مقابر المسلمين الحقيقية أكثر مما كان في وسعك أن تهدمه على طول المسافة من الراب إلى السالمية، وهذا لإقامة أضرحة زائفة. لقد هلكت جيادنا وهلكنا نحن أيضا في حمل تلك الحجارة

الملعونة"..

كان داود أغا رغم خشونته، رجلا لطيف المعشر، وهو من الجنود المرتزقة يعيش على الأسلاب، وكان لا يرد يرى فيه رجلا كامل الرجولة وقد تفاهم الإثنان على خطة معينة، فبينما يذهب لايرد إلى القسطنطينية للحصول على فرمان واضح الصياغة لا يدع سبيلا لتدخل السلطات المحلية في عمله، يقوم داود أغا مع وكيل لا يرد (الذي عهد إليه بالتنقيب) بانجاز التعليمات السرية التي أشار بها. وحين عاد لايرد إلى نمرود في أوائل يناير، وجد أن الرجلين قد نفذا تلك التعليمات بأمانة تامة .

ويقول لا يرد:

"لم يقتصر الأمر على إزالة الأضرحة الزائفة بل تطرق إلى الأضرحة الأخرى التي كان يجب احترامها.

لكن هنرى استطاع أن يواجه الموقف بلباقته المعهودة وجادل البدو المستائين جدلاً نظرياً مقنعاً قال عنه في كتابه :

"وأثبت لهم أن الجثث التي بالمقابر ليست المؤمنين صادقين، لأن قبلتها لم تكن مدينة مكة . ومع ذلك أمرت بإعادة دفنها بكل عناية عند سفح التل ."

وسرعان ما اكتشف لايرد وعماله كنوزاً أكثر إثارة من مجرد اللوحات المنقوشة بالخط المسمارى . وقبل سفره إلى القسطنطينية كان قد اكتشف لوحتين كبيرتين محفور تين حفرة بارزة تمثل إحداهما [موقعة حربية بها عجلتان حر بيتان تجرهما جياد مطهمة وفي كل مركبة ثلاثة محاربين . والقائد

في كلتيهما رجل حليق الذين أغلب الظن أنه خصي، يرتدي زرداً كاملاً وعلى رأسه خوذة مدببة يتدلى من جانبيها غطاء يق الأذنين والجزء الأسفل من الوجه والرقبة، وذراعه اليسرى ممتدة إلى الأمام وقد أمسك بها قوسا، بينما أخذ يشد الوتر بيمناه حتى بلغ أذنه استعدادا لإطلاق السهم . أما المقاتل الثاني فيحث الجياد الثلاث على الانطلاق بأقصى سرعة ويدفعها بالسوط واللجام عبر السهل، وأما المقاتل الثالث فدون خوذة وقد أخذت الربيع تبعث بشعر رأسه ولحيته . وهو يمسك بيده درعا يحمى به القائد. وتحت أقدام الجياد تناثرت جثث المهزومين، بعد أن قضت عليهم سهام المنتصرين]. أما اللوحة الثانية فتمثل حصار قلعة داخل مدينة مسورة: المقاتلون يطلقون سهامهم من أبراج القاعة، والرماة يطلقون المقاليع، وثمة امرأة – يكشف عنها طول شعرها – ترفع يدها اليمنى وكأنها تطلب الرحمة . ويرفع أحد المدافعين مشعلا محاولا أن يحرق المنجنيق الهائل الذي يرتكز على الجدار استعدادا لدكة، بينما يحاول أحد المهاجمين أن يشكل بوابة القاعة، وزميله يحاول بدوره أن يفتح فجوة في الجدار الحجري بأداة حديدية .

في تلك البقعة وفي خرشو باد حيث كان بوتا ينقب في مكان مماثل، رأى أبناء القرن التاسع عشر لأول مرة كيف كان الآشوريون يحاربون، ولم يعد ذلك الشعب الذي يستهوية القتال مجرد اسم يتردد في صفحات الكتاب المقدس، إنما خرج من هذه الصفحات ليحيا من جديد.

كان بعض هذه اللوحات ذات النقوش البارزة قد أصابها التلف من جراء حريق اشتعل بها، فأصبحت هشة يستحيل معها نقلها من مكانها، وكان واضحا أن جزءا من القصر قد تعرض للحريق عندما نهبه العدو، ومع ذلك فقد وجد لايرد في جهة أخرى من التل نقوشاً سليمة يمكن نقلها . على أن

أروع اكتشاف له قد تم ذات صباح وهو في طريقه إلى نمرود بعد زيارة أحد شيوخ المنطقة، فقد رأى فجأة اثنين من الأعراب على جواديهما متجهين نحوه وهما ينهبان الأرض نهباً . ويقول لايرد :

"وعندما وصلا إلى توقفا قائلين (أسرع بابيك أسرع إلى العال. لقد وجدوا نمرود ذاته . والله إن هذا الأمر عيب لكنه حقيقي. لقد رأيناه بأعيننا لا إله إلا الله)، ولم يزيدا على ذلك حرفاً، ثم اتجها مسرعين نحو خيامهم ".

وعندما وصل لايرد إلى الخرائب وجد العال عند خندق عميق، ثم تقدم عوض طالبة (حلاوة)، الاكتشاف، بينما أزاح البدو ستارة كانوا قد أقاموه على عجل، فكشفوا عن رأس آدم هائل صنع من الألباستر المحلى، وكانوا قد أتموا رفع التراب عن الجزء الأعلى من التمثال كله، بينما بقي جزؤه الأسفل في باطن الأرض، وأدركت على الفور أن تلك الرأس الآدمية لابد لأسد أو لثور مجنح كتلك التي اكتشفت في خرشوباد و برسيبوليس .

كان التمثال آية من آيات الفن الآشورى . واتضح – كما توقع لايرد أن ما كشف عنه هو الجزء الأعلى من تمثال هائل الثور مجنح ذى رأس آدمى، كان أحد ثورين أقيم على جاني إحدى البوابات للدراسة، ولم يكن غريبا أن يدهش العمال و يفزعوا مما رأوا .

"وكانت الرأس الضخمة التي ابيضت بمرور السنين وهي تخرج هكذا من باطن الأرض خليقة أن يحسبها السكان لواحد من تلك الكائنات المرعبة التي تصورها أساطير المنطقة للآدميين وهي ترتفع في بطء من العالم السفلى إلى عالمهم، وحين وقع نظر أحد العمال على هذا المارد، التي بمقطفه على الأرض وأخذ يعدو بأقصى سرعته نحو الموصل، وقد أسفت لهذا النبأ لأني

توقعت نتائجه السيئة سلفاً"

وتحققت مخاوف لايرد، لأن الأنباء التي حملها الأعرابي الفزع أقامت الموصل وأقعدته، وتدفق السكان من المدينة عن النهر ليشاهدوا المعجزة بأعينهم. وسرعان ما ظهرت المشاكل السياسية والدينية، فقد دعى علماء الدين على عجل لمناقشة الأمر، لكنهم عجزوا عن اتخاذ قرار في شأن نمرود، وهل كان نبيا صادقة أم مارقة من الكافرين ؟ ومع ذلك فقد أرسلوا احتجاجا للحاكم إسماعيل باشا الذي خلف كريتلى أوغلو الممقوت .. وبرغم أنه كان أكثر من سلفه تفاهما، فقد اضطر إلى أن يطلب من لا يرد وقف عمليات التنقيب حتى يتجلى الموقف، وأمر بالمحافظة على الآثار التي اكتشفت و عدم إتلافها بأي حال من الأحوال مع وقف التنقيب فوراً.

وصدع لايرد بالأمر فسرح عماله محتفظاً بحفنة منهم إلى أن هدأت الحال، واستغل تلك الفترة في دراسة ما تبقى من القصور التي رفع التراب عنها وترك العنان لتأملاته .

قال في هذه المناسبة :

" لقد اختفت (القصور) عن عيون البشر خمسة وعشرين قرنا من الزمان وها هي ذي الآن أمامنا في كامل جلالها القديم. لكن الأوضاع من حولها تغيرت كل التغيير، فقد حلت بعض القبائل الهمجية التي يسيطر عليها الجهل والبؤس محل دولة عظيمة متحضرة مترفة، وتحولت المعابد بكل تراثها والمدن العظيمة بكل رخائها إلى خرائب و تلال من التراب المتراكم. وفوق القاعة الفسيحة التي كانوا يقفون فيها، مر المحراث و تمايلت سيقان الغلال ... لقد أصبحت نينوى الآن "خراباً مجدية كالقفر، تربض في وسطها القطعان

ومختلف أنواع الحيوان، وغدت تيجان أعمدتها أوكاراً للبوم والقنافد . وثمة صوت ينبعث في الكون (خراب على الأعتاب)، (صفنيا : الإصحاح الثاني).

ومع أن نمرود شيء ونينوى شيء آخر إلا أن النبوءة تنطبق عليه أيضاً.

وأصبح واضحاً أن مواصلة العمل تحتاج إلى أمرين : أولا موافقة صريحة من الحكومة التركية، وثانيا : منحة مالية من وزارة المالية البريطانية . ونجح كانج أخيرة في تحقيق الأمر الأول وهو في القسطنطينية، لكنه حين عاد إلى انجلترا بعد انتهاء عمله سفيرة لبريطانيا لدى الباب العالي، حاول الحصول عل معونة رسمية لايرد فلم يجد تشجيعا كافية . وعندما هدد مازحة بأنه سيتعاون مع رولنسون (الذي استقر في بغداد) في عملية مشتركة للتنقيب، تحرك المتحف البريطاني أخيرة وقدم له ألفين من الجنيهات وهو مبلغ هزيل إذا قورن بالمنح السخية التي حصل عليها بوتا من حكومته. ومع ذلك وقبل أن يصل الاعتماد الرسمي لتلك المنحة استأنف لا يد العمل الذي أخذه على عاتقه .

ولم تفته مشاكله، على الرغم من حصوله على فرمان من الباب العالي، ذلك أن بوتا كان قد سلم عمله في الموصل بصفة مؤقتة إلى فرنسى آخر اسمه رويه وهو رجل غيور، وضيع النفس، حاول بكل طاقته أن يدس ليعرقل عمل لايرد. كما أنه أرسل عملاءه إلى كل مكان ليضع يده على أكبر عدد ممكن من التلال التي لم يسبق التنقيب فيها . وهكذا بدأت هرولة دولية غير كريمة للحصول على التحف الأثرية بينما وقف متحف اللوفر والمتحف البريطاني موقف المتفرج. ومن حسن الحظ أن بعض العلماء تعالوا عن خوض هذه المعركة المزرية وقدموا مساعدتهم خالصة لزملائهم دون تحيز إلى

جنسياتهم . فنجد مثلا أن رولنسون واصل بحوثه على الخط المسمارى . وكي يستطيع العمل في جو العراق الحار أقام لنفسه في حديقة مكتب المقيم البريطاني صغير يدخل إلى النهر، وأنت مضخات نرف ماء بصمة دائمة من فوقه لترطيب الجو وإتاحة الفرصة للرجل العظيم كي يعمل مستريحاً حتى عندما ترتفع الحرارة إلى ١٢٠° في الظل بمدينة بغداد . وكان روانسون يرحب في كشكه هذا بكل من لا يرد وبوتا على السواء .

وحين حمل عمال لايرد معاولهم وبدأوا ينقبون مرة ثانية في نوفمبر ١٨٤٦ في تل نمرود حققت الاكتشافات أكثر مما كان يحلم به .

واستطاع الفتى الذي كان يستغرق في قراءة ألف ليلة وليلة وهو مستلقي تحت المنضدة الفلورنسية، استطاع أن يقص على الناس في عصر الملكة فيكتوريا قصة تكاد تضاهي الأساطير التي قرأها سحر و خيالا، ولكنها واقعية وليست من نسيج الخيال.

ويقول لا يرد : كانت الأسابيع الستة الأولى في أعمال الحفر التي جرت على نطاق واسع، من أغزر الفترات إنتاج خلال مدة عملي في آشور، ففي كل يوم من أيامها كنا نخرج بكشف جديد ..

وبدأت حجرات قصور "آشور بانيبال" وأسر حارون، تظهر واحدة تلو أخرى بعد أن بقيت غارقة في الظلام طيلة ٣٠٠٠ سنة، و بينما يرفع العمال مئات الأطنان من التراب وهم ينشدون، كانت الرسومات البارزة، والنقوش، والمداخل التي تحرسها ثيران مجنحة أو أسود، ومواكب الآلهة، كانت كل هذه تتألق تحت الشمس الساطعة . وبدت خشونة الفن الآشورى وصرامته متمشية مع وحشية كثير من المناظر التي يعرضها . فالشعب الآشورى – كما

نعلم الآن – كان شعبة مقاتلا أولا وقبل كل شيء . أما ما كان لديه من ثقافة مثل طريقة الكتابة المسمارية، والعلوم الرياضية، والفلك، والطب، فقد أخذها عن شعوب أقدم منه، تغلب عليها ثم نقل حضارتها . ونجد جدران القصور التي كان ملوك آشور يقيمون فيها الولائم ويستقبلون بها رجال البلاط مزينة بصور المعارك الحربية والانتصارات وما يعقبها من احتفالات، بعكس قدماء المصريين مثلا الذين زينوا جدران قصورهم بصور من الفسيفساء تمثل الحدائق وما فيها من أزهار وأشجار وطيور.

وفيما يلي فقرات موجزة من وصف لايرد لتلك المناظر الآشورية : " الملك وحاملا العلمين وأحد الخصيان في عربة القتال، و أربعة مقاتلين بينهم خصي على ظهور الجيات . أما العدو فكان يحارب راجلا وجنده يطلقون سهامهم .. وثمة نسور تحوم في الجو فوق المنتصرين، وقد انقض أحدها يلتهم إحدى الجثث .. وهنا وهناك .. توجد مجموعات تقاتل العدو . وأسفل الصورة ثلاث جثث بلا رءوس ترمز إلى القتلى .."

وكانت بعض النقوش البارزة التي اكتشفت فيما بعد وحين حلت رموز الكتابة لها أكثر من سابقتها بشاعة . فهي تمثل تعذيب الأسرى إما بسلخهم أحياء أو بوضعهم على خوازيق . وجدت بها الأسطر التالية :

"من كل اثنين قتلت واحداً، وأقمت، جدارة أمام البوابات العظيمة بالمدينة، وأمرت بسلخ زعماء المتمردين وغطيت ذلك الجدار بجلودهم . ووأدت بعض هؤلاء في بناء الجدار، كما صلبت البعض الآخر على طول الجدار، وأمرت بسلخ عدد كبير منهم أمامى وغطيت الجدار بجلودهم "

وإذ يرى المرء هذه المناظر ويقرأ تلك العبارات يتضح له سبب فرحة

النبي ناحوم وهو يتنبأ بدمار نينوى قائلا:

"ويل للمدينة الدامية ! ملاية كذبا وخطفة . لا يزول الافتراس، صوت السوط، وصوت رعشة البكر وخيل تخب و مركبات تقفز ".

" نعست رماتك يا ملك آشور، اضطجعت عظماؤك، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع . ليس جير لانكسارك، جرحك عديم الشفاء . كل الذين يسمعون- خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام [1] ؟ ".

وقبل أن يعود لا يرد في العام التالي –١٨٤٧ إلى لندن " قام بفحص تل نينوى (كويونجيك) وحدد مكان قصر " سناخريب " لكنه لم ينقب فيه بصفة.

جدية إلا بعد سنتين . وفي انجلترا عرف والألم يعتصره – أنه حين فتحت في المتحف البريطاني صناديقه الثمينة التي ملأها بالآثار التي عثر عليها، وجد كثير منها مهشماً، وبعضها مفقوداً، كما أن المجموعة بأكملها لم تكن في الوضع الذي رتبها عليه ومن ثم ضاعت قيمة سجل التصنيف الذي أعده لها.

واتضح أن هذه الكارثة وقعت في بومباى . فبينما كانت الصناديق في الجمرك تنتظر نقلها إلى إنجلترا، لم تستطع الجالية البريطانية هناك أن تقاوم إغراء فتحها وفص محتوياتها، وألقى القسيس المحلى محاضرة عن أثمن اكتشافات لايرد، وهي مسلة " شالما نصار " الثالث السوداء، وذلك على الأرجح ليثبت نظرية دينية كانت تفتقر إلى الدليل القاطع . ومما يستحق الذكر

---

(1) ناحوم : الإصحاح الثالث بالعهد القديم في التوراة .

أنه بينما كان الاهتمام بالآثار الآشورية في فرنسا اهتماماً علمياً وفنية كان البحث العلمي في بريطانيا آنذاك يعاني من بعض رجال الدين المتعنتين الذين صمموا على إقامة الدليل على صحة كتاب العهد التقديم حرفيا . وبعد أن أشبع القس وأصدقاؤه حب استطلاعهم، أعادوا تعبئة صناديق لايرد بإهمال أدى إلى تحطيم وتلف الكثير من محتوياتها وضياع قيمتها من الناحية الأثرية.

وعلى نقيض ذلك نفلت مكتشفات بوتا إلى فرنسا بمنتهى العناية، إذ هيأت الحكومة الفرنسية سفينة لهذا الغرض، ومولت بسخاء عملية نشر كتاب بوتا (Monuments de Niniveh) (آثار نينوى) في خمس أجزاء لخمة مزينة بنقوش من الصلب منقولة عن رسم "فلاندان" الجميل . وفي هذا الصدد يقول سيتون :

" بلغ من تقدير الفرنسيين لقيمة هذه الاكتشافات أن المبلغ الذي رصد لنشر الكتاب كان يعادل المبلغ الذي خصص للبدء في عمليات التنقيب، إن لم يزد – عليه [1] ".

و عندما حاول لا يرد أن يحصل على مساعدة من الحكومة لنشر رسوماته – وتخطيطاته قوبل بالرفض . ولحسن الحظ أن شركة جون ميرى للنشر تقدمت للقيام بهذا العمل، وإليها يرجع الفضل في ظهور مجموعة تلك الرسومات . وفي عام ١٨٤٩ نشر لايرد كتاب آخر بعنوان Niniveh and its Remains (نينوى وآثارها) أثار اهتمام الجمهور لدرجة أن المتحف البريطاني تحرك أخيراً وقدم منحة قدرها ٤٠٠٠ جنيه للعمل في التنقيب ثانياً، وبعد أن قبلت المنحة، خفضها المتحف إلى ٣٠٠٠ ج.

---

(1) Lloyd, Seton : Foundations in the Dust.

وعاد لا يرد إلى الموصل في أكتوبر عام ٨٤٩، وبدأ العمل في الحفريات يساعده "كريستيان راسام " نائب القنصل البريطاني . وكان رولنسون وغيره قد أحرزوا في ذلك الوقت تقدماً في حل رموز الخط المسماري لدرجة تمكنهم من قراءة النقوش البسيطة . وبدأ الاهتمام بتركز على الكتابة أكثر من المناظر المنحوتة – برغم أن هذه الأخيرة اكتسبت أهمية جديدة نظرا لأنها كانت تحمل كذلك كتابة قد تكشف عن أسماء الملوك الآشوريين، وتفاصيل الحروب التي قاموا بها.

وحول لا يرد اهتمامه نحو تل كويونجيك (نينوى) وأثمر مجهوده عن اكتشاف قصر الملك "سناخريب" الذي جاء ذكره في التوراة في سفر الملوك الثاني بالإصحاح ١٩ :

"وفي السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا صعد "سناخريب" ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور في لكش يقول : وقد أخطأت فارجع عنى، و مهما فرضت على أديته، فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مائة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب. جمع حزقيا كل الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك . في ذلك الزمان نزع حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملك آشور، . واليهود كأي قبيلة صغيرة أخرى تعترض أراضيها طريق جيوش مصر و آشور، كانوا معرضين دائما للقدر المحتوم في تلك الحالات عندما تشتبك الإمبراطوريتان في حرب . وساند حزقيا المصريين فكان تصيبه أن . ى مدنه الحصينة، تدمر كما فرضت عليه جزية باهظة .

وعندما حفر لا يرد في تل كويونچيك وجد على الجدران الداخلية بقصر سناخريب نحتاً حائطياً يمثل حصار مدينة ليكش المذكورة في النص أعلاه. وتبدو بشاعة المنظر بنفس القوة والواقعية اللتين يتسم بهما الفن الآشورى: المهاجمون يقوضون الأسوار من أساسها والمقاتلون بخوذاتهم يتسلقون جدارة عالية تحميهم دروعهم، ووابل من الحجارة والمشاعل والسهام المشتعلة يلقيه المدافعون وهم يعرفون مصيرهم المحتوم سلفة . يلي هذا منظر النصر يمثل سناخريب جالسا على عرشه استعرض حشود الأسرى من رجال ونساء بينما أخذ الجلادون يمديهم الطويلة ساخون جلود زعماء اليهود وهم بعد على قيد الحياة .

فلا لوم بعد ذلك على حزقيا إذا نزع رقائق الذهب من معبد الرب لينقذ نفسه وشعبه من مصير كهذا .

لكن أعظم نصر أصابه لا يرد في نينوى كان اكتشاف المكتبة الملكية، وهي عبارة عن حجرتين تكدست بهما ست وعشرون ألف لوحة منقوشة تختلف وبين أدب تاريخى و مكاتبات دبلوماسية وعقود تجارية ووثائق علمية وطبية .

"كانت العلوم تحتل بين لوحات المكتبة مركزاً مرموقاً . أما الطب الحقيقي (لا السحر)، فقد أخذ مكانه اللائق في نحو خمسمائة لوحة تتضمن وصفات جيدة وأمينة لكافة أنواع العلل المعروفة، من أمراض الأذن، لأمراض العيون لحالات الوضع، وإنقاذ الغرقى، وهي تدل على معرفة بحوالي خمسمائة نوع من العقاقير العلاجية. وفي علم النبات ذكرت مئات من أسماء النباتات مع عرض شامل لخواصها أما في علم الكيمياء فكانوا قد اكتشفوا

فوائد استعمال عدد وافر من المعادن وتركوا بحثا عظيم القيمة في صناعة الزجاج وتلوين الفخار بالألوان اللامعة [1].

على أنا لا ندين بهذا التراث الأدبي للآشوريين، وإنما للبابليين و السومريين الذين شادوا حضارة زاهرة في جنوبي العراق قبل مولد سناخريب بأكثر من عشرين قرناً من الزمان.

والواقع أن بعض الميثولوجيا الشعبية، والشعر الحماسي، والأساطير التي وجدت بمكتبة الملك الآشوري لا تمت لسناخريب بصلة ما، وكل ما حدث هو أن الكتيبة الآشوريين قاموا بنسخها و نسبوها لأنفسهم. ولم يدرك هذا لا يرد أو غيره من علماء الآثار في عام ١٨٤٩ ولكنهم – كما فعل شليمان عندما تنقب في تروادة ولوكتاى – قد فتحوا الطريق أمام أجيال العلماء من بعدهم كى يكشفوا عن حضارة أقدم وأزهى بكثير من حضارة الآشوريين . وسوف نتحدث في الفصل التالي عن جهود هؤلاء العلماء وعن المدن السومرية الدارسة التي كشفوها.

وفي أبريل عام ١٨٥١ عاد لايرد إلى لندن إذ انتهى عمله في ميدان الآثار، وبدأت مهمته كدبلوماسي، وذلك بعد أن نقلت السفن إلى انجلترا مائة وعشرين صندوق مليئة بالتحف التي كشفها، وهناك استقرت نهائية حيث تشغل جانبا كبيرا من جدران المتحف البريطاني .

ويستطيع المرء أن يدرس هناك – إذا أراد – بطولات هؤلاء المقاتلين المرعبين . وسيجد أن منظر لحاهم – الذي يذكرنا برجال عصر الملكة

---

(1) Campbell-Thomson : A Century of Exploration at Niniveh. London, 1929.

فيكتوريا – يوحي بما عرف عن هؤلاء الرجال من قسوة وحب للسلطان، وفي هذا يقول سيتون لويد:

"كان هناك نوع من الاتصال بين تلك الثيران الآشورية الغليظة وفلسفة أواسط العصر الفكتورى – تلك الفلسفة المحافظة المتزمتة التي تؤمن إيمانا راسخا بضرورة الوصول إلى أسمى مدارك الحياة، وتحدد الطبقات الاجتماعية تحديدا صارمة على نحو ما جاء في التعاليم الدينية ..." .

أما نحن الذين لمسنا عن قرب حقائق الحروب والفتوحات، فإن هذه الرسومات الآشورية لا تستهوينا بكل ما فيها من قوة غاشمة، وأما مؤلف هذا الكتاب، فإن مكتشف هذه اللوحات وأعماله هما اللذان يثيران إعجابه واهتمامه .

ونستطيع أن نجيب على الذين يعترضون على نقل تلك الآثار من العراق بالآتي : أولا : لو أن تلى كويونجيك و نمرود تركا لحالها حتى يكشف عنهما في عصرنا هذا لتمت عمليات التنقيب بمزيد من العناية والخبرة، ولأمكن إنقاذ الكثير مما تلف نهائيا، ولكن منذ اللحظة التي اهتم فيها الأوربيون بشئون آشور أصبح القيام بأعمال الحفر في مدنها القديمة أمر لا مفر منه . ولو لم ينقل لايرد تحفه إلى انجلترا لنقلت إلى متاحف أوربية أخرى أو بقيت معرضة دون حراسة – كما حدث في حالات كثيرة – وانتهى الأمر بإتلافها على يد البدو نتيجة لتعصبهم الأعمى، حيث يعتقدون أن الصور المنحوتة رجس من عمل الشيطان. و لعلنا، بنظرة ثاقبة، لا نخطئ إذ تعتبر بريطانيا والعراق مدينتين بالفضل للايرد .

الفصل الثالث

مدن بابلونيا القديمة

كانت المدن الآشورية – نينوى ونمرود و آشور وغيرها مشيدة على أعالي نهر دجلة بمنطقة الهضاب في شمال العراق . أما المدن السومرية التي عرفت فيما بعد بالمدن البابلية، فهي أقدم وأعرق بكثير من مدن الشمال وتقع على بعد مئات الأميال جنوبا حيث يزحف الرافدان عبر سهل أغبر يبدو كأنه يمتد إلى مالا نهاية، وعرف الذين دو نوا العهد القديم (التوراة) هذه المنطقة باسم « أرض شعار » وهي التي قصدها أبناء سيدنا نوح قادمين من الشرق، وشيدوا بها مدينة لهم .

" وكانت الأرض كلها لسانا واحداً ولغة واحدة . وحدث أثناء ارتحالهم من الشرق أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً نحرقه حرقاً، فكان لهم اللبن مكان الحجر والحر مكان الطين . وقالوا هل نبنى لأنفسنا مدينة وبرج نجعل رأسه في السماء و لنصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه الأرض"

هكذا يبدأ الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

ولعل أجداد اليهود الأول قد استقروا فعلا في هذه المنطقة، فإذا صح هذا، فإنما كانوا مجرد جماعة واحدة بين شعوب عديدة كانت تقم هناك . وكل ما يمكن أن نجزم به هو أن واحدة من أقدم حضارتين [1] عرفهما العالم

---

(1) الحضارة الثانية كانت في مصر .

قد نشأت في منطقة مدن هذه المنطقة . جنوب العراق وأن أور الكلدانية، وهي مسقط رأس سيدنا إبراهيم كانت بين مدن هذه المنطقة.

وحتى منتصف القرن الماضي لم نكن نعرف شيئاً عن السومرين وحضارتهم باستثناء تلميحات عابرة وردت في التوراة عن أرض شنعار . ولم تجتذب هذه المنطقة الرحالة ويتضح سبب ذلك من وصف السير ليونارد وولى لها :

"ويستطيع المرء إذا ما وقف على قمة هذه الرابية (رابية أور) أن يرى على طول خط الأفق من ناحية الشرق بساتين النخيل ممتدة على ضفاف النهر كأنها أفرين داكن بينها تنبسط من حولها ساحات شاسعة من الرمال لا تدري العين مداها . وفي الجنوب الغربي تقطع خط الأفق قمة مرتفعة رمادية هي كل ما تبقى من أطلال البرج المدرج المدينة (أريدو) المقدسة التي يعتبرها السومريون أقدم مدن العالم جميعاً . وقد ظهر في الشمال الغربي موقع تل العبيد عندما يلقي بظلاله وقت الغروب، ثم لا شيء خلاف هذه المعالم يخفف من وقع رتابة منظر هذا السهل الشاسع الذي تراقص فوقه موجات الحر اللافح، وينشر السراب الساخر في أرجائه مياهه الرصينة . ويبدو مستحيلا أن مكانا قفرة كهذا كان صالحا لسكنى الناس في أي زمان، ومع ذلك فإن تلك التلال المتهدمة التي تطؤها بأقدامنا تخفي من تحتها معابد و منازل عظيمة" (١)

ومع ذلك فكل مستجيب لنداء الماضي البعيد يجد في جنوب العراق سحرة جذابة . وكما تتغير أشكال السحب وألوان السماء والبر والبحر وقت

---

(١) Wooley, Sir Leonard. Ur of the Chaldees. Pelican Books (). London.

الغروب، كذلك يتداخل ويمتزج قصص العهد القديم مع أساطير بابل، والتاريخ المدون، واكتشافات المنقبين لدرجة يصعب فيها تحديد أين ينتهي هذا ويبدأ ذاك .

وقد ذكرنا على سبيل المثال نصا من سفر التكوين جاء فيه أن أباء سيدنا نوح شيدوا مدينة في أرض شعار، ونستطيع أن ترجع إلى أبعد من ذلك في التاريخ حتى قصة الطوفان حيث نجد في التوراة ما يلي :

" وجدت بعد سبعة أيام أن مياه الطوفان طغت على الأرض .. وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض، و تكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه و تكاثرت جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه "..

وبين الست و العشرين ألف لوحة المنقوشة بالخط المسماري التي اكتشفها لايرد في مكتبة آشور الملكية في نينوى، توجد ملحمة بعنوان (سانجبا امورو) – أي ("هو" الذي رأى كل شيء) اشتهرت باسم ملحمة جلجا ميش . ونجد في اللوحة الحادية عشرة الأبيات التالية :

"يا رجل شورورياك يابن أو بار توتو

اهدم (هذا) البيت، وابن سفينة

تنازل عن ممتلكاتك وانشد الحياة

احتقر الملك وأبق الروح حية

وعلى السفينة خذ معك بذور كل شيء حي

إن السفينة التي ستصنعها

لها مقاييس محددة

طولها مساو لعرضها

ومثل أبسود "Apsd" سوف تشكلها " .

وتمضي القصيدة فتصف الطريقة التي منع بها جلجاميش سفينته

" مائة وعشرون ذراعا لكل ضلع من السطح المربع

صنعت (هيكل) جوانبها ثم ضممتها إلى بعضها البعض

وأدخلت فها خوابير الماء

وتأكدت من سلامة القاع وأتيت بالمؤن

ثم جاء الطوفان

الذعر في أدآد يصل إلى عنان السماء

ويتحول إلى ظلام، كل ما كان منيراً.

وتفتت الأرض الواسعة كأنها إناء من فخار

وهبت زوبعة الجنوب يوماً واحداً

وتزايدت سرعتها وغمرت الجمال

ولا حقت الناس كأنها في معركة معهم

لا يستطيع امرؤ أن يرى زميله

ولا يستطيع أن يتعرف على الناس من ينظر إليهم من السماء" .

حتى كان اليوم السابع :

فاذا زوبعة الجنوب التي تحمل الطوفان تتخلى عن معركتها التي صارعت فيها وكأنها جيش

وهدأ البحر، سكنت الزوبعة، انتهى الطوفان

نظرت إلى الجو، كان الهدوء شاملا

تحول كل البشر إلى طين

كان وجه الأرض منبسطاً مثل سقف مسطح ...

وعلى جبل فسير رست السفينة .

وأمسك جبل فسير السفينة بقوة

فلم يسمح لها بحركة ...

وعندما حل اليوم السابع

أطلقت حمامة من عقالها .

ذهبت الحمامة لكنها رجعت .

لم يكن هناك مكان تستريح فيه فآبت

ثم أطلقت يمامة من عقالا .

انطلقت العامة لكنها آبت .

لم يكن هناك مكان نستريح فيه فرجعت ..." [1] .

وهكذا حتى يقول أخيرة انطلق غراب، ولما تبين أن المياه قد فاضت فقد أكل و حلق، وندق ولم يعد . وهكذا نجد في القصيدة كل العناصر المعروفة لنا (عن الطوفان) في التوراة (مع اختلافات طفيفة في التفاصيل)، إلا أن الأحداث هنا تجرى بتدفق وحيوية وسرعة أكبر . وإذا كانت هذه اللوحة قد نقشت –كما يظن – في القرن الثامن قبل الميلاد فقد دلت الشواهد فيما بعد على أنها نسخة من قصيدة سومرية أقدم بكثير، عثر لها على نظائر يرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٥٠٠ ق.م وهذه القصيدة بالذات ترجع إلى أبعد من هذا التاريخ، وربما إلى ما قبل اختراع الكتابة (عام ٣٠٠٠ ق.م تقريبا) .

وسفر التكوين بصورته الحالية يرجع إلى أبعد من عام ٧٠٠ ق.م على وجه التقريب، ومن المؤكد أن جماع (العهد القديم كانوا يعتمدون في كتابتهم على مخلفات أدبية يرجع تاريخها إلى ما قبل بداية تكوين تراثهم، وجاء هذا التراث الأدبي من أرض شنعار مسقط رأس سيدنا إبراهيم . أما كيف حصلوا عليه فليس ذلك واضحة، فلعله وصل إليهم عن طريق أجدادهم الأولين الذين كانوا يقيمون في جنوب العراق ولعل بعض العناصر (القصصية) الأخرى – تسللت إلى هذا التراث عندما نفوا إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

---

(١) Ancient Near Eastern Texts. Princeton University Press 1950. (Translation of the Epic of Gilgamish, by E. A. Speiser).

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ الرحالة الأوربيون يبحثون في جنوبي العراق عن المدن التي ورد ذكرها في التوراه . وكان التعرف على بابل أمراً يسيراً لأن مكان المدينة لم يندثر أبداً، حتى أننا لنجد تلا كبيراً، صناعيا لا يزال تحمل اسم بابل وسط الأطلال المتراكمة على مسافة ٢٥ ميلا، جنوبي بغداد. قرب قرية الحلة . وفي عام ١٨١١ ذهب إلى هذه المنطقة — كلوديوس ريتش – الذي سبق الحديث عنه – تصاحبه زوجته الشابة، وهو أول، من قام بفحص واع و شامل الأطلال هناك كما أنه رسمها وقام بمسحها، وكان يراقب العمال من سكان المنطقة وهم ينقبون ويحملون مئات الأطنان من قوالب الآن القديمة . وأخذ ريتش منها بعض النماذج التي تحمل نقوشا (كما ذكر اللورد با برون) . وفي ذلك الوقت لم تكن رموز الخط المسماري قد تم حلها ولم يكن لدي ريتش المال الكافي أو الخبرة اللازمة للقيام بحث علمي، ومع ذلك فإن كتابه «مذكرات عن أطلال بابل، الذي نشر أولا في فيينا، قد أثار اهتمام العلماء الأوربيين . وكان بمثابة نقطة الإنطلاق نحو دراسة الآثار العراقية .

وعلى الرغم من المسحة الدينية التقليدية التي تكتسي بها مقدمة الكتاب والتي تحملنا على الاعتقاد بأن بابل لم تكن ذات قيمة في نظر إله اليهود، إلا أنه الكتاب في ذاته مشبع بروح البحث العلمي . فلم يذهب الشاب الإنجليزي – ريتش إلى بابل ليسرح بخياله فوق أطلالها، وإنما ليفحص ويقيس وسجل اكتشافاته مستهدفة مصلحة الباحثين من بعده، ويضم كتابه عددا كبيرة من الرسومات ... والخرائط والتخطيطات الدقيقة . وبعد أن تسلح بسكتب هيرودتس « وسترابو، و غيرهم من الكتاب الكلاسكيين الذين وصفوا المدينة، بدأ في التعرف عن المعالم التي ذكروها بقدر المستطاع .

كتب ريتش:

"كنت أتوقع – بناء على ما ذكره الرحالة المحدثون – أن أعثر في أطلال بابل على أكثر ما عثرت عليه فعلا، من جهة، و على أقل منه من جهة أخرى : أقل لأني لم أستطع أن أكون فكرة عن اتساع مساحة الخرائب وضخامة حجم بعض مبانيها، والأطلال ومتانة بنائها وجودة حالتها ؛ وأكثر لاعتقادي أنني، سوف أستطيع أن أميز بعض المباني الرئيسية المدينة بابل مهما بلغ سوء حالها . كنت أتخيل أن سوف أقول : هنا كانت الجدران قائمة.. مساحة هذا المكان كانت كذا . هنا يقع القصر ... وهذا دون جدال برج بيلوس ... لكن خاب أملى على طول الخط فبدلا من بضعة تلال متناثرة. وجدت المنطقة كلها مغطاة بقايا أثرية به شما جدران في حالة سليمة بدرجة تثير العجب و بعضها الآخر كيمان عديدة من الأنقاض ".

وكل ما استطاع ريتش أن يراه من مخلفات كان عبارة عن تلال وجسور من اللبن والطوب الأحمر تكتنفها وهاد عميقة الغور و تتخللها أنفاق حفرها الحجارة و بعض أجزاء سليمة من الجدران المبنية بالطوب الأحمر . تلاك كانت بقايا المدينة الجبارة التي ورد ذكرها في التوراة حيث "أقام الملك بلشاصر وليمة عظيمة لعظمائه الألف وشرب الخمر قدام الألف" .

"وحيث كانت القاعة الكبرى التي ظهرت فها أصابع يد إنسان و كتبت بإزاء النبراس على مكلس حائط الملك، والملك يرى طرف اليد الكاتبة" .

(دنيال – الإصحاح الخامس)

وإذا كان شيء قد بقي من هذه القاعة فإن ريتش كانت تعوزه الوسائل للتعرف عليها، كما أنه لم يستطع التعرف على السور العظيم الذي وصفه

هيرودتس في القرن الخامس ق.م.

أما برج بابل الأسطوري فقد رجح ريتش أن يكون موقعه في أحد تلين متازان عن بقية الآثار بمزيد الارتفاع ومع ذلك فإنه لم يكن متأكد من صحة ترجيحه . والواقع أن بابل كانت مخيبة لآماله مثيرة لعجبه، فرغم اتساع الموقع إلا أن أعمال السلب والتدمير التي تعرض لها جعلت من المستحيل تقريبا إعادة تخطيطه أو التعرف على مبانيه .

وبعد مرور أربعين عاما على زيارة ريتش جاء (هنري لايرد) إلى بابل و تأثر تأثرا عميقا لمنظر الخرائب المترامية التي كانت فيما مضى العاصمة الشماء لغرب آسيا، وقال عن ذلك :

ولن أنسى أبدا الأثر الذي تركه في نفسي منظر تلك الخطوط الممتدة والآكام المكدسة كما ظهرت أمامي على بعد، ذات صباح والشمس مشرقة من ورائها، حيث كان موقع بابل .. فالوحشة والوحدة ومنظر تلك الروابي التي لا شكل لها، وهي كل ما تبقى من المدينة الشهيرة أمر مثير للخيال . وكما انفعلت عندما رأيت لأول مرة مدينة نينوى شعرت برغبة شديدة تدفعني إلى اكتشاف ما تخفيه هذه الآكام وخالجني شعور بأني سوف أبحث وأكشف عنها في يوم ما)

ولكن تكهنات لايرد لم تتحقق فهو لم يكن أوفر حظاً من ريتش في وضع تخطيط المدينة القديمة أو في اكتشاف أية آثار ذات قيمة فنية أو مادية . كانت جميع اكتشافاته ذات قيمة ثانوية ولم تتعد القوالب المنقوشة التي تحمل اسم (نابو خد نصر) وعدد من الأواني الفخارية والأختام الأسطوانية وبضع هياكل عظمية يرجع تاريخها غالبا إلى (السلوكيين). كتب

لايرد يقول:

(لم تدفن مع الجثث أية تمائم أو حلى. وكان خشب التوابيت متآكلا تماما حتى اضطررنا إلى نقلها على أجزاء بينها رائحة كريهة لا تطاق تفوح من هذه الأجداث الممجوجة ومن الممرات التي أصبحت سكنة لحيوانات ضارية وصلت إليها من أعالى التلال" ..

وبعد مضى بضعة أسابيع كان على "لا يرد" أن يعترف بالهزيمة وخيبة الأمل وكتب، يقول : "إن الاكتشافات كانت أقل عدداً وقيمة مما كنت أتوقع كما أنها تبشر بوجود آثار تحت أكوام الأنقاض والتراب تبرر مزيدا من التنقيب ... ولا أمل يرجي من البحث في منطقة بابل، . ومع ذلك فبعد مرور حوالي نصف فرن اتضح أن هذا الرجل العظيم كان مخطئا على طول الخط .

ومع ذلك فليس من الإنصاف أن نلوم لايرد، لأنه عندما عبر عن تشاؤمه كان المعروف عن مدن جنوب العراق قليلا جدا، لا يتعدى أن عددا كبيرة منها كان قائما على ضفاف الرافدين وعلى السهل المنبسط بينهما، كما يستدل من التلال الداكنة المتراكمة هناك. وبعد حل بعض رموز الخط المسمارى أمكن تحديد بعض هذه التلال بفضل القوالب المنقوشة التي وجدت بها. ومع ذلك فلم يكن قد اتضح في ذلك الوقت أن البابلين و السومريين كانوا مضطرين لبناء مدنهم بقوالب اللبن العنف في الشمس أو بالطوب الأحمر . بل إنهم كثيرا ما كانوا لا يهتمون بصناعة القوالب، وإنما يصبون الطين مباشرة لإقامة الجدران وهذا بعكس الآشوريين الذين كانوا يجدون حجارة البناء في متناول أيديهم . وحين تتهدم هذه المدن المبنية بالطين يصبح شبه مستحيل على المرء أن يميز بين ما تبقى من الحائط

المنهار وبين الأرض من حوله وما تراكم عليها من أنقاض، ولم تكن أساليب التنقيب المتبعة في عام ١٨٥٠ كفيلة بتحقيق مثل هذا التمييز، وحين بدأ لايرد الحفر في أطلال بابل، كان يحفر فيما تبقى من الجدران وفي الأنقاض المتراكمة دون أن يميز هذه من تلك. وقد مر بوتا من قبل بنفس التجربة المحيرة في مدينة آشور – العاصمة القديمة الدولة الآشورية .. وكانت هي الأخرى مبنية بالطين . وأصبح الأمر حينذاك يحتاج لا تباع طريقة جديدة وملاحظة دقيقة و عناية خاصة ومزيدا من الصبر. (كان يتطلب لمسة صانع الساعات لابد الحداد) . وكان رواد ذلك الأسلوب من أساليب الحفر الدقيقة في العراق هم رجال الشركة الألمانية الشرقية برياسة الدكتور روبرت كو لدويه وتختلف تجربة كولدويه وما أنجزه من أعمال عما قام به لايرد و بوتا . وصل كو لدويه إلى بابل عام ١٨٩٩ ووجد الخرائب على ما كانت عليه من قبل، نفس الخليط من التلال والخنادق والأخاديد الضيقة التي سبق أن رآها ريتش ولايرد. ومع ذلكم فإنه حين أدى نشوب الحرب العالمية الأولى إلى توقف أعمال الحفر بعد عمل دام خمسة عشر عاماً كانت معالم تلك الخرائب قد وضحت واتخذت شكلا معينة. وأصبح ممكن أن يحدد المرء بدقة نفس المدينة التي زارها هيرودوتس منذ خمسة وعشرين قرن من الزمان على وجه التقريب، وأن يميز الطريق المقدس و بوابة عشتار والبرجين الكبيرين على جانبيها، وأن يتعرف على كل مبانيها الرئيسية تقريبا وحتى على الجدار الكبير الذي فشل ريتش في الكشف عنه . وقرب وسط المدينة استطاع المنقبون أن يتعرفوا على معبد إتمنانكي Etemenanki وبرجه المدرج الكبير – الزقورة – Ziggurat – وكان ارتفاعه حوالى ٢٥٠ قدماً. ويكاد يكون مؤكدا أنه نفس برج بابل الذي ورد ذكره في سفر التكوين، وإن كان البعض يعتقد أن زقورة نمرود التي تقع غربي المدينة هي برج بابل المشار إليه.

كانت بابل من أقدم مدن جنوب العراق وكانت عاصمة للملك العظيم امورای الذي تربع على العرش حوالي عام ١٧٩٠ ق.م، لكن نشأة المدينة ترجع إلى ما قبل ذلك، وربما إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. وقد ورد اسم المدينة عند ذكر نمرود في الإصحاح العاشر من سفر التكوين حيث نجد :

"وكان ابتداء ملكته بابل وارك وأكد وكأنه في أرض شنعار".

أما المدينة التي كشفا كولدوبه فكانت مدينة "نابو خد نصر، بختنصر" (٦٠٥ – ٥٦٢) الذي انتصر على اليهود و ساقهم أسرى إليها ومعهم أمراء يهوذا وأورشليم والنجارون والحدادون، وذلك في الوقت الذي قال عنه أرميا:

"صوت سمع في الراما، نواح و بكاء مر . راشيل تبكى أولادها وتأبى أن تتعزى عنهم لأنهم ليسوا موجدين ..."

و تلك هي المدينة التي زارها هيرودوتس في القرن الخامس ق.م، وإلى أن كشف كولدويه عن شوارعها و معابدها منذ خمسين عاما فقط، كان وصف المؤرخ الإغريق من أهم مصادرنا عن مدينة بختنصر، وقد جاء فيما قاله هيرودوتس ما يلى :

"كانت المدينة – فضلا عن اتساعها تفوق جميع مدن العالم أبهة وعظمة ... "

ثم يمضي في وصف السور العظيم فيقول : إن محيطه يبلغ ستة وخمسين ميلا . وعرضه خمسون ذراعا (حوالى ٨٠ قدما)،، أما ارتفاعه فقد قدره بمائتي ذراع (حوالى ٣٢٠ قدما) .

" وفي نهاية السور، وبامتداد حافتيه، شيدوا صفين طويلين من الحجرات

المتقابلة . وكانت المسافة التي تفصل بين هذين الصفين تكفي لمرور عجلة ذات أربعة جياد وهي تعدو عدوة . وكان بالسورمائة باب صنعت كلها من البرونز بما في ذلك قواعها وعتباتها .. ويعتبر هذا السور الذي وصفته خط الدفاع الرئيسي عن المدينة، يليه سور آخر، يقل عن سابقه سمكا ولكنه لا يقال عنه متانة وقوة. وبطر في المدينة حصنان، في أحدهما شيد القصر الملكي داخل سور متين، وفي الآخر شيد معبد بعل كبير آلهة البابليين . وفي وسط المدينة برج عظيم مدرج يتألف من ثمانية طوابق مربعة الشكل، ويبلغ طول الضلع في الطابق الأول ٢٢٠ ياردة . وعلى قوة الطابق الثامن يقوم عبد الإله . وبه فراش مغطى بطنا في ثمينة وبجانبه منضدة مذهبة . وليس بالمحراب أية تماثيل، كما أن أحدا لا ينام في هذا الفراش (على حد قول الكلدانيين وهم كهنة بعل) سوى امرأة آشورية بمفردها يختارها الآله . ويقول الكلدانيون – ولو أنني لا أصدقهم – إن الآله يدخل المعبد بنفسه و يستريح على الفراش" .

ويصف هيرودوتس كيف كان الفرات وقسم مدينة بابل قسمين بحيث يضطر السكان لاستعمال "قوارب إذا ما أرادوا الانتقال من قدم إلى آخر . لذلك قامت زيتوكريس الملكة البابلية بتحويل مجرى النهر بصفة مؤقتة إلى خزان .

،وفي أقرب نقطة لوسط المدينة أقامت الملكة جسراً فوق مجرى النهر وبنته بالأحجار التي أعدتها لذلك واستعملت الحديد والرصاص في ربط الكل الحجرية بعضها البعض، وأخيرا عندما امتلأ الخزان وتم بناء الجسر أعادت

النهر إلى مجراه الأصلي [1].

وقام الكتاب الكلاسكييون الآخرون مثل بليني وسترابو وكنيسياس بإضافة المزيد من البيانات . كما كتب ديودورس الصقلي عن الحدائق المعلقة التي أنشأتها الملكة سميراميس . أقيمت هذه الحدائق على مصطبة مرتفعة مزروعة بالحشائش والزهور والأشجار ترويها صنادل، يرفع الماء إليها من النهر بوساطة مضخات . وكان أيضا بالمدينة طريق المواكب وهو مرتفع عن مستوى أرضها حيث تكون الشوارع زوايا قائمة . وتوجد معابد وقصور قمة لا نظير لها في العالم القديم . ولا شك أن إخراج ما بقي من هذه النفائس، ورسم صورة على الورق لما اندثر منها، قد يبدو أمر مستحيلا، ولذلك فنحن مدينون بالفضل في نجاح هذه العملية إلى جهود كولدويه ومساعديه من ألمان و عراقيين.

وقد جاء فيما كتبه سيتون لويد [2].

... أدى تتبع الجدران المدنية بالطوب الأحمر، وهو أمر سهل، إلى إتقان عملية تتبع المباني المصنوعة من اللبن، وهي عملية أصعب بكثير . وعلى أية حال فن المؤكد أن المنقبين جهزوا أنفسهم في آخر الموسم الثاني من العمل بمجموعة من البدو المهرة في التنقيب عن الجدران، وقد كون أولاد هؤلاء نواة عمال التنقيب حتى أيامنا هذه . وأصبح الكشف عن التفاصيل المعمارية فناً رفيعاً، ونتج عن ذلك أنه عندما عطلت أنباء الحرب في أوربا عملية التنقيب في بابل كان الكشف قد تم عن المدينة الملكية بكل

---

(١) Herodotus. The Histories. Translated by Aubrey de Selincourt

(٢) Lloyd, Seton, Foundations in the Dust.

ما فيها من حصون معقدة وبوابات ضخمة وطريق المواكب وجميع مبانيها الرئيسية تقريبا، وأصبح من الممكن إعادة بنائها بصورة مرضية وسليمة ...".

ومن الجحود أن نحاول الإلمام بأعمال كولدويه في صفحات قليلة، ولكني أعرض هنا بعض أمثلة قليلة منها: وجد المنقبون الألمان بعض بقايا من السور الكبير الذي كان يمنطق المدينة والذي سبق أن وصفه هيرودوتس وفشل كل من ريتش ولايرد في تحديد موقعه، وكان المؤرخ الإغريقي على حق فما وصف، فقد وجدوا كما قال، سورين وبينهما خندق مكدس بالأنقاض، وكان السور الداخلي مبنية بقوالب اللبن، أما السور الخارجي فقد بني بالطوب الأحمر . وشيدت بالسور

الداخلي أبراج يبلغ عرض الواحد منها نحو سبعة وعشرين قدماً، ويبرز بناؤه من جاني السور، وكانت المسافة بين كل برج والذي يليه نحوا من مائة وخمسة وستين قدماً . وكان بمجموع عرض السورين بما في ذلك الفجوة المملوءة بالأنقاض يبلغ حوالي ٨٠ قدم) وهي نفس المسافة التي حددها هيرودوتس، وكانت كما قال كولدو به في وصفه تتسع لمرور أربعة جياد بجانب بعضها البعض أو حتى المجموعتين منها تمر الواحدة بعكس الأخرى.

و هذا الطريق العريض كما جاء في وصف كولدويه وكانت له أهمية كبرى لحماية المدينة العظيمة . إذ كان يسهل تحرك القوات الدفاعية بسرعة نحو أية بقعة – عليها ضغط هجومى،.

والخلاف الرئيسي بين وصف هيرودوتس و اكتشافات كولدويه يتركز في طول السور الخارجي إذ يقول هيرودوتس أن طوله ٥٦ ميلا بينما حدده كولدويه ثلاثة عشر ميلا فقط . أما كتيسياس فيقول أن طوله اثنان وأربعون

ميلا وهو ما يعادل أربعة أضعاف الطول الفعلي ما يرجح أن كتيسياس قد اعتقد خطأ أن الطول. الكلى للسور هو طول أحد أضلاعه الأربعة فقط . أما بالنسبة لهيرودوتس فن الثابت أنه لم يكن ضليعا في الحساب .

وقد أشار "بختنصر" بنفسه إلى بناء هذا السور في نفش مسمارى نقله العالم الألماني وجاء فيه ما يلي.

ولكيلا يصل أي هجوم إلى ، أبجور بعل،، حائط بابل، قمت بما لم يقم به أي ملك من قبل فشيدت جدارة جبارة شرق بابل طوله ... ذراع وحفر خندقاً ووضعت أساسا بالقار[١] و الطوب الأحمر، ومن فوقه أقمت سورة بارتفاع جبل ...)

واكتشف كولدويه طريق المواكب العظيم الذي يخترق قلب المدينة من الشمال إلى الجنوب، ووسط الطريق مرصوف بلاط من حجر الجير تبلغ مساحة القطعة الواحدة منه ٣ أقدام مربعة أو أكثر بقليل وعلى الجانبين بلاط من حجر أحمر معروق بالأبيض . وتحمل كل بلاطة على حافتها النقوش التالية : "أنا بختنصر، ملك بابل، ابن نابو بولا سار . أيها الإله العظيم مردوخ امنحنا الحياة الأبدية، وكان مردوخ من أعظم الآلهة البابلية .

كان يقوم على جانبي طريق المواكب جداران دفاعيان كبيران سمك كل منهما ثلاثة وعشرون قدماً وقد زينا بقوالب من الخزف ذي الألوان الزاهية، ولا يزال الكثير منها باقية في المنطقة ويؤدى هذا الطريق إلى بوابة عشتار العظيمة التي لا تزال قائمة حتى الآن، وهي مكونة من ضلانتين ارتفاعهما .و

(١) البيتومين موجود بوفرة في العراق، وجاء ذكره في التوراة ويصنع القار منه

قدم تغطيهما رسومات بارزة على القيشاني، زاهية الألوان وتمثل صور ثيران و تنين . لاشك أن منظر هذا الطريق الفخم والأسوار الضخمة والبوابة العالية كان يبحث الرهبة في النفوس، ويمتد على جانبي الطريق طابور من الأسد الذهبية يزيد من تألقها لون القيشاني الأزرق الذي يزين الحائط . ويقول كولدويه :

"كانت الأسوار العالية تحمي الطريق إلى الرواية . أما الطريق نفسه، بنده المدججين بالسلاح فكان موتاً زؤاماً لمن يحاول اقتحامه من الأعداء . كان منظر الأسد المتألقة وهي تتعاقب في صفوف طويلة على الجدران، يلقى بالخوف والفزع في قلوب الأعداء والمارة المسالمين على السواء".

وفي القلعة الجنوبية التي يعرفها العرب باسم القصر، كشف المنقبون عن الجزء الأسفل من بناء مقبي السقف يشتمل على أربعة عشر قبة على هيئة براميل ضخمة تتحرك بسهولة إلى أسفل وإلى أعلى داخل المربع المحيط بها كما لو كانت عدسة مجهر. ويبدو أن البابليين كانوا ملمين تماما بعملية الفصل المتحرك منذ حوالي عام٦٠٠ق. ويقول كولدويه عن ذلك المبنى : (يعتبر هذا المبنى بقيا به طرازاً فريدة بين مبانى بابل، كما أن استخدام الحجر في بنائه كان أمرا شاذة ... فالملاحظ أن كل ما كتب عن بابل بما في ذلك النقوش المسمارية لم يرد فيه ذكر استعمال الحجر إلا في مكانين هما : الجدار الشمالي بالقصر (وفي الحدائق المعلقة) [١]

وفي إحدى الحجرات الصغيرة الملحقة بهذا المبنى المقبى اكتشف المنقبون بئراً غريبة الشكل تختلف عن الآبار الأخرى التي سبق اكتشافها

---

(١) Koldeway, Robert. The Excavations at Babylon.

سواء في بابل أو في غيرها من المدن القديمة . ففي هذه البئر ثلاث عيون عميقة، الوسطى فيها بيضية الشكل و على جانبيها عينان مربعتان، ويقول كولدوية عن هذه البتر ما يلى ولا يمكنني أن أفسر هذه البئر إلا على أنه كان بها آلات مائية تعمل على طريقة الطلبات التي ترفع الماء إلى أعلى بوساطة بمجموعة من الجداول المربوطة إلى سلسلة تدور على عجلة مثانة فوق الجدار "..

ولا شك أن هذا كان أساس البناء الذي أقيمت فوقه الحدائق المعلقة الشهيرة التي يبحث عنها المنقبون دون جدوى، وأغلب الظن أن السقف المقبى كان يحمل سابقة الطمي التي تزرع فيها الأشجار .

(يحمى السقف طبقة سميكة جدا من الطين أما الهواء الذي يدخل حجرات القصر خلال فروع شجر، فكان بطبيعة الحال رطبة بسبب الري الدائم بالحديقة، و من المحتمل أن موظفي الدولة كانوا يقومون بأعمالهم في هذه القاعات ذات الهواء الرطب ولا سيما في أيام الصيف الحارة . وقد وصف لنا الكتاب الإغريق والرومان الطريقة التي أتبعت لحماية سطح المبنى من تسرب الماء إليه، فإذا هي تطابق تماما ما نعرفه عن فن المعار القديم) .

ويضيف المؤلف ... وقد زاد من شهرة هذه الحدائق وصفها بكلمة ومعلقة برغم أن كلمة (Pensilis) التي وردت على لسان كرتس روفوس (Curtis Rufus) كانت لا توحي للعلماء القدماء نفس المعنى الرائع الذي توحيه لنا، فهي عند الرومان تعني مجرد الشرفات ولم يكن فيها أي شيء غير عادي بالنسبة لهم.

"أما السبب في أن الحدائق المعلقة أصبحت واحدة من عجائب الدنيا

السبع فهو أنها كانت تزدهر فوق سطح مبنى آهل بالسكان ".

وفي جنوب الساحة الرئيسية اكتشف المنقبون أكبر قاعة في القلعة وهي قاعة عرش ملوك بابل التي يبلغ طولها ١٥٠ قدما وعرضها ستون قدماً . وفي مواجهة الباب الرئيسي بالقلعة توجد كوة مزدوجة، أكبر الظن أن العرش كان يوضع فيها حتى يتاح للذين خارج الساحة الخارجية أن يروا الملك وهو متربع عليه . ومن المحتمل أن الملك بعل شاذار كان يحتفل في هذه القاعة في تلك الأمسية المشئومة عندما داهمت جيوش الميديين والفرس مدينته، كما ذكر في التوراة ".

"وفي تلك الأمسية قتل بلشذار و قسمت ملكته ".

وأخذت المباني الرئيسية تظهر واحدة بعد آخر بفضل الجود المتواصلة التي بذلها العلماء الألمان فظهر معبد نيماخ، وجدار الخندق الذي يحيط ببرج إمجور بعل، والمنطقة المقدسة التي تحيط بزقورة إتمنا نكى و الذي كانوا يعتبرونه حجر الأساس للسماء والأرض، وهي الزقورة التي نعرفها باسم " برج بابل " وتكون هذا البراج من ساحة واسعة مستطيلة تحيط بها مبان ربما كان بعضها مخصصاً للحجاج الذين يرغبون في زيارة المحراب، بينما المباني الأخرى، وهي أكبر وأكثر أبهة كانت مخصصة لإقامة كبار السكينة . وعلى حد قول كو لديه، كان هذا فاتيكان بابل وهو ما وصفه هيرودوتس على أنه " قدس أقداس زوس بيلوس، ذو الأبواب النحاسية ". وفي إحدى أطراف الساحة يقوم البرج بالذات وهو مكون من ثمانية طوابق ولكن ارتفاعه بالضبط ليس معلوماً . وقد ترك كل من نابو بولاسار وابنه بختنصر نقوشا يؤكدان فيها ارتفاع البرج. ويقول نابو بولاسار:

" في ذاك الوقت أمرني ماردوق ....، أن أدعم أساس برج بابل الذي كان قد ضعف وأصابه العطب، وكان على . أن أجعل هذا الأساس يصل إلى العالم السفلى بينما تشمخ رأس (البرج) نحو السماء ".

ويقول ابنه مزهواً:

(لأرفعن قمة اتمنانكى، حتى نختال على السماء) .

وهذه الأبراج العظيمة أو الزقورات، تعتبر أهم طابع للمدن السومرية والبابلية والآشورية، وكانت تعبر تعبيرا مادية عن حنين سكان السهول إلى قمة المرتفعات فن هذه القمم الشامخة كانوا يستطيعون مشاهدة أخصب أراضي العالم، حيث كانت تنبسط أمامهم أميال و أميال من الحقول الخضراء و بساتين النخيل والكروم تتخللها شبكة من قنوات الري . ولم يبق من كل هذا حاليا إلا مساحات شاسعة مقفرة تمتد إلى الأفق، وعند الفجر والغروب تبدو القنوات العتيقة كأنها خطوط سوداء على السهل المنبسط أمامنا، وتلك هي الذكرى التي عاشت الملايين البشر الذين أسسوا إحدى أقدم حضارتين عرفهما العالم.

وكانت تلك الحضارة تعتمد على نظام معقد للري، نما خلال آلاف السنين ولكن عندما اكتسحت العراق حشود المغول وعاثت فيها سلباً ونهباً وحرقاً وقتلاً كفت المضخات عن العمل وتهدمت القنوات وجفت الحقول بعد إخفاء الأيدي العاملة بها.

حتى مدينة بابل نفسها، ما كادت تبعث فترة من الزمن حتى ارتدت إلى كيمان لا شكل لها كتلك التي رآها رتش ولابرد، لأن الجدران المصنوعة من

الطين تتساقط بسرعة إذا ما تم كشفها وتركت بدون عناية، ومنذ أن غادر الألمان البلاد استعمل البناؤون الحرب في قرية حلة (Hillah) كل ما وجدوا من حجارة برج اتمنا نكى . ولم يعد لهذا البرج وجود إلا في كتاب كولدو به الذي تبعث قراءته على الأسى والحسرة.

يقول الكتاب :

"أي قيمة للمعلومات المكتوبة إذا هي قورنت بروعة الحقيقة الماثلة حتى إذا كانت المباني متهدمة ؟ . فهذا البرج الضخم الذي اعتبره يهود العهد القديم آية للغطرسة البشرية، وهو يتوسط قصور الكهنة الشامخة، و تلك الكنوز المترامية هنا وهناك، ومساكن الغرباء التي لا تحصى، والجدران البيضاء، والأبواب البرونزية، والأسوار الدفاعية ذات الأبواب العالية ...كل أولئك كان يوحى بعظمة وسلطان لا مثيل له في أية بقعة أخرى من مملكة بابل" .

وتصادف مرة أن رأيت تمثالا كبيرة من الفضة للعذراء وهي مثقلة بهدايا النذور من خواتم وأحجار كريمة، وذهب وفضة، وكان يحمل التمثال أربعون رجلا عند مدخل قبة مدينة سيراكيوز (Syracuse) ويرفعونه عاليا فوق رءوس الجماهير المحتشدة .. وعلى ضوء هذا المنظر تخيلت موكب الآله مردوق وهو يخرج من اساجيلا (Esagila ليخطر في طريق المواكب ببابل.

الفصل الرابع

مدن بابلونيا القديمة

خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر تقدم العلماء تدريجيا في حل رموز الخط المسماري لدرجة أمكن بها قراءة أعداد متزايدة من النقوش القديمة وينبغي أن نؤكد أن الخط المسماري ليس لغة بل مجرد حروف للكتابة، وكما تستخدم الخروف اللاتينية في كتابة اللغات الألمانية، والفرنسية، والإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية، كذلك استعملت شعوب كثيرة بغربي آسيا الحروف المسمارية الصغيرة في كتابة لغاتها، ومن أمثلة ذلك السومريون والأكاديون والآشوريون والفرس، وكان لهذا الأمر أثره المباشر الحاهم في الكشف عما اندثر من المدن البابلية . وقبل حل رموز تلك الحروف كان الأثريون من أمثال ارتش ولا يرد يهتمون بالآثار المادية كالمباني والتماثيل، والأسلحة، والأثاث والأدوات المنزلية، فلما أصبحت قراءة النقوش أمراً ميسوراً، كان ذلك فتحاً جديداً.

و لقد سبق أن تحدثنا عن مكتبة سناخريب الملكية التي اكتشفها لايرد في نينوى . وفي عام ١٨٥٢ عاد رسام مساعد لايرد إلى التنقيب في التل من جديد الحساب المتحف البريطاني فاكتشف مكتبة أخرى خاصة بالملك آشور بانيبال، ووجد قاعتها مكدسة بأكوام عالية من اللوحات المسمارية وكانت جدرانها مزينة بالتحت البارز المشهور الذي يصور صيد الأسود، وهو معروض الآن بالمتحف البريطاني . وفي ذاك الوقت لم تكن قراءة تلك اللوحات، قراءة كاملة أمرا مستطاعاً، فلما أصبحت كذلك كشفت عن حضارة

أقدم بكثير، ازدهرت في جنوب العراق حيث اخترع هذا الخط على ما يبدو . على أنه بفضل البحوث التي قام بها هنرى رولنسون الذي عاد عام ١٨٥١ إلى منصب المقيم البريطاني في بغداد، أمكن قراءة بعض الأسماء . وقبل ذلك بعامين غامر وليام كنيث لوفتسر، وكان أحد أعضاء لجنة الحدود التركية – الفارسية، برحلة على متن جواد عبر به صحراء و مستنقعات كلديا من ضفاف الفرات حتى نهر دجلة، وكان يصاحبه صديق شاب اسمه هـ ١٠ تشرشل . وأخذته الدهشة عندما وجد في عدة أماكن تلالا كبيرة تشير إلى مواقع مدن اندثرت منذ أمد بعيد، ومعالم تدل على وجود نظام دقيق للزراعة، وقنوات وآبار تثبت أن تلك الصحراء كانت في وقت ما حقولا يانعة تزدهر بها بساتين الفاكهة . وكان التقرير الذي رفعه لوفتس إلى كولونيل وليامز رئيس البعثة أثره الكبير حتى لقد وافق هذا الأخير على أن يقوم لوفتس بالتنقيب في إحدى هذه المدن بمساعدة صديقه بوتشر وكرلنش [1] فعاد لوفتس إلى المنطقة وواصل الحفر بها طيلة ثلاثة أشهر، لكن اتساع المكان لم يساعده على ترك أثر واضح به . واستطاع رولنسون من قراءة النقوش التي اكتشفت هناك أن يتعرف على اسم المدينة، و هو إرك التي ذكرت في سفر التكوين بالكتاب المقدس عند وصف أبناء نوح.

"وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون عبارة في الأرض ... وكان ابتداء ملكته بابل، و أرك، وأكد، وكلنه في أرض شنعار".

الإصحاح العاشر٨ – ٩

ثم انتقل لوفتس إلى بقعة جديدة في سنقرة لكن عمله تعرقل هناك،

---

(1) Boutcher and Kerr Lynch.

بسبب الأسود التي كانت تعيث بالمنطقة ليل نهار حتى أتت على جميع الكلاب التي تقوم بحراسة معسكر العالم الأثري . ويقول هذا الأخير :

"عوى توجا المسكين مرة واحدة بصوت مكتوم وانتهى الأمر، و حمله الأسد معه و التهمه في وجبة" .

ولم يطل الأمر .. برولنسون حتى تسلم ألواحاً منقوشة من حفريات سنقرة واستطاع مرة أخرى أن يكشف عن اسم المدينة الأصلي . اتضح أنها مدينة إلآسار [1] التي ذكرت في الباب الرابع عشر من سفر التكوين.

وبينما كان لوفتس يعمل في الوركاء و سنقرة كان ج. أ تايلور القنصل البريطاني هو وآخر من هواة علم الآثار – ينقب في تل مقير بالقرب من الناصرية ووجد به بقايا زقورة كبيرة في حالة سليمة، وحفر منها نفقا فعثر مصادفة على اسطوانة صغيرة منقوشة في أحد أركان البناء المشيد بالابن . وواصل الحفر في الأركان الأخرى فوجد أعمدة اسطوانية مماثلة أرسلها إلى رولنسون ليحل رموزها . واتضح أن المدينة هي " اور الكلدانية " مسقط رأس سيدنا ابراهيم الخليل .

في ذاك الوقت لم يكن لدي أي من الحفارين الذين نقبوا في تلك التلال الكبيرة أية فكرة عن أعمار حفرياتهم . فتحديد التواريخ بالدراسة المقارنة للمصنوعات الفخارية، ودراسة طبقات الأرض كوسيلة لتحديد التواريخ لم تكن قد تقدمت بعد . كانت هذه المعلومات كلها في ضمير المستقبل حين استطاع جيل من رجال الآثار العلميين أن يثبتوا أن بعض هذه التلال مثل

---

(1) **Ellassar.**

الوركاء كانت آهلة بالسكان المدة تزيد على ٤٠٠٠ عام . وبق العمل مستمرة واكتشفت أكداس من اللوحات المسمارية في أرشيف القصور وتم حل رموزها، وأصبح في الإمكان معرفة أسماء الملوك الذين حكموا خلال هذه الحضارات الدارسة وأمكننا الوقوف على تاريخهم وديا نتهم وأساطيرهم الشعبية. وهكذا نجد أن تلال بابل التي اعتقد لايرد أن البحث فيها غير مجد، أصبحت ذات أهمية تفوق قصور ملوك آشور التي شيدت بالحجر والتي تعتبر شيئاً حديثاً إذا هي قورنت بآثار سومر.

وعندما تم حل رموز الألواح المسمارية التي سبق أن اكتشفت مكتبات نينوى الملكية واتضح أن كثيرة منها لم يكن إلا نسخة من وثائق أقدم بكثير، كان هذا دافعا كبيرة لمواصلة البحث . ومن الرواد الأول في هذا الميدان جورج سميت، وكان في الستينات موظفة بإحدى شركات طباعة الأوراق المالية . اعتاد هذا الشاب أن يقضى فترات الغذاء داخل المتحف في دراسة النقوش الآشورية التي كانت معروضة به في ذلك الوقت . وأخذ أحد رجال المتحف بجامعة الشاب و اتساع دائرة معارفه في بيته لوظيفة متواضعة في المتحف و مساعده على مواصلة الدراسة . وكان هذا بطبيعة الحال هو ما يصبو إليه سميث . وعندما عهد إليه القيام بتصنيف آلاف اللوحات التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال، وقع على كشف سلط عليه الأضواء فجأة، وفي هذا يقول سميث:

"وبدأت البحث بتؤدة .. وسرعان ما اكتشفت نصف لوحة نادرة كانت تتضمن أصلا ستة أعمدة .... واستلفت نظري في العامود الثالث منها عبارة تقول إن السفينة استوت على جبل ديزير وبعدها قصة إرسال الحمامة ... الخ وأدركت على الفور أنني اكتشفت جزءا على الأقل من قصة الطوفان عند الكلدانيين "

وهذا النص هو الذي ذكرنا جزءا منه في الفصل السابق من هذا الكتاب . وعندما قرأ سميث بحثا أعده عن هذا الموضوع أثار ضجة كبرى خصوصا بين رجال الدين لدرجة أن إحدى صحف لندن وافقت على إرساله على رأس بعثة إلى نينوى للبحث عن الجزء المفقود من اللوحة . ومن العجب العجاب أنه ماكاديباشر التنقيب حتى عثر على ضالته المنشودة.

ولسوء الحظ أن سميث توفي بعد أربع سنوات لإصابته بالدوزنتاريا وهو في طريقه من الموصل إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء. وكما يقول ستون لويد كان سميث أول بحائرة في الدراسات الآشورية يلقي حتفه وهو في ميدان العمل.

والقصيدة التي تكون قصة الطوفان جزء منها هي نفس ملحمة جلجميش بطل الأساطير السومرية الشعبية . ويمكن مقارنتها من الناحية الأدبية بالشعر البطولي الذي كتبه الشاعر الإفريقي هوميروس لكنها ليست مكتوبة بالآشورية، وهي إحدى اللغات السامية، وإنما بالغة مجهولة لا تمت للغة السامية بصلة . ووجد بالمكتبة عدد من اللوحات المنقوشة بهذه اللغة المجهولة ومن حسن الحظ أن بعضها كان مدونة بلغتين لنص واحد مما ساعد على حل رموزها وقراءتها. وهذه الكشوف وما يماثلها ما عثر عليه في جنوبي العراق هي التي أدت إلى التعرف على السومريين الذين استوطنوا حوض الرافدين الأدنى قبل عام ٣٠٠٠ بزمن بعيد وهم يشاركون قدماء المصريين فضل اختراع الكتابة وبناء أول حضارات في العالم.

ومن السبعينات حتى أيامنا هذه . تضافرت جهود الأثريين من مختلف الدول. التجميع تاريخ تلك الشعوب وفي نفس الوقت اتخذ البحث اتجاها

جديدة . فبدلا من التنقيب في عدد كبير من التلال بأمل الحصول في أقصر وقت على غنائم يسهل نقلها إلى المتاحف، أصبح علماء الآثار يوفدون في بعثات منظمة تمولها حكوماتهم أو جامعات بلادهم على أن يركزوا عملهم ويتمهلوا في بحوثهم بطريقة أدق وفي عدد محدود من مدن معينة. ونذكر من هذه البعثات البعثة الفرنسية برئاسة سارزيك الذي قام بالتنقيب في تل تلوح (لا جاش القديمة) و البعثة الأمريكية برئاسة بيترز الذي دام بحثه في نيبور[١] أعواما.

وكان أر نيست دى سارزيك نائباً لقنصل فرنسا في البصرة . ونظرا لوفرة وقت فراغه طلب تصريحا بالتنقيب في الخرائب الواسعة لمدينة كانت مجهولة الاسم في ذاك الوقت وتقع بالقرب من قناة شط الحي، وكان قد سمع عنها من تاجر العاديات يدعى ج. أصفر، واهتم أول الأمر بأن يتخلص من مندوب المتحف البريطاني هورمودزرسام، الذي شهه بكلب الصيد وكان قد سمع هو الآخر بخير المدينة . ونجح الفرنسي في الحصول على تصريح يعطيه وحده حق التنقيب في هذه المنطقة، كما حصل على منحة من حكومته لتمويل البعثة . وواصل البحث هناك خلال خمس وعشرين سنة حتى مسح المنطقة بأكملها، وعلى الرغم من أن الطريقة التي كان سار زيك يتبعها في حفرياته. تعتبر خشنة إذا قورنت بالمقاييس الحديثة، وعلى الرغم من أن مخططاته كانت غير كاملة وسطحية إلا أن سارزيك كان أول من كشف عن مدينة سومرية وعرض للعالم فن السومريين العجيب

ومع أن الفن السومرى له معجبون كثيرون، إلا أن المؤلف لا يشاطرهم

---

(١) Nippur.

هذا الشعور . لاشك أن تلك التماثيل الصغيرة التي اكتشفها، سارزيك، لرجال وآلهة على السواء، بعيونهم البارزة وجفونهم المنتفخة، إنما تنم عن قوة أخاذة، ولاشك أن أبناء هذا الجيل الذين أضجرتهم تماثيل الإغريق والرومان التي تطابق الطبيعة، قد وجدوا في الفن السومرى ترويحاً جذاباً . وعندما عرضت آثار سومر في متحف اللوفر (حيث توجد نماذج ممتازة) اجتذبت كبار فناني العصر من المدرسة الفرنسية وأثرت في إنتاجهم إلى حد ما ومع ذلك فإنها إذا قورنت بالتماثيل المصرية التي ترجع إلى نفس التاريخ (حوالى ٢٥٠٠ ق.م) لرأيت فيها – كما أعتقد – شذوذاً بمجوجاً . وكما هو الحال بالنسبة إلى فن قبائل الأزتيك والمايا في أمريكا الشمالية، أما أن يميل المرء إليه أو يمقته.

ويستطيع المرء أن يحكم بنفسه في هذا الشأن إذا ما زار المتحف البريطاني حيث يجد هناك تمثال حاكم لاجاش الشهير، أو زار معارض الفنون في نيويورك و بنسلفانيا .

لقد قامت المدن السومرية مثل لاجاش، وآريدو، وأور، ونيبور في أوائل الألف الثالث ق.م و لكن قرى أخرى ظهرت في تلك المنطقة قبل هذا التاريخ بكثير . كانت المدن تشيد باللبن كما جاء في سفر التكوين و كانت، بها قصور يسكنها الحكام أو الملوك حسب مستوى المدينة، كما كان بكل منها معبد أو أكثر يمتاز ببرجه أو زقورته، والتي تعتبر طابعة مميزة للمعابد هناك . كانت آلمتهم الرئيسية تستلهم من الطبيعة مثل آنو إله السماء وكي إلهة الأرض، وإنليل رائد الحربه وإله الزوابع، وإنكي إله الماء الذي يعتمد السومريون في بقائهم عليه، ذلك أن الحياة في سوهر كالحياة في مصر القديمة كانت تعتمد على النهر الكبير الذي تنساب مياهه في الترع والقنوات

لتروي الحقول . أما الأمطار فكانت تهطل لفترة وجيزة كل عام وقت فيضان الفرات وكانت المياه تحجزوراء خزانات لتغذى الحقول عن طريق شبكة دقيقة من الترع والقنوات خلال موسم الجفاف الطويل .

وهذا هو الذي أتاح لأجداد السومريين الرحل فرصة الاستقرار الدائم في منطقة واحدة، وساعدهم على أن يصبحوا زراعة ورعاة، وأن يبدعوا لأنفسهم حضارة خاصة، وكانت مظاهر هذه الحضارة التي تتمثل في مدنهم ذات الأسوار وفي نظمهم الإدارية والتشريعية ؛ وفي علومهم وفنونهم . كانت كلها من غرس ذلك النهر الذي عاشوا على ضفافه : فالكتابة التي يبدو أنهم اخترعوها كانت نتيجة احتياجهم لوسيلة يسجلون بها ما لديهم من محاصيل وأغنام وغيرها، والفلك والرياضيات والتقويم لم تكن لتعرف وتزدهر إلا في بلد تصفو ماؤه معظم أيام السنة، وإلا حيث يتحتم الوقوف بدقة على مواعيد رمي البذور وجمع المحاصيل. وكان طبيعية أن تزدهر الصناعة المعدنية وصناعة الأسلحة والآلات البرونزية ازدهاراً سريعاً في مجتمع يتحتم فيه أن يترابط الصناع داخل نقابات تحميها الدولة و تشجعها . كذلك ازدهر فن المعار حين وضع نظام موحد للمقاييس وأتاح ذلك فرصة تخطيط المباني الكبيرة .

كان الطين هو الخامة المستعملة في البناء، وكان الحصول على كميات هائلة منه أمرة ميسورة، كما كان تشكيله في قوالب تجفف في الشمس أو تحرق في الأفران أمرا ميسورا هو الآخر . وقلما استعمل السومريون الأحجار لأنها كانت غالية الثمن ولا بد من نقلها عبر مسافات بعيدة : وكان التنقيب عن أبنية من هذا الطراز يتطلب من العناية والحرص قدرة لم يكن موفورة لدى المستكشفين الأول الذين كثيرا ما كانوا يحفرون بإهمال خلال جدران من

اللبن . لو أنها عولجت بأيدي المنقبين المحدثين لبقيت سليمة . ولكن مجهودات كولدويه وزملائه في بابل أتاحت لفن الحفر العلمي أن يزدهر تدريجياً.

وجاء دور الأمريكيين بعد الأمان، فبدأوا بالتنقيب في نيبور عام ١٨٨٧ تحت رعاية جامعة بنسلفانيا، ولكن موسمهم الأول تمخض عن كارثة، ذلك أن رئيسهم – بيترز – لم يكن قد عاش في الشرق من قبل، وكان يجهل تمام طباع العرب وتقاليدهم، وبدلا من أن يضمن عون شيخ القبيلة المحلى وحمايته، اعتماد على رجل تركى ملكه زمام عماله، ومن ثم توتر الموقف وما لبث أن ازداد تحرجا نتيجة العصبية بيترز وتهوره، ووقعت بعض سرقات هزيلة لو أنها صادفت لايرد أوبوتا لتجاهلاها، ولكن عندما قتل حارس المعسكر أحد رجال القبيلة فقد بيبرز اتزانه واستدعى الجنود، ويصف (هيدرخت) – وهو أحد أعضاء البعثة وأصبح فيما بعد رئيسها – ما حدث بعد ذلك ويعطينا فكرة واضحة عن ملاحظاته عن الأخطار التي كان المنقبون في العراق يتعرضون لها في الثمانينات فيقول :

"في يوم الخميس ١٨ ابريل وقبل شروق الشمس بكثير، كانت البعثة بأكملها | تستعد لإخلاء الموقع لتشق طريقها إلى تل حلة عندما أشعل أحد الأعراب النار سراً في أكواخنا المصنوعة من البوص والحصير وحولها إلى رماد فيما لا يزيد على خمس دقائق، وكان هذا بناء على أوامر موكتا الخائن، وسادت الفوضى التامة الفترة ما، وأفلت الزمام من يد رجال الشرطة الذين احتلوا تلا مجاورة . وبينما كذا تحاول إنقاذ متلكاتنا بدأ كثير من الأعراب في السلب والنهب وراح نصف الجياد طعمة للنيران كما استولى اللصوص على أسلحة نارية وسرج وألف دولار من ذهب . لكن الآثار أنقذت جميعها .

وانسحب أعضاء البعثة أخيرة بينما كان الأعراب يرقصون رقصة الحرب ويهللون بطريقة جنونية [1]

وعادت البعثة بعد ثلاث سنوات في محاولة ثانية توجت تلك المرة بالنجاح . و خلال ثلاثة مواسم، اكتشف الأمريكيون ٣٠٠,٠٠٠ لوحة منقوشة، كان الجانب الأكبر منها عبارة عن وثائق ومستندات، لكنها كانت تضم أكثر من ألفي نص أدبي غاية في الأهمية. والواقع أن أغلب الأدب السوري الذي أكتشف حتى الآن، قد أخرجته معاول الحفارين الأمريكيين من نيبور [2] وبين هذه اللوحات واحدة نقص أسطورة الطوفان بطريقة تختلف عن تلك التي اكتشفت في نينوى.

وثمة قصيدة أخرى تصف موت جلچميش البطل السومرى، وقصيدة ثالثة تتحدث عن زيارة المعبودة إينانا – ملكة السماء العالم السفلي، وهو موضوع يشبه الأساطير الشعبية عند القدماء، كقصة برسيفوني عند الأغريق . والقصيدة السومرية أسطورة مفزعة مليئة بالأشباح والوحوش المخيفة، والشياطين التي كان خيال الشعوب البدائية يحشد بها عالم الموتي، وتذكرنا من نواح متعددة بكتاب قدماء المصريين عن العالم السفلي . في تلك القصيدة تقرر المعبودة أن تنزل إلى العالم السفلى مخالفة في ذلك جميع النصائح الحكيمة، فتزين نفسها بالحلي الملكية استعداداً للرحلة . وميزة هذا الجزء من القصيدة أنه وصف زينة الملكة السومرية متن. ٥٠٠ سنة. تقول القصيدة :

---

(1) Hillprecht. Explorations in the Bible Lands.

(2) برغم أن المجال لا يتسع هنا لوصف جميع أعمال الحفر التي أجريت في العراق، فلابد من الإشادة بعمليات التنقيب الأمريكية التي تمت في بسمايا وفرح وغيرها، وبصفة خاصة بأعمال معهد ح. هـ هـ بريستيد الشرقي بشيكاجو في تل أوسمارا، وخفاجه، وتل أجرب .

"السوجورة، تاج الوادي، وضعته على رأسها

والشعر المستعار لجبينها، أخذته

وعصا القياس والحبل المصنوعة من اللابيس قبضت عليها بيدها

وفصوص صغيرة من اللابيس علقتها حول عنقها

فصوص براقة تثبتها في صدرها

وخاتماً ذهبياً وضعت على يدها

وربطة الصدر التي... حزمتها حول صدرها

كحل ... كحلت به عينيها

وبلباس البالا، وهو لباس النبيلات، غطت جسدها .."

وتمضي القصيدة في وصف عودة إينانا من العالم السفلي مصحوبة بالأشباح والشياطين فتقول:

" حين تصعد إينانا من العالم السفلى

حقيقة يسرع الموتى من أمامها

وتصعد إينانا من العالم السفلى

الشياطين الصغار كأنهم أسنة الرماح

والشياطين الكبار كأنهم ...

يمشون بجانها ...

... الذين يصاحبون إينانا

لا يعرفون الأكل ولا الماء

لا يأكلون الدقيق

لا يشربون الماء

يأخذون الزوجة من أحضان زوجها

يأخذون الطفل من ... مرضعته .. ألخ .

وحين نقرأ هذه الأبيات نتذكر وصف هوميروس لجهنم عندما ذهب إليها أوديسيوس بحثا عن أخبار زملائه الذين لقوا حتفهم في طروادة . ومن الجائز أن تكون هذه الأساطير نبعت جميعها من مصدر مشترك يرجع إلى حياة الإنسان فيما قبل التاريخ.

ونجد بين لوحات نيبور أسطورة جميلة عن الجنة . نلمس خلالها أن تمجيد السومريين القدامى للجنة تأصل في تكوين اقتصادياتهم الحيوانية والزراعية . جاء مثلا بإحدى اللوحات:

" في دايلوم (الجنة) لا ينعق الغراب

وطائر الإندو لا يطلق صرخة الإندو

الأسد لا يقتل

لا وجود للكلب الوحشي (الذي) يفترس الحمل

ولا وجود ... الذي يأكل الحبوب

ولا توجد ... الأرملة

والطائر ....

والحمامة لا تطأطيء رأسها

ولا يقول المريض بعينه أنا مريض بعيني

والمرأة العجوز لا تقول "أنا مسنة"

والرجل العجوز (في الجنة) لا يقول "أنا مسن".

ويخصب إنكي إله الماء، ننهورساج "أم الأرض"، بعد أن يقدم لها هدايا من الخيار والتفاح والعنب ؛ كذلك جاء ذكر القنوات، والترع التي اعتمد عليها السومريون في ري أراضهم :

"ومرة ثانية جعل ملا بالماء ......

يملأ القنوات بالماء

ويملأ الأماكن التي لم تزرع بالماء

للبستاني (المعفر): بترابه

يحتضنه من شدة الفرح" .

والرمز إلى الإخصاب السخى واضح هنا وضوحه في المقطوعة التي تصف لنا كيف يصب إله الماء السائل المنوي في أحشاء ننهور ساج.

" أخذت السائل المنوي إلى أحشاء ننهور ساج

أخذت السائل المنوي إلى الأحشاء، سائل أنكى

يومها بشهر

واليومان بشهرين

ثلاثة أيام ثلاثة شهور

وأربعة أيام بأربعة شهور

وهكذا حتى اليوم التاسع

وتسعة أيام كأنها تسعة شهور ... شهور الأنوثة مثل الدسم، الدسم الجيد الملوكي .

نينو أم الأرض، مثل (٠٠٠. الدسم)

مثل الدسم الملكي الجيد

انجبت نيمو

و نيمو ... على ضفاف النهر ... [١]

ولا يسعني إلا أن أبادر هنا إلى الاعتراض في رفق على ذلك الإعجاب المفرط الذي تظفر بها أحيانا تلك القصائد القديمة، وإن يكن ذلك بعيدا عن

---

(١) هذه المقطوعة وغيرها من لوحات نيبور ترجمها س.ن كرامر بتصريح من مطبعة جامعة برنستون ١٩٥٠.

موضوع الكتاب : إن تقديرها بالنسبة لقدمها وقيمتها التاريخية لا ينبغي أن يحجب عنا ما فيها من قصور أدنى . وإذا كان بعضها – كملحمة جلجميش – رائعاً ويحتل مكانه اللائق بين أدب الملاحم العالمي، فإن معظمها – من وجهة نظري – يعيبه – ذلك التكرار المتنفر الذي نجده مهذبة بعض الشيء في الشعر العبري، ذلك الشعر الذي قد يكون للجيد منه تأثيره العميق في النفوس، كما هو الحال في نشيد دبورة في (العهد القديم):

" وعند أقدامها انحنى وسقط وانبطح علي الأرض

عند أقدامها انحنى وسقط

وحيث انحنى هناك وقع ميتاً "

كذلك في قصة أبشالوم

"ابني ابني ابشالوم، يا بني، بني، أبشالوم

ليت الله جعلني أموت بدلا منك يا ابشالوم

يابنى يا بنى ..."

أما إذا بولغ في التكرار فإنه يصبح ثقيلا غليظاً، بل وربما يصبح مضحكا كما في المقطوعة التي جاء فيها:

"مثل الدسم، الدسم الملكي الجيد

نينو، أم الأرض مثل الدسم مثل الدسم الملكي الجيد

انجبت نيمو ..

ومع التقدم السريع في حل الرموز المسمارية، أصبح لتلك اللوحات الصغيرة . التي كانت تكتشف بالآلاف في خرائب سومر قيمة تجارية . واستخدم التجار العرب المهرة عما لا يقومون بالتنقيب دون تصريح من الحكومة بعد رحيل علماء الآثار من مناطق علم، وازدهرت هذه التجارة ازدهاراً عظيماً فكانت اللوحات تنقل إلى بغداد ثم تصدر منها إلى أوربا وأمريكا . وفي تلوح مثلا، وجد المنقبون الذين يحفرون بغير تصريح مجموعة كبيرة من اللوحات عندما غاب سارزيك بعض الوقت فأخفوها تحت التراب، فلما رحل نهائيا أخرجوها وباعوها لتجار الآثار. وبرغم أن أحد رجال المتحف البريطاني وهو السير واليس بدج، كانت له خبرة واسعة بهذه الألاعيب، إلا أنه وقع فريسة لموظف حكومي في بغداد كان قد سمع بأن الإنجليزى طلب التصريح له بالتنقيب في مكان ما فأرسل هذا الموظف عماله على عجل واستولى قبل وصول بدج على ١٠,٠٠٠ لوحة باعها للتجار .

وأرسل أحد الذين انتفعوا من هذه الصفقة المجزية رسالة تعزية رقفية إلى بدج نقلها ستون لويد في كتابه (Foundations in the Dust) الذي أدين له ببعض النقاط التي ذكرتها في الفصول السابقة من كتابي هذا، ولا يسعني إلا أن أورد هذه الرسالة هنا لأنها تصور لنا – في صدق – نظرة الشرقيين إلى علم الآثار ورجاله، ولا سيما في أيام بدج. تقول الرسالة : ولا تدع الحزن يطغى على فؤادك لأن المأساة التي تعرضت لها لم تحدث لأحد ممن سبقوك في ميدان البحث عن الآثار . واعلم أن جميع اللوحات موجودة عندنا في بغداد، وكلنا أصدقاؤك وقد حفظناها لك. وسوف تشتريها وتخرجها من البلاد بسرعة، وهكذا تستطيع أن تعيش مع أصدقائك الإنجليز في بغداد بدلا من أن تضطر للإقامة في الصحراء مع الذئاب والنسور تحرقك شمس النهار

وبحمدك زمهرير الليل، وفضلا عن ذلك فالبرتقال كثير في بغداد الآن [1]"

وهذه اللوحات المنقوشة كذلك، والأختام الأسطوانية الصغيرة، بما عليها من صور ورسوم، هي التي أعانت المنقبين على فهم الهدف من بعض المباني التي كشفوا عنها في المدن السومرية ولاسيما المعابد . ولقد صادف كل من لايرد وبوتا بقايا أبراج عالية في خورسوباد و نينوى و نمرود و مناطق أخرى باشور دون أن يدركها الغرض من بنائها . كانت الأبراج دائما جزءا من معبد كبير (كما هو الحال في بابل) وكان هناك برج على الأقل في كل مدينة سومرية، بل أن بعض المدن كان بها ثلاثة أبراج . ويبدو مؤكدا من النقوش الدينية السورية أن هذه الأبراج كانت تستخدم في إقامة الطقوس الدينية، كما كان الحال في أهرامات المكسيك، ومن المحتمل أن مراسيم تقديم القرابين كانت تجرى بداخلها.

وفي أول يوم من كل عام جديد، كان موكب الكهنة والنبلاء يتوجه إلى المعابد، التي ترتفع دائما عن مستوى المدينة، للقيام بشعائر التخصيب التي كانت تبلغ ذروتها باحتفال أغلب الظن أنه كان ينتهى باتصال كاهن بكاهنة.

وفي صباح ذات اليوم المقدس كانت حلقات دخان الأضاحي تتصاعد في السماء الزرقاء من قمم الأبراج العالية المنتشرة في السيل الكبير، تعبيرا عن آيات الشكر والد الذي يزجيها السومريون لآلهتهم على ما أنعموا به من خصب على أرضهم . واستجداء لعون هذه الآلهة في قابل الأيام .

ولا نعرف شيئا مؤكدا عن المصير الذي كان يلقاه كبار المحتفلين عند

---

(1) Budge, Wallis. By Nile and Tigris.. Vol. II.

انتهاء المراسم، وأغلب الظن أنهم كانوا يقدمون قربانا للآلهة كما كان هنود أمريكا يفعلون بعد ذلك آلاف السنين . ومما يدعم هذه النظرية اكتشافات سير ليونارد وولي لمقابر أور الملكية عام ١٩٢٦ والتي تعتبر أبرز كشف أثري في جنوب العراق . وقد كان المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا يشتركان في تمويل بعثة السير وولي .

وكان ج تايلور قد خص تل المقبرة فحصاً سطحياً عندما وجد في أركان الزقورة تلك الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التي قرأ رولنسون عليها اسم أور كما قام ر. كاميل طمسون بعمل بعض المجسات هناك عام ١٩١٨، ثم بدأ وولى في التنقيب بالتل بعد مرور ثلاثة أعوام . وفي مواسم الحفر الأولى كشف تماماً عن السياج المحيط بالمعبد الكبير وعن الزقورة بسلمها الثلاثي، ويحتمل أن هذا المكان كانت به حدائق معلقة حدائق بابل إذ وجد وولى ما يدل على أن أشجاراً كبيرة الحجم كانت مزروعة فوق أسطح الزقورة . ويبدو أن الزقورات السومرية كانت كما اعتقد بعض الأثريين جبالا صناعية.

وأثبت وولى كذلك أن أور كانت ميناء في عصرها الذهبي منذ ٥٠٠٠ سنة . فرأس الخليج الفارسي (العربي) التي تراجعت الآن سبعين ميلا نحو الجنوب كانت حينذاك تقع بالقرب من أسوار المدينة وكانت أرصفة الميناء تتغلغل داخل شوارعها. وكان معظم المنازل التي تقع داخل أسوار المدينة تشبه تمام منازل الفلاحين العراقيين الحالية . حجرات صغيرة مبنية باللبن لها أسطح مستوية . أما نظام الري، وأنواع المحاصيل، وأصناف الطعام، وضروب القطعان التي تعرفها السومريون، فهي بعينها التي يعرفها العراقيون الآن في عام ١٩٥٧ والفرق الوحيد بين العصرين يتمثل في المباني العامة وقصور الملوك والمعابد ذات الأسوار العالية والبروج .

ووجد وولي خارج سور المدينة الداخلي مباشرة تلا هائلا من الأنقاض، كانت له قيمته الأثرية العظمى، إذ وجدت به مخلفات عشرات من الأجيال في طبقات متتابعة، وبفضله استطاع وولى أن يؤكد أن عمران أور قد اتصل نيفاً وأربعين قرناً من الزمان . وفي عام ١٩٢٦ بينما كان المال يحفرون بمجسات عميقة في التل، اكتشفوا بقايا إحدى الجبانات، ولما كانت المقابر العليا في هذه الجبانة قد وجدت منهوبة، فليس ثمة ما يمنع من احتمال أن تكون المقابر جميعا قد تعرضت للنهب خلال العصور القديمة .

وكشف العيال عن ١٤٠٠ من هذه المقابر الخاصة المتواضعة وكان نصفها قد نه بهبه قديماً لصوص المقابر، الذين يحتمل أنهم كانو من العمال القائمين بحفر قبور جديدة . ثم اكتشفه وولى آباراً وأنفاقاً عميقه، كان عمقها يزداد أحياناً ثم يرتله لتصبح أفقية تماما، ولا شك أنها من عمل اللصوص وهم يسعون وراء صيد أثمن. ونهب القبور مهمة فنية قديمة، وعلى ما بلغتى من علماء الآثار في مصر كان اكتشاف مثل تلك الآثار يثير اهتمامهم إذ أنها تدل أن لصا جريئا كان يعلم منذ آلاف السنين بوجود غنيمة دسمة في تلك المنطقة، وكثيرا ما كان يفشل في العثور على ضالته.

وفي أواخر مودم ١٩٢٦ اكتشف المنقبون في أور بئرا مختلفة عن باقي الآبار إذ كان في قاعها كومة من الأسلحة النحاسية، بينها خنجر فاخر من الذهب له مقبض من حجر اللازولى الثمين وجراب من الذهب، لكنه أفلت من أيدي اللصوص . و بالقرب من الخنجر وجدوا كيساً صغيرة من الشبك، له شكل مخروطى و مزين برسم لواى . وكان به أدوات للزينة : ملقاط و مبضع وقلم، جميعها من الذهب، ولم يسبق أن صادفهم شيء من هذا القبيل في أرض العراق، وقد كشفت تلك الأدوات عن فن كان مجهولاً حتى ذلك

الوقت، كما بعثت الأمل في الظفر بكشوف تفوق كل ما في الحسبان [1].

أما الكشف التالي الذي قام به وولى فكانت له نفس الأهمية، وإن لم يكن له نفس الإثارة فقد وجد على عمق بعيد ألواحا و كتلا من حجر الجير تكون ما يشبه الأرض المرصوفة . وكان غريبا أن يوجد حجر مصقول في أرض سومر حيث تشيد المباني باللبن لانعدام الحجر في دلتا الفرات، ثم إن العثور على كتل حجرية في مثل هذا العمق الكبير كان أمر محيرة، فهل تكون هذه الحجارة سطح مقبرة ؟. كان على وولى أن ينتظر حتى الموسم المقبل ليعرف الرد. وتبين أنها مقبرة كبيرة مبنية بالحج، لكنها كانت خاوية اللهم إلا من أجزاء متناثرة من تاج ذهبى، مما يرجح أن محتوياتها كانت ثمينة للغاية . وأدرك وولى السبب في خوائها حين اكتشف نفقة طويلا يمتد من سقف المقبرة إلى مستوى الأرض، ومع ذلك لم يفقد الأمل نهائيا، وسرعان ما وجد مقبرة أخرى ذات حجرتين مبنية بالحجر، وأحد أطرافها باب يؤدى إلى طريق منحدر يوصل إلى سطح الأرض . كان هذا كشفاً فريداً في نوع، أثار التكهنات، كانت هناك مقابر أخرى في نفس المنطقة، ولعل إحداها قد أفلتت من أيدي اللصوص، وإن يكن الأمل في ذلك واهياً.

وقرر وولي أن يحاول مرة أخرى، واكتشف خلال عامى ١٩٢٨ – ١٩٢٩ مقبرتين مبنيتين بنفس الطريقة لكنهما منهوبتان كسابقاتيهما.

ثم جاء كشف أعرب وأشد إثارة من أي كشف أثري آخر تم في القرن السابق باستثناء مقبرة توت عنخ آمون في مصر، فقد وجلد وولي خمس جثث مرصوصة إلى جانب بعضها البعض في خندق منحدر غير عميق يقع على بعد

(1) Wooley, Sir Leonard. Ur of the Chaldees.

من المقابر المنهوبة، ووجد تحت الجثث طبقة من الحصير، وبتتبعها وصل إلى مجموعة أخرى من الجثث :

"جثث عشر نساء مرتبة بعناية في صفين، على رؤوسهن حلى من الذهب وأحجار اللابيس لازولى، وفي أعناقهن قلائد مزركشة من الخرز، لكن المقبرة كانت خلوا من أي أثاث، وفي نهاية الصف توجد قيثارة جميلة الصنع تحلل خشبها لكن زخارفها بقيت سليمة مما جعل إعادة تركيبها أمر لا يتطلب إلا قدرة من العناية، وفوق حطام القيثارة وجدت عظام عازفتها وفوق رأسها تاج ذهبى... "[1]. وعلى مسافة بسيطة في امتداد البئر وجد اكتشاف أعجب : عظام حيوانات مع بقايا زلاقة خشبية مزينة برسوم من الفسيفساء حمراء وبيضاء وزرقاء، وأسد ذهبية لبدها من اللابيس اللازولى، وصدف القواقع . أما العظام فكانت هياكل الحمير التي تجر الزلاقة، وبالقرب منها هيكلان محطمان للسائقين الذين قاداها للبئر.

" ومع ذلك فتلك الأجداث وجثث النساء لم تكن داخل مقبرة مدنية وإنما وجدت في خندق منحدر حفر في الأرض ثم ردم بعد ذلك. وبين الأشياء التي وضعت مع الجثث لوحة مطعمة للعبة ما، وطاقم مكون من أزميل و منشار ذهبيين وأواني من نحاس و صناديق خشبية مزينة بلا بس لازولى و أدوات جميلة من الزجاج والمرمر والفضة والذهب . كأسان طويلان من الفضة أحدهما داخل الآخر، وكأسان مثلهما من الذهب، مزخرفان بالنقوش ومعهما قدح للأكل و إناء للماء، و قدح ذهبى آخر غير مزخرف، وجميع هذه الأواني مكدسة على بعضها البعض . كذلك وجد رأس أسد من الفضة رائعة

(1) Wooley, Sir Leonard. Ur of the Chaldees.

الصنع ربما كانت تزخرف العرش، ولكن الأمر المحير هو أنه رغم كل هذا الثراء لم توجد جثة مميزة على باقي الجثث حيث تنسب لمن أهديت له كل هذه الأشياء، وهكذا كان الكشف غير كامل رغم أهميته ..

وبعد فترة وجيزة جاء اكتشاف بئر أخرى على عمق حوالي ست أقدام تحت الأولى، و يؤدى إليها منزلق طويل في آخره جثث لستة جنود مرتبة في صفين ورماحهم إلى جانبهم وخوذاتهم النحاسية على جماجمهم المحطمة، و بعد هذه الجثث، في أسفل المنزلق، بقايا عربتين كان يجرهما ثوران وجدت عظامهما بجانبها ومعها هياكل سائقيهما . و على مسافة أخرى إلى أسفل وجد المنقبون غرفة من الحجر يرتكز على حائطها الخارجي هياكل تسع نساء يتحلين بغطاء للرأس رائع من أحجار اللابيس والكارينيبيان تتدلى منه حلى من الذهب على شكل ورق شجر الزان، ولكن بأقراط ذهبية كبيرة وحلى من الفضة للشعر وقلائد من الذهب واللابيس لازولي.

وأما المسافة بين الجثث والعربات، فكانت مكدسة بجثث أخرى لنساء ورجال، بينما امتلأ الممر الذي يقع بجانب الغرفة الحجرية بجنود يحملون الخناجر، وبعدد من النساء ... وفوق جثث نساء البلاط وجدت قيثارة من الخشب مرتكزة على الحائط وبجانب حائط البئر قيثارة أخرى مزينة برأس ثور رائعة عيناه ولحيته وأطراف قرنيه من اللابيس كما وجدت أيضا مجموعة من اللوحات مزينه بالصدف لا تقل عما سبق جمالا، وفي أربع منها مناظر غليظة لحيوانات تقوم بدور الرجال، - والطابع الذي يلفت النظر في تلك اللوحات هو روح المزاح الذي يندر أن يصادفنا في الفن القديم، ونجد في رقة الرسم و توازنه واتساق خطوطه ما يجعل هذه – اللوحات من أثمن الأدلة التي يعتمد عليها في نقد و تقدير الفن في تاريخ سومر القديم..

وكانت الغرفة الحجرية التي في آخر البئر السفلي منهوبة ولو أن اللصوص تركوا ضمن ما تركوه خاتمة أسطوانيا يحمل اسم صاحب المقبرة وهو آبارجي، و نموذجين للسفن أحدهما من النحاس والآخر من الفضة، لكن البئر العلوية – (التي وجدت فيها العربة التي تجرها الحمير) كانت غرفته الحجرية سليمة ووجدت بها جثة سيدة تسمى شوباد، وضعت داخل تابوت وبجانب يدها كأس من ذهب، - يغطي الجزء الأعلى من جسدها كومة من فصوص الذهب والفضة والكار نينيان . والأحجار الكريمة، وغطاء رأسها من الذهب والأحجار الجيدة وإن لم تكن ثمينة، واستطاع وولي أن يعيد هذا الغطاء لسيرته الأولى فوق رأس من الشمع صنعت من جمجمة سومرية.

ولا يتسع المجال هنا للإفاضه في وصف هذا الاكتشاف العجيب الذي ينبغى أن يقرأ في كتاب سير : وولي [1]، ومع ذلك فعلينا أن نجيب هنا عن أكثر من سؤال، فأولا من هم هؤلاء الناس ومتى قضوا نحبهم؟. يعتقد وولي أنهم من الأسرة المالكة التي كانت تحكم أور حوالي عام ٢٧٠٠ ق. م.

ويصف وولى المقابر بجرأة في كتابه على أنها مقابر ملوك أور، ويؤيده الكثيرون . في رأيه هذا ولو أن بعض علماء الآثار أثاروا الشكوك حول هذه النظرية، فقد تكون هذه الجثث الضحايا كريمة من الكهنة والكاهنات الذين يقدمون قرابين في حفل رأس السنة . أما السؤال الثاني الذي يثير الحيرة أكثر من سابقه فهو لمن كانت الجثث التي وجدت خارج المقبرة لجنود وسيدات بملابسهن الفاخرة وأغطية الرأس والحلي الثمينة ؟ و كيف ماتوا ؟.

وبعد دراسة دقيقة للقرائن استنتج وولي أن أصحاب هذه الجثث دخلوا

---

(1) Ur of the Chaldees.

البئر أحياء مع العربات التي تجرها الثيران والحمير، ثم تناولوا سماً أو شراباً مخدراً، فالجثث كانت مستلقية في صفوف مرتبة، ولم يوجد أي أثر للنضال، وغطاء رأس السيدات كان مرتباً في مكانه وأذرع الجنود ممتدة بجانبهم، ومكان إحدى القيثارتين وهي التي فوق الجثث يدل على أن شخصا ما أو أكثر دخل البئر بعد أن فقد المقيمون بها رشدهم ووضع القيثارة في ذلك المكان، كما أنه رتب وضع الجثث قبل سد البئر .

وواضح أن هؤلاء الموتى كانوا أتباعا للشخصيات الهامة المدفونة في المقابر الحجرية، أرادوا – ربما طائعين – أن يرافقوا سادتهم من الرجال والنساء في العالم الآخر.

وسواء أكان أبارجى و شوباد أعضاء في الأسرة المالكة مات ميتة طبيعية أم أنهما كانا من كبار الشخصيات التي تقدم كضحايا للآلهة، وذلك أمر أن تعرفه أبدآ .

ثم اكتشف وولى بئراً ثالثة بها مجموعة كبيرة من القرابين البشرية بلغ عددها ثمانية وستين رجلا وامرأة، وجدت جثث النساء مرتبة في صفوف منظمة ترتكز فيها رأس الواحدة على سيقان جارتها، واكتشف وولى دليلا يوحي بأن الضحايا دخلت البئر وهي على قيد الحياة، فكل واحدة من نساء القصر كما يصفهن وولى كانت تحلى رأسها بعصابة من الفضة، تآكلت بمرور الزمن وأمكن الاستدلال عليها من البقايا التي بقرب الجماجم . ولكن واحدة من النساء كانت بدون عصابة ما أثار حيرة وولى إلى أن اكتشف بالقرب من الجسد (ليس على الجمجمة) قلعة باهتة من المعدن، ثبت عند اختبارها أنها رباط للرأس ملفوف، واستنتج من ذلك أن صاحبتها تأخرت في تزيين

نفسها فلم تستطع لضيق الوقت أن تعصب رأسها، كباقي زميلاتها و تركت عصابتها في جيبها . وهكذا لم يتحلل المعدن وبقى دليلا على أعجب اكتشاف أثري يروي لنا قصة من أشد وأعمتي القصص البشرية تأثيرا في النفوس .

الفصل الخامس

إمبراطورية في طي النسيان

نترك الآن سهل العراق الجنوبي الذي يفتقر إلى السمات والمعالم، وننتقل إلى الهضبة الجبلية العالية بوسط تركيا (أو آسيا الصغرى) وهي منطقة يعرفها السائحون الأوربيون في أيامنا هذه قدر معرفتهم لمصر والعراق وسوريا ولبنان حيث نشأت أقدم الحضارات، والجزء الغربي والجنوب الغربي من تلك المنطقة – حيث استقر الإغريق كمستعمرين منذ حوالي ٧٠٠ عام ق . م نعرفه معرفة جيدة، أما المنطقة الجبلية التي تقع داخل البلاد فبقيت مجهولة تماما حتى ثمانين سنة مضت.

والنصف الغربي من البلاد عبارة عن شبه جزيرة لها شكل لسان هائل يحده البحر الأبيض المتوسط من الجنوب وبحر إيجه من الغرب والبحر الأسود من الشمال، وبه كل طابع يتخيله المرء من حيث المناخ والمعالم الجغرافية، فنجد مثلا جبال الألب في شرقه، بينما الشاطئ الشرقي البحري نصف قاري وبه هضبة مرتفعة، أما الشاطئ الغربي الأقصى المواجه لبحر إيجه فهو نموذج لمنطقه البحر الأبيض المتوسط بمحاصيلها من بساتين الزيتون والكروم، وبمناخها الدافئ الجاف الشبيه بمناخ إيطاليا وجنوب فرنسا والسهول التي تقع في الجزء الجنوبي مطلة على البحر الأبيض المتوسط، يزرع فيها الليمون والقطن، والواقع أن أبناء سويسرا واسكوتلاندة أو أفريقيا أو إيطاليا أو روسيا تجدون في آسيا الصغرى أماكن لا تختلف عن أوطانهم .

ومع ذلك فما زال اسم تركيا يثير في أذهان الكثيرين صورة بلد شرقي

شعبه معهم ونساؤه محجبات، على الرغم من أن كمال أتاتورك ألغي حجاب المرأة وفرض الزي الأوروبي على الشعب منذ أكثر من ثلاثين عاما . إن تركيا بلد غني جميل وإذا تيسر السفر إليها من الناحية المالية ستصبح لها شهرتها بين السائحين الغربيين مثل أي بلد آخر في جنوب أوربا.

أن البلاد التي تقع في حوض بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط كانت آهلة بالسكان منذ زمن بعيد، فقد أسس الإغريق أول مستعمراتهم. هناك، وشهرة ملوك مثل كريسوس ملك ليديا و ميداس ملك فريجيا الأسطوري شهرة واسعة – عريضة، لكننا إلى عهد قريب لم نكن نعرف شيئا ذا قيمة عن المناطق الداخلية والشرقية في عصور ما قبل التاريخ أو العصور التاريخية المبكرة، ونظرة عابرة على الخريطة تبين أن الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى لم يكن يبعد كثيرا عن مماسكة آشور بأعالي نهر دجلة، ومع ذلك فقد أثبتت الحفريات في شمال العراق عن وجود سكان يرجع تاريخهم إلى ٧٠٠٠ سنة ق.م بينما تعوزنا الأدلة على أن شمال العراق وآسيا الصغرى قد عرفه الناس قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، بل إننا لا نعرف ما إذا كانت الهضبة الوسطى عمرت بالسكان بعد ذلك التاريخ. ويبدو أن ثمة حاجز قد وجد هناك يقول عنه لويد : " إنه كان مطابقة تماماً لخط منحدرات الجبال الجنوبية التي يبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ قدم أو ما يزيد على ذلك، لهذا نجد ذلك الحاجز رغم امتداده شرقا وغربا – يتمشى في خط غير مستقيم مع التعاريج التي تتغلغل بها وديان الرافدين داخل المرتفعات ثم يمتد يعيد نحو الشمال ضاربة في سهل كيليكيا" (١)

(١) Lloyd, Seton. Early Anatolia.

وعاش الناس تحت هذا الخط منذ آلاف السنين، أما فوقه، فلم توجد إلا آثار حيوانية ونباتية ترجع إلى أواخر الألف الرابعة . ويقول علماء الآثار إن السبب في ذلك يرجع إلى وجود القمح وغيره من الغلال في سهول سوريا وتعذر الزراعة على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، هذا بالإضافة إلى قسوة الشتاء في الأناضول .

ومع ذلك فقد عرفها في القرن الماضي فقط أن تلك الهضبة المرتفعة قد شهدت حضارة زاهرة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٠٠ ق.م، ولم يكن مفتاح هذه المعرفة كشوفاً حدثت في جبال آسيا الصغرى، وإنما كان المفتاح نصوصا في الكتاب المقدس ونقوشاً في الحضارات القديمة بآشور و بابل ومصر . فقد وردت في العهد القديم إشارات عديدة لقوم يسمون الحيثيين إذ عندما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يبحث عن مكان يدفن فيه زوجته سارة اشترى مغارة مكبيلة في حبرون، من أبناء حيث . و تزوج عيسوا نساء حيثيات، وورد في كتاب الأعداد بالتوراة ذكر المكان الذي يقيم فيه الحيثيون بفلسطين على النحو التالي :

" العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، الحيثيون، واليابوسيون، والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن ." (كتاب العدد) الإصحاح ١٣ –

وأما أشهر رجل حيث ورد ذكره في التوراة فهو وريا الذي أرسله الملك داود إلى حتفه حتى يستولي على زوجته بتشيبه . ومما يذكر في هذه المناسبة أن مريم أم المسيح كانت من سلالة داود، فقد يكون المسيح على صلة قرابة بيتشيه نفسها . ويبدو أن هؤلاء الحيثيين الذين تحدثنا عنهم التوراة كانوا

يقيمون في فلسطين وسوريا. وكانوا جيرانا لليهود، وقد اعتبرهم هؤلاء الذين توفروا على دراسة العهد القديم في أوائل القرن التاسع عشر أندادا لليهود من حيث الأهمية السياسية . ويحدثنا سايس [1] أن أحد المرموقين في دراسة العهد القديم خلال منتصف القرن التاسع عشر قد أثار الشكوك في صحة ماررد في الإصحاح السابع من كتاب الملوك الثاني الذي جاء فيه أنه عندما رابط الأشوريون بالقرب من السامرة قال السامريون وهم يرتعدون رعباً :

" هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين و ملوك المصريين ليأتوا علينا " . ويعرف هذا الناقد المرموق أن قدماء المصريين كانوا حينذاك في أوج سلطانهم ومن ثم فن الحمق مساواتهم بالحيثيين الذين كانوا مجرد قبيلة لا تزيد شأنا ولا قوة على اليهود، وكتب يقول : لا يمكن بأي حال مقارنة أي ملك حيثي ملك يهوذا حليفهم الفعلي القريب منهم، الذي لم يذكر اسمه بتاتا كما أن التاريخ المعاصر لا يتضمن أدنى إشارة إلى هذا الملك ".

ولسوف نرى أن هذا الخطأ لا يرجع إلى جهل مؤرخ التوراة بالتاريخ المعاصر، وإنما إلى جهل الناقد نفسه، ورغم ذلك فنحن لا نستطيع أن نلومه لأن حقيقة أمر الحيثيين لم تنكشف إلا بعد أن أضاء حل رموز النقوش المصرية والبابلية والأشورية الطريق أمام الأثريين .

وكانت النقوش المصرية – وهي أول النقوش التي أمكن حل رموزها هي التي وجهت المؤرخين إلى أول الطريق، فقد وجدت على جدران عدد من المعابد المصرية بيانات عن حروب قام بها الفراعنة ضد شعوب غرب آسيا، وكشفت قوام طويلة أسماء هؤلاء الأعداء مصحوبة بنقوش بارزة واضحة تصور

---

(1) Sayce

فرعون مصر تحتمس الثالث الذي ينتمي للأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ – ١٣٥٠ ق.م) قابضاً على ناصية أسير أسيوي وقد أخذ يدق عنقه فرحة مغتبط)، وفي مثل هذا الوضع ترى صور سيتي الأول ورمسيس الثاني و الثالث الذين حكموا مصر عام ١٢٠٠ ق.م تقريبا، وبين هؤلاء الأعداء يرد اسم شعب يبغضه المصريون بصفة خاصة وهو شعب خيتا الممقوت . ولاحظ الأثريون الشبه بين اسم خيتا والاسم الذي كان العبرانيون يطلقونه على الحوثيين، وهو (خاتى) وكان فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لا ينفكون يقاتلون هذا الشعب الذي يبدو أنه كان عدوة شديد البأس، و على جدران أحد معابد رمسيس الثاني (حوالي ١٢٥٠ ق.م) لوحة ضخمة عليها نقش غائر يصور هزيمة شعب خيتا في موقعة قادش وهي مدينة تقع على نهر العاص في سوريا، و تصور اللوحة الأعداء بوجوه كالحة قبيحة، لهم أنوف طويلة وعيون ضيقة وفك بارز، يرتدون ملابس سميكة من الصوف . والمعتقد أن رسم الملابس يطابق الحقيقة، أما الوجوه فقد رسمت على نحو كاريكاتورى .

ويتساءل المؤرخون : إذا كان شعب خيتا هو بعينه الشعب الحيثي الذي ورد ذكره في التوراة، فكيف كان الكتاب اليهود (باستثناء تلك الفترة التي نقلناها من كتاب الملوك وفقرة أخرى غيرها) يعتبرون الحيثيين شعبة صغيرة صديقاً في أغلب الأحيان لا يزيد عليهم قوة ولا سلطانا ؟ وكيف نفسر فرحة المصريين – وهم أصحاب القوة والسلطان في العالم في القرن الخامس عشر ق.م بالانتصار على شعب خيتا الكريه لدرجة أنهم خصصوا مساحات كبيرة من جدران معابدهم لتسجيل هزيمته ؟ ونحن نجد دليلا ساطعة على تقدير المصريين لهذا الشعب القوى الممقوت في معاهدة ابرمت بين رمسيس الثاني

وحاتو سيليس ماك الحيثيين وقد دونت بنودها على لوحة حجرية وجدت بمدينة طيبة عاصمة مصر في ذاك الوقت. وفي هذه الوثيقة التي صيغت في أسلوب دبلوماسي دقيق – يتعاهد الماسكان على عدم الاعتداء على تقديم المساعدة لبعضهما البعض في حالة هجوم خارجي على أحدهما، ولتوثيق هذه المعاهدة تزوج رمسيس الثاني إحدى بنات ملك الحيثيين كما تبادلت ملكنا خيتا رسائل التهنئة.

أما العبرانيون فليس لهم ذكر على الإطلاق في النقوش المصرية إلا إذا كانوا هم المقصودين بكلمة حابيرو التي وردت في كشف طويل بأسماء القبائل الصغيرة المهزومة .

وقدمت النقوش الآشورية ––– التي تحدثنا في الباب السابق عن كشفها وحل رموزها – دليلا هامة آخر، فقد كان بينها نقش يرجع إلى أيام الملك تجلات بيلاسر الأول (عام ١١٠٠ ق.م)، يحدثنا عن مدينة قسمى ميليد Milid في سوريا، كان الملك الأشوري قد اتصل وهو فيها بمملكة تسمى مملكة « حتى الكبرى، فيما بعد، و بينما هو عائد من فتوحاته على شواطئ البحر الأبيض المتوسط تقبل تجلات بيلاسر فروض الطاعة من ملك آخر بمملكة "حتى الكبرى"، وأغلب الظن أن هذا كله حدث في قرقميش بأعالي نهر الفرات . إن اسم "خيتا" عند المصريين، و (خاتي) عند العبرانيين (وحتى عند الأشوريين يرمز دون شك النفس الشعب الذي كان معروفة بفلسطين و الذي حارب الجيوش المصرية في قادش وكان له ملوك يبدو أنهم حكموا في شمال العراق. ولكن من هم أبناء هذا الشعب ؟ وما شكلهم ؟ هل كان تصوير المصريين لهم مطابقة للحقيقة أم كان تصويراً ساخراً؟. ثم إن ملكة لها كل هذه القوة، كانت دون شك عاصمة، فأين كانت هذه العاصمة ؟ لقد ظلت

هذه الأسئلة دون إجابات زمنا طويلا.

والواقع أن علم الآثار أشبه ما يكون بلعبة المكعبات يجد لاعبها قطعة تتمشى " مع أخرى . ثم يجد قطعة ثالثة لا تمت بصلة لسابقتها فينحيها جانبا على أمل أن يجد مكانها المناسب فيما بعد. وقد ينتهي اللاعب من ضم جميع القطع خلال نصف ساعة أو أقل وتخرج الصورة كاملة، أما الصورة الأثرية فإنها تحتاج إلى قرون لكي تكتمل عناصرها، وقد لا تكتمل أبدا.

وأثناء البحث عن حضارة الحيثيين الغامضة ظهرت بعض المعالم في حماه وحلب وسوريا إذ اكتشفت به ما كتل من حجر البازلت عليها نقوش غريبة الشكل بخط تصويرى.. أما حجر حماه فاكتشفه الرحالة بورخارد عام ١٨١٢ ولم يكن النقش مدونة عليه بالخط الهيروغليفي ولا الفينيقي ولا المسماري المعروف في بابل و آشور . وفي حلب كان الحجر المنقوش قد بني في جدار أحد المساجد، وأصبح أملس من كثرة ما لمسه مرضى الرمد الحبيبي الذين كانوا يتبركون به. وبمجرد أن أظهر العلماء الأوربيون اهتمامهم بالحجر انتزعه الأهالي من مكانه وأخفوه، وبعد أن فسخت صور من النقوش التي كانت على الحجرين ونشرت بين الأثريين وصلت أنباء عن نقوش بنفس الخط اكتشفت الا في العراق ولكن شمالا على جبال طوروس بآسيا الوسطى.

وفي عام ١٨٧٦ قرأ الأستاذ م. هـ . سايس على "جمعية الآثار النورانية" رسالة تحدث فيها عن الكتل الحجرية التي وجدت في حماه وحلب، وعرض نظرية اعتبار نقوشها نقوشة حيثية، ولا يتسع المجال هنا لتفسير الأدلة التي بني عليها نظريته تلك، لكن علينا أن نذكر أنها أثارت اهتماما بالغاً ازداد عند اكتشاف نقوش أخرى على تلال ازميرت في (علاجا هويوك) وفي قرية

(بوغاز كوى) التي تقع بعيد على منحنى ضفاف نهر هالس في الهضبة العالية بوسط آسيا الصغرى.

ومع أن هذه الحقائق مثيرة بذاتها، إلا أنها تصبح أكثر إثارة عندما ننظر إليها في إطار المنطقة المجهولة التي اكتشفت النقوش بها، وكانت الأبحاث الأثرية في ذلك الوقت تتجه بالمنقبين نحو الشمال، وكانت أول حضارة قديمة أزاحوا عنها الستار هي حضارة مصر جنوبي البحر الأبيض المتوسط، وبعد ذلك كشفوا عن حضارة الرافدين بالعراق ونجدهم الآن في سهول شمالي سوريا التي تعلوها سلسلة جبال طوروس الجبارة التي كانت تعتبر في نظر الرومان الحد الفاصل بين العالم الجنوبي والعالم الشمالي وهى الحد الذي لم يجرؤوا على محاولة اجتيازه. وكانت أغنامه على ضفاف حضارة مصر وحضارة بابل حضارات نهرية حيث يزرع الإنسان أرضه ويرعى

الأنهار الكبيرة . فهل يعقل أن حضارة ما كانت قائمة في جبال آسيا الصغرى الوعرة فيما قبل التاريخ ؟.

وبين عامى .١٨٨٠ و ١٩٠٠، قام عدد من المنقبين برحلات شاقة إلى الجهات الثنائية في تركيا، من بينهم هرمان و بوشتاين الألمانيان، وشانتر الفرنسي وهو جارت، و هودلام واندرسن و كرونوت الانجليزي .

و عاد كل منهم بأنباء عن وجود نقوش و تماثيل بل ومدن متهدمة ولا سيما منطقة جبال طوروس والمنطقة والمقابلة لها . وفي بوغاز كوى أكدوا الأخبار عن وجود جدران ضخمة على صخر شديد الانحدار، وعن ورود خوة في جانب الجيل على بعد ميلين نقشت على جدرانها مجموعة صور بارزة لمو كبين، وفي وسط مدينة بوغاز كوى القديمة وجدوا لوحة كبيرة من الحجر (

المسمى نيشان تاش) تكسوها كتابة كتلك التي اكتشفت في حماه وحلب وغيرهما .

وفي عالاج هويوك وجدت. بوابة كبيرة – على جانبيها تماثيل ضخمة لأبي الهول – تؤدى إلى تل من الأنقاض يبدو واضحة أنها تغطي مدينة قديمة أو مبنى ضخم، فإذا ابتعدنا ناحية الغرب، وجدنا فيما يعرف باسم قلعة الكفار، مجموعة ممن التماثيل واللوحات الحجرية المنقوشة .

وفي الجبال التي تشرف على أزمير، توجد تماثيل أخرى عرفها الناس منذ أيام هيرودوتس الذي قال عنها أنها تمثل عروس البحر (نيولي Niobe) وفرعون مصر سيزوستريس [1]..

وكان مستحيلا آنذاك تحديد تاريخ هذه النقوش والمباني والتماثيل، لكن بينها كانت إحدى الفلاحات المصريات في تل العمارنة تحفر الأرض للحصول على سماد، وجدت مجموعة كبيرة من اللحوحات المسمارية المحروقة. تبين بعد تأكد الأثريين من أصالتها، أنها جزء من سجلات فرعون مصر إخناتون (حوالى ١٤٠٠ ق.م) وأنها تتضمن مراسلات دبلوماسية بينه و بين حكام بابل و آشور و ميتاني وغيرهم كما جاء في بعض اللوحات ذكر وخيتا، . وفي ذلك الوقت، بعد فترة طويلة من السلام، يبدو أن الحيثيين بدءوا مرة أخرى في التغلغل داخل سوريا مهددين بذلك الدول التابعة لفرعون بفلسطين.

وتحت ضغط الملك الحيثي المنتصر انشق بعض حكام الولايات

---

(1) Gurney, O.R. - The Hittites.

الفلسطينية الذين كان فرعون قد عينهم وهاجموا جيرانهم الذين بقوا على ولائهم لمصر . واستنجد هؤلاء الجيران دون جدوى بأخناتون. وفيما يلي نص إحدى رسائل العمارنة :

"انظر كيف حارب آزيرو (وهو والى خائن) رؤساء قبيلتي، وكيف دبر أمر القبض على الزعماء الذين بعثت بهم إلى مدينة سيميرا . وقد أرسلت بيروت وزيونا بعض السفن إلى هذه المدينة، وجميع سكان أرض العموريين تكتلوا .. إني أحتاج لرجال حتى أنقذ البلد .. أعطني جنود.."

وكان شوبيليليوما Shubililiuma ملك الحيثيين الماكر يدعي أنه صديق الفرعون ويلعب في الخفاء حتى سقطت سيميرا في يد آزيرو، واضطر الوالى المخلص ريبادي أن يكتب ثانية لفرعون، قال :

" يؤلمني أن أذكر ما فعله الكلب آزيرو . انظر إلى ما حدث لأراضي الملك بسببه، والآن أنظر إلى ما حدث لمدينة سيميرا وهي مركز لمولاي، وقلعة .. لقد نهبوا قلعتها .. آه من العويل (هناك) .. رجل شرس وكلب [1]"

وقد أثارت هذه الوثائق وغيرها اهتماما متزايدة للكشف عن أصل الحيثيين وإذا كان الباحثون قد أمسكوا بطرف خيط رفيع من الأدلة فقادم إلى آسيا الصغرى، إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى دليل كتابي يؤكد لهم أن وطن الحيثيين كان هناك .

وحوالي آخر القرن الماضي نشر العلامة الألماني مسرشميت Messerschmit المجموعة التي تزايدت من الرموز الحيثية التي لم تحل بعد

---

(1) Translated by Professor Sayce.

.

ومنذ ذلك الوقت ركز عدد من العلماء أغلبهم من الألمان جهودهم لحل تلك اللغة الغامضة وجاء الكشف الفاصل على يد د. هوجوو بنكار Hugo Winckler

الذي قرر القيام بحفريات على نطاق واسع في بوغازكوى، وهو موقع ملفت النار من عدة نواحى .

عندما توجه وينكلر وغيره من الرحالة إلى بوغاز كوى كان عليهم أن يمروا ممر ضيق على الجبل من علاج هو يوك. ومع أننا الآن نستطيع السير في نفس الطريق بسيارة على أرض مهددة، إلا أن الرحلة ما زالت مثيرة، فهناك أولا واد واسع خصيب، لكن كلما اقتربنا من الموقع أطبقت التلال من الجانبين تدريجيا حتى نصل إلى نقطة ينحدر عندها من الجبال جدولان يتدفقان في السهل خلال مضايق عميقة . وعند التقاء الجدولين توجد قرية حديثة يشرف عليها من بعد نتوء كبير، يحده من الجانبين مساقط حجرية تجري من تحتها الشلالات مزبدة معدة . وعلى هذا النتوء وفوق أسطح القرية الحديثة ترقد خرائب المدينة العتيقة .

أما في المنحدرات السفلى التي تقع فوق القرية مباشرة فتوجد أطلال أقدم مكان . استقر فيه الإنسان وبه قلعة مبنية على صخرة منبطحة مسطحة القمة . فإذا زدنا ارتفاعا وجدنا بعض الصخور وقد كستها أبنية سميكة، ويحيط بالمنطقة كلها ومساحتها تبلغ حوالي ثلاثمائة فدان) بقايا سور كبير مبني بكتل غليظة من الحجر . ويقول الأثري الحديث، سيتون لويد:

" أول ما يلفت نظر الزائر ... هو اتساعها الكبير بالنسبة إلى معظم مدن

العصر البرونزي الأخرى، لدرجة أن المرء يحتاج لصباح بطوله ليدور دورة كاملة

حول أسوارها، ويثير الدهشة بعد ذلك تلك القوة الهائلة في تحصيناتها ولا سيما الجزء الجنون من السور الخارجي لتلك المدينة الواسعة، ولا شك أن الجهود التي بذلت في بناء تلك التحصينات كانت تفوق الوصف، فهناك جسم تراني هائل يكسو بعض أجزاء واجهته الخارجية المنحدرة غلاف حجري، ويرفع هذا الجسر أساس السور إلى علو ملموس، وقد بنى السور الرئيسي فوق ذلك الجسر على هيئة قوقعة ذات جانبين يملأ الفراغ الواقع بينها كسارة الحجارة . وتدعم السور كله أبراج بارزة، وقد زادت القطاعات الضعيفة بجدار إضافي له بروج مماثلة، ولابد من اختراق هذا الجدار أولا قبل الوصول إلى السور الرئيسي [1].

كانت لهذه الأبراج بوابات مزينة بالنحت البارز الغريب الذي سبق أن علق عليه كثير من الرحالة و نشرت له صور عديدة قبل وصول وينكلر إلى المنطقة عام ١٩٠٦: وجد على جاني إحدى تلك البوابات تماثيل لأبي الهول تشبه إلى حد ما التماثيل المصرية إلا أنها خشنة قبيحة المنظر . ووجد على جدار بوابة أخرى صورة لمقاتل يخطو إلى الأمام ويرتدي قميصاً قصيراً وخوذة عليها ريش، وفي يده اليمني بلطة للقتال، وعلى جانبي بوابة ثالثة تماثيل أسود . كان الآشوريون كما سبق، يزينون بواباتهم بتماثيل الأسود و الثيران، لكن أسد بوغاز كوى لا تبدو عليه ليونة أن ذكر نا الحركة والقوة الوحشية التي نجدها في الحيوانات الآشورية، كانت بالعكس ضخمة عريضة

---

(1) Llyod, Seton. - Early Anatolia.

الهيكل توحي بثقل الوزن مثل تماثيل الرجال والآلهة المنحوتة على جدران قدس الأقداس في معبد يازيليكا يا الغريب. و ثقل الوزن وقوة الأجسام الممثلة في ضخامتها تعتبر الطابع المميز لفن النحت عند الحيثيين. ولا نجد فيه الانسياب و الرشاقة التي تبدو في كل من الفن المصري والفن البابلي . ومع ذلك، فللفن الحينى تأثيره الخاص وإن جاء بطريقة أخرى . ومن الواضح أن الرجال ذوي المناكب العريضة والملابس الثقيلة والقبعات الأسطوانية الشكل كانوا من الجبليين الذين ألفوا قسوة الجو، كما أن أحذيتهم ذات البوز المرتفع (مثل المركوب) كانت في الغالب أحذية تستعمل المشي على الجليد .

وحين بدأ وينكلر ورجال بعثة الشركة الألمانية الشرقية في التنقيب، كانت فكرة وجود علكة حيثية قوية، فكرة لاريب فيها، وكانت جميع الأدلة تشير إلى أنها نشأت في آسيا الصغرى، بيد أن هناك برهانا مدونا يثبت ذلك. ففي عام ١٨٧٩ عندما نشر البروفسور سايس كتابه [1] اضطر إلى أن يقول : إننا لا نعرف حاليا عن تاريخ السوريين البيض أو الحيثيين الذين عاشوا في أرض بتريا Pteria بالقرب من هاليس، أكثر مما يمكن أن نستدل عليه من خرائب قلاعهم في بوغاز كوى ومن قصره في أيوك ".

أما الخط الحيثي الذي اكتشفت منه عدة نماذج فكان حتى ذات التاريخ يتحدى كل مجهود لحل رموزه.

لكن كل هذا الشك تلاشي عندما اكتشف وينكلر في بو غاز كوى مخبر يشتمل على أكثر من ١٠,٠٠٠ لوحة منقوشة . وكما أتاحت اللوحات

---

(1) A. H. Sayce. - The Hittites.

المحروقة الصغيرة الفرصة أمام الأثريين ليبعثوا الحياة في المدن البائدة بآشور وبابل، فقد أدت تلك اللوحات نفس الخدمة تجاه إمبراطورية الحيثيين التي كانت في طي النسيان . وأغلب اللوحات التي اكتشفت في بوغاز كوى كانت جزءا من مجلات القصر، إلا أنها كانت مكتوبة بلغة مجهولة، ولكن حدث قبل ذلك ببضعة أعوام أن لاحظ العالم النرويج – كنوتزون – وجود لوحتين عليهما لغة لعلها تنتمي إلى اللغات الهندية الأردية، وذلك بين اللوحات الشهيرة التي عثرت عليها الفلاحة المصرية في تل العمارة .

وفي بوغاز كوى وجد و ينكر أن اللوحات منقوشة بتلك اللغة المجهولة نفسها. ولأن لوحتى تل العمارنة وردت فيهما إشارة إلى مكان يسمى إرزاوا، وكان موقعه مجهولا حينذاك، فقد أطلق العلماء على اللغة المجهولة اسم إرزاوان .

لكن هذه التسمية لم تدم طويلا. إذ بعد دراسة لوحات بوغاز كوى دراسة إضافية وجد بينها عدد من اللوحات منقوش باللغة الأكادية وهي لغة البابليين التي أصبحت معروفة عند الأثريين . وأمكن الاستدلال من هذه اللوحات على أن نظريات سايس وغيره كانت صحيحة، وثبت أن هذه الناحية من آسيا الصغرى كانت فعلا موطنا لشعب وحاتى، ذي التاريخ الغامض، وأن بوغاز كوى أو حاتو ساس (وهو الاسم الأصلي) كانت عاصمة البلاد، وانتهى الأمر بأن موطن الحيثيين الأصلي هو الأناضول . وجاء الدليل القاطع على ذلك عندما اكتشف في بوغاز كوى النص الحيثي للمعاهدة التي عقدت بين كل من رمسيس الثاني فرعون مصر وحاتو سيليس ملك الحيثيين . أما النص المصري فكان منقوشاً بالخط الهيروغليفي المصري على جدران معبد الكرنك في طيبة عاصمة مصر القديمة وكان النص الحيثي منقوشة بالخط المساري

البابلي و باللغة المتداولة بين المصريين والملوك الآشوريين في مراسلاتهم الدبلوماسية . ولما أمكن تأريخ المعاهدة بالعام الحادي والعشرين من حكم رمسيس الثاني أي حوالي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ق.م، أمكن بالتالي تحديد تاريخ لوحات بوغاز كوى و هو في نفس العام . أما بالنسبة إلى اللغة المجهولة المكتوبة بالخط المساري فلم يوجد أدنى شك في أنها منقوشة بلغة الحيثيين، وعندئذ استبعد اسم إرزوان وسميت هذه اللغة بالحيثية وكانت الخطوة التالية المرتقبة هي حل تلك اللغة.

إن اضطرارنا للإيجاز في كتاب مثل هذا يجعلنا نغض النظر من ذكر تفاصيل كثيرة أخاذة، والراغب في تتبع الكشف عن الحضارة الحيثية يستطيع أن يجد غايته في كتاب الأستاذ جارستانج [١] الذي زار د. وينكلار وهو يعمل في بوغاز كوى، كما أنه يباشر بنفسه حفائر ساكاجى جوزيع في شمال سوريا . ويعتبر كتاب [٢] جورني (وهو ابن أخت جارستانج) الذي نشره عام ١٩٥٢ أدق وأحدث مرجع عن الحيثيين.

والخلاصة أنه بعد أن اكتشف وينكلر لوحاته في بوغاز كوى عام ١٩٠٦ ثبت من المنقوش منها باللغة الأكادية أن البقعة التي اكتشفت فيها هي حاتوساس، عاصمة الحيثيين من القرن الخامس عشر إلى حوالي أواخر القرن الثالث عشر ق.م أي ما يقرب من مائتي عام. وقدم وينكار كشف بأسماء الملوك الحيثيين من شو بيليليوما الذي أثار متاعب فراعنة مصر (من الأسرة الثامنة عشرة) إلى آرنووانداس الذي حكم قرابة آخر القرن الثالث عشر ق.م، وعند هذه النقطة تنتهى المستندات . خلال تلك الفترة سيطر الحيثيون

(١) Garstang. — The Land of the Hittites 1910.

(٢) Gurney. - The Hittites.

من آسيا الصغرى، على مجموعة من الدول كان بعضها في آسيا الصغرى، والبعض الآخر في شمال سوريا لكن أحدا لم يستطع قراءة بمجموعة اللوحات المسمارية الضخمة المكتوبة باللغة الحيثية، لاهي ولا تلك التي نقشت بالهيروغليفية الحيثية التي سبق أن أكتشفت في حماه و حلب وأماكن غيرها بسوريا، وعلى عدد كبير من الصخور في آسيا الصغرى .

ومن الواضح كذلك أن كثيرا من المدن والقرى المائدة التي تقع على هضاب الجبال الشرقية تشتمل على نقوش وتماثيل مماثلة كانت تنتمي إلى نفس الحضارة الحيثية ومن المؤكد أيضاً أن تلك الحضارة تغلغلت جنوبا في قلب سوريا، وأن مدن قرقميش في أعالي الفرات وميليد وحماه كانت حيثية في وقت ما، وقيل اندلاع الحرب الأولى أوفد المتحف البريطاني دكتور د.ج هو جارث ليقوم بالتنقيب في قرقميش وكان يساعده شاب من خريجي جامعة أكسفورد جاء ليتعرف على الأراضي التي اشتهر فيها فيما بعد باعتباره من قادة حرب العصابات، واسم هذا الشاب ١٠. لورنس [1] وكان ضمن هذه البعثة ليونارد (وهو الآن السير ليونارد) وولي وعاد جميعهم للمتحف البريطاني بالمزيد من نماذج النحت الحيثية والكتابة الحيثية، المسمارى منها والهيروغليفي؟

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وحاربت تركيا مع ألمانيا انفض شمل علماء البحوث الحيثية، و توفر الألمان منهم على حل اللوحات الحيثية المسمارية التي اكتشفت في بوغاز كوى، بينما قام العلماء البريطانيون محاولة حل الخط الهيروغليفي الحين . واتسعت الشقة بين علماء الدولتين طوال

---

(1) وهو لورنس المستشرق الذي لعب دورا هاما في حد الاستعمار في الشرق الأوسط ومؤلف كتاب .Seven Pillars of Wisdom

سنى الحرب بل وإلى أن تم حل الخط المسارى الحيثي، بفضل الألمان بصفة خاصة، ومنهم ف . فريد رنج، و هـ . أهيلوف، وانجو تزن، كما عاونهم في ذلك هروز في التشيكي، وفورير السويسري، وديلابورت الفرنسي، وستر وتفانت [1] الأمريكي، الذي نشر كتابا في أجرومية اللغة الحيثية المقارنة لخص فيه أعمال العلماء الألمان .

ومع أن كتابنا هذا خاص بالبقايا الأثرية للمدن التي اندثرت، إلا أن حب الاستطلاع قد يدفع بعض القراء إلى الرغبة في استجلاء الطريقة التي اتبعت في حل رموز اللوحات المسمارية الحيثية، و يمكن القول بصفة عامة أن البحاثة اتبعوا الطريق من المعلوم للمجهول : فلغتا بابلونيا، وهما الأكادية والسومرية، كانتا معروفتين، و تصادف أن الكتبة الحيثيين (الملمين طبعاً بكلتا اللغتين) كانوا يدمجون كلمات سومريه أحياناً وآكادية أحيانا أخرى في كتاباتهم، حتى تلك التي بلغتهم الخاصة – وعندما ينسخون أكثر من نسخة لذات النص كانت الكلمات الدخيلة (أي التي بإحدى اللغتين السومرية أو الأكادية) تختلف من نص لآخر بالنسبة لوضعها في الجملة . وعلى سبيل المثال نتخيل نصاً وصورته بالعربية (انجليزية) عليه كلمات بالفرنسية كالآتي:

إن جون يتألم من malaise نفسي . فهو يشكو باستمرار من ennui لقد فقد كل joie de vivre السابق و تلاشى حتى حبه لتذوق cuisine اللذيذ . وفي مطعم سبلانديد مساء أمس فشل maitre d ' hotel في إغرائه على أكل bouillabaisse الشهيرة . كذلك يبدو أنه فقد مهارته القديمة فقد أصبح maladroit .

---

[1] F. Sommer, F. Friederich, H. Ehelolf and A. Gotz, - Hrozny, Förrer, Delaporte and Strutevant.

لنتخيل في المقطوعة أعلاه أن الكلمات العربية كانت باللغة الحيثية وهي لغة مجهولة وأن الكليات الفرنسية كانت باللغة السومرية وهي معلومة . فإذا اكتشفت بعد ذلك صورة لنفس المقطوعة استعملت بها اللغة العربية في مكان الكلمات الفرنسية في النسخة السابقة لوجدنا الآتي:

إن جون يعاني (مرضا) نفسيا، فهو يشكو دائما من (الضجر).

لقد فقد كل (مرحه) السابق، وحتى حبه لتذوق (الطهي) اللذيذ، ومساء أمس فشل (رئيس الخدم) بمطعم سبلانديد في إغرائه بتناول (شوربة السمك) الشهيرة . كذلك يبدو أنه فقد مهارته القديمة وغدا شخصا (سريع الارتباك).

فإذا قارن الباحث النص الثاني بالنص الأول استطاع فهم المعنى المقصود من الكلمات التي بين الأقواس . وإذا صادفته إحدى هذه الكلمات فيما بعد في أية نقوش أخرى فقد يؤدى وضعها بالنسبة لباقي أجزاء النص إلى فهم معناه حتى عند عدم التمكن من قراءته بالكامل .

ويصور هذا المثال البدائي إحدى الطرق التي يتبعها اللغويون عندما يحاولون حل رموز لغة مجهولة، وهي عملية شاقة ومعقدة تتطلب غاية الدقة، كما أنها لا تتم إلا بدراسة عدد ضخم من النقوش و بالتدريج في خطوات وئيدة مستأنية، مع عدم الاعتماد على الحدس إطلاقا وعدم تحديد معنى الكلمة، إلا إذا وجد على ذلك دليل قاطع . واستطاع الألمان و غيرهم من العلماء أن يصلوا عام **١٩٣٣** بتطبيق هذه الطريقة إلى حل فصوص من اللوحات الحيثية المسمارية. ومع ذلك بقيت بعض النقوش الدينية دون حل لغموضها الشديد .

هذا عن اللوحات ذات الكتابة المسمارية . أما اللوحات ذات الكتابة الهيروغليفية، فكان الانجليز أقل حظا في حلها، فإلى عهد قريب جدا لم يحصلوا إلا على نص واحد صغير مكتوب بلغتين وهو " Boss of Tarkondemos " . الذي يشتمل على تسع علامات مسمارية وسنة رسوم هيروغليفية . كذلك وجدوا أسماء بعض الأفراد والأماكن التي وردت من قبل في النقوش الآشورية.

وكتب جورنيه يقول :

من هذه البداية استطاع خمس علماء، يعمل كل منهم مستقلا عن الآخر، وهم: بوسيرت الألماني وفورير السويسري وجيليب الأمريكي وهرزوني التشيكي ومرجى الإيطالي – استطاعوا أن يصلوا إلى رأي واحد فيما يتعلق بقيمة أغلب الرسوم الهيروغليفية في مجال استخدامها كعلامات صوتية . وهكذا حددوا الخطوط العريضة اللغة الحيثية عن طريق الخط الهيروغليفي . ولكن معنى النقوش بقى برغم ذلك غير مفهوم، لأن فهم معنى الكلمات مازال يمثل عقبة عسيرة[١].

وفي نفس الوقت، وابتداء من عام ١٩٢٠، قام عدد من الأثريين بعمليات تنقيب في مواقع حيثية بكل من آسيا الصغرى وسوريا، ومن بينها بطبيعة الحال بوغازكوى . وكان القائم بالحفر في الموقع يعاون اللغوي الذي يعمل في مكتبه، والعكس صحيح. فإذا المدن التي اندثرت في آسيا الصغرى لم تعد مجرد أطلال غامضة يعجب المرء لمرآها ويتساءل عن ماهيتها .. إذ عرفنا الآن الكثير من الشعوب التي شادتها وأسماء حكامها ونظمها.

---

(١) انظر ص ١٠٢.

الاجتماعية والحربية وحياتها اليومية وأديانها.

ومع ذلك فنحن لا نعرف حتى الآن إلا القليل من ورد ذكرهم في التوراة باسم "الحيثيين السوريين"، برغم أن الصلة بينهم وبين الحيثيين الذين كانوا يقيمون في الجبال الشمالية أصبحت أوثق وأشد مما كانت عليه قبلا، ومع أن الحيثية الهيروغليفية والحيثية المسمارية، لغتان مختلفتان، إلا أن وجه الشبه بينهما قريب جداً .

ولقد وصلنا إلى هذه المعلومات بفضل جهود عديد من العلماء الذين ينتمون إلى أوطان مختلفة، فنهم الألماني والسويسري والتشيكي والدانمركي والفرنسي والبريطاني والأمريكي . وأخيرا وليس آخرا الأثريون الأتراك الذين قاموا منذ الحرب العالمية بحفر عدة مواقع هامة في الأناضول.

الفصل السادس

إمبراطورية في طي النسيان

- ٢ -

لم يكن الحيثيون الذين تحدثنا عنهم الوثائق التاريخية أول من استوطن آسيا الصغرى . فأسم وحى، الذي أطلق على المنطقة يرجع أصلا إلى سكانها الأول الذين نعرفهم باسم الحيثيين.

أما الحيثيون الذين ورد ذكرهم في الوثائق المصرية والآشورية، هؤلاء الذين حكموا البلاد من مدينة حاتوساس والذين نعرف لغتهم باسم اللغة الحيثية، فكانوا غزاة استطاعوا فيما يبدو أن يستقروا في المنطقة من عام ١٩٠٠ ق.م بعد انتصارهم على الأمراء المحليين .

وقد جاء هذا الشعب بلغته الخاصة التي يرى اللغويون أنها من أصل هندى أوربي، أي أنها تمت إلى نفس الجذور التي تفرعت عنها معظم اللغات الأوربية بما في ذلك الانجليزية، بعكس لغات مصر القديمة و بابل و آشور، التي ترجع إلى أصول أخرى. ويبدو أن بمجموعة اللغات الهندية الأوربية أو الآرية قد نشأت قبل العصور التاريخية بزمن سحيق في مكان ما بشمال الهند وأفغانستان.

وعندما استقر هؤلاء الغزاة في منطقة حتى، اتخذوا لأنفسهم اسم البلاد التي استوطنوها ومن ثم عرفهم جيرانهم باسم خيتا أو ختى أو حيثي، تماما كما حدث السكان بريطانيا الذين يرجع أصلهم إلى الغزاة الأنجلو سكسونيين

والاسكانديناويين، والذين مازالوا يسمون الجزيرة التي استولوا عليها باسمها الأصلي، وهو بريطاني.

وطبقاً للسجلات التي توجد في بوغاز كوى، قسمت البلاد أول الأمر إلى ولايات منفصلة، حتى استطاع الملك لابارناس أن يسيطر عليها جميعا ويوحدها تحت سلطانه.

وقد ورد في السجلات أن البلاد كانت غير كبيرة، ولكن حينما ذهب لابارناس للقتال كان يخضع أراضى الأعداء بجبروته، فأوقع الدمار بلادهم وسلبهم كل حول وقوة . واتخذ من البحار حدودا لبلاده، ولما عاد من القتال ذهب أبناؤه إلى كل بقعة من الأرض (التي أخضعها) إلى "هويسنا" و "نينيسا" و "لاندا" و "دزيلارا" و "بارسوهاندا" و "لوسنا" وحكوها، وفتحوا المدن العظيمة.

وخلف لا بارناس على العرش حتو سيلس الأول الذي نقل العاصمة إلى مدينة توساس (وهي بوغاز كوى)، وإبان حكمه وحكم وريثه خرج الحيثيون من معاقلهم الجبلية وجعلوا يتقدمون جنوبا نحو سهول سوريا الشمالية حيث اجتذبهم ثراء حضارة راسخة عريقة . وغزا حتو سيليس مدينة « حلب، واستطاع ابنه مورسيليس أن يتغلب على مدينة بابل. وهو حدث سجلته الوثائق البابلية إذ جاء فيها :

"سارت جحافل حتى نحو بلاد أكد" .

ويؤرخ العلماء هذا الغزو بعام ١٦٠٠ ق.م على وجه التقريب.

وبعد هذه الفتوحات وقعت منازعات داخلية في مملكة الحيثيين، فعمت-

المؤامرات التي كانت تحاك في القصر، وكثرت الاغتيالات، وفضلا عن ذلك فقد هاجم الحوريون (وهم شعب آرى آخر) الممتلكات الحيثية وبعد عام ١٠٢٠ ق.م اغتصب تليبنوس العرش ووطد مركزه. وعلى أيامه صدر مرسوم، مفصل لخص فيه تاريخ الحيثيين (ومنه استقينا قصة لابارناس السابقة) ووضح الخطر الذي تجلية المنازعات و عوامل الفرقة بين الإدارات العليا، الأمر الذي أدى إلى إصدار قوانين جديدة تحدد تصرفات الملك والنبلاء . وقد بقيت هذه القوانين مرعية حتى آخر أيام الإمبراطورية الحيثية " [١]

ويبدو أن الفترة التي يسميها المؤرخون "الدولة الحيثية القديمة"، انتهت بانتهاء أيام الملك تليبنوس، أما العهد الإمبراطوري، الذي وصل فيه الحيثيون إلى أوج مجدهم ؛ فقد بدأ بحكم تودها لياس الثاني الذي أسس أسرة حاكمة جديدة وفي عهده قضى تحتمس الثالث – فرعون مصر المحارب على الحور بين أعداء الحيثيين القدامى، وأدى هذا النصر إلى سيطرة المصريين على شمال سوريا طيلة ثلاثين عاما، لكن الحوريين قويت شوكتهم مرة ثانية في ولاية ميتاني عند الثنية الكبيرة بنهر الفرات، ولفترة ما بقيت هذه الولاية أقوى الولايات غرب آسيا ومصدرة للمتاعب بالنسبة للمصريين والحيثيين على حد سواء. وحوالي ١٤٥٧ق.م ، عندما تهب تودها لياس الثاني مدينة حلب، كان المصريون والحوثيون متحالفين، إذ تحدثنا لوحات تل العمارنة عن هذا يا أرسلها ملك "ختى الكبرى" إلى فرعون.

وباعتلاء شوبيليليوما العرش، توصل المؤرخون إلى حلقة أخرى كانت مفقودة في تاريخ الحيثيين، فهذا الملك كان دون شك نفس القائد الداهية

---

(١) Guerney, O. R. - The Hittites.

الذي استطاع بدسائسه أن يفض حلفاء مصر من حولها أيام أمنوفيس الثالث ووريثه إخناتون. ويعتبر شو بيليليوما بحق بطل تاريخ الحيثيين، لأنه لم يدمر قوة دولة ميتانى و حسب، وإنما تغلغل بجيوشه في قلب سوريا واشتك مع قادش حليف المصريين وقضى على جيشه حوالي سنة ١٣٧٠ ق.م.

وتسجل وثائق بوغاز كوى حدث وقع لشوبيليليوما، وكانت له فيما يبدو صلة مباشرة بحادث محزن مجله تاريخ ملوك مصر . فقد جاء في السجلات الحيثية أنه بينما كان شوبيليليوما معسكرة خارج قرقميش أتاه رسول يحمل رسالة من ملكة مصر تقول فيها:

"لقد مات زوجى و ليس لي ولد، أما أنت فلديك كما يقال عديد من الأبناء، وإذا تكرمت بإرسال واحد منهم إلى فسوف أتخذه زوجة، ذلك لأني لن أقبل بأي حال أن أتزوج واحدة من أفراد رعيتي، وإني لخائفة غاية الخوف".

ووقع الملك الحيثي فريسة للحيرة، وربما داخله الشك في الأمر فبعث مندوبا خاصة للبلاط المصري ليأتيه بتفاصيل الموضوع . وعاد المندوب حاملا رسالة ثانية من الملكة تقول فيها:

"لماذا تقول "إنهم يخدعوني" لو كان لي ولد، هل كنت أكتب لغريب لأنشر على الملأ أحزاني وأحزان بلادي ؟ لقد أهنتني . لامك هذا. لقد مات زوجى دون أن أنجب أولادا . ولن أتخذ من رعاياى زوجة. إني لم أكتب لأحد غيرك . والكل يقول إن لك أولاد كثيرين، فأعطني أحدهم ليكون زوجى".

وعندما اكتشف ونكلير هذه الوثيقة العجيبة كانت الملكة المصرية التي بعثت والرسالة اليائسة مجهولة تماماً، ولكن علماء الآثار المصرية توصلوا بعد ذلك لمعرفتها معرفة أكيدة، وكشفوا بذلك عن إحدى القصص المؤثرة التي أخرجتها لنا معاول الحفارين من بين أطلال المدن القديمة . إن الزوج الذي قضى نحبه كان دون شك الملك الطفل توت عنخ آمون الذي اكتشف هوارد كارتر ولورد كارنارفون قبره الرائع، أما الملكة فهي عنخ است آمون التي توجد صورتها الجميلة على عرش الملك الذهبي، وكانت غالبا من نفس سن زوجها . ولما كانت وراثة العرش تنتقل عن طريق الإناث، فإن من يتزوج الملكة الأرملة يصبح فرعونة . وكان رآى، وهو أحد رجال البلاط ذوى النفوذ (وقد شغل من قبل منصب رئيس وزراء إخناتون) يتآمر للسيطرة على الحكم، ولكن التقاليد كانت لا تسمح بزواج الملكة الأرملة، إلا بعد التسعين يوما المقررة لعملية تحنيط الجثة الملكية . ويبدو أن عنخ است آمون وجدت أن هذه هي فرصتها الوحيدة لاجتناب الزواج من رجل القصر العجوز الذي يكبرها بكثير، لذلك بعثت برسالتها اليائسة مستنجدة بالملك الحيثي.

وكانت خاتمة القصة أليمة . فقد أرسل شوبيليليوما أخيرا أحد أبنائه، لكنه قتل بمجرد وصوله إلى مصر بناء على أوامر آى، ويبدو أن رآى، الذي ارتقى العرش بعد توت عنخ آمون قد تزوج من الملكة عنخ اسن آمون ليصبح صاحب حق شرعي في التاج .

وهذه المأساة التي جرت أحداثها منذ ثلاثة آلاف سنة، ليست مجرد قصة عاطفية منقولة عن أسطورة قديمة، بل هي عادت تاريخي اكتشفت الأدلة عليه في كل من طيبة بمصر وبوغاز كوى بآسيا الصغرى، وهما مدينتان تبعد الواحدة منهما ١٠٠٠ ميل عن الأخرى، ولم نستطع التعرف على إحداهما

إلا منذ خمسين سنة فقط .

إن مجرد تلخيص تاريخ الحيثيين السياسي لا يتسع له هذا الكتاب، ولن أحاول القيام به . ومع ذلك فنحن نستطيع أن نرسم الخطوط العريضة لهذا التاريخ مستعينين بما حفظته لنا وثائق بوغاز كوى عن الملوك الحيثيين المتتابعين وما وجدناه في سجلات الدول المجاورة التي كثيرا ما اشتبك الحيثيون معهم .

وكان الحيثيون شعباً محارباً شديد المراس، أسسوا لأنفسهم مملكة موحدة في موطنهم الجبلي، لكن المحافظة على سلامة هذه المملكة دعتهم إلى القتال الدائم مع جيرانهم . فأحيانا كانت بعض الولايات التابعة لهم تنشق عليهم فيضطرون إلى إخضاعها بالقوة . وأحيانا أخرى كانت تصادفهم مشاكل داخلية . ويبدو أن شوبيليليوما كان على حق في إقامة التحصينات التي تمنطق حتو ساس ببواباتها الضخمة، وكلما قويت شوكة هذا الشعب كان يخرج من جباله و يندفع جنوبا نحو الأراضي الخصبة. وفي عام ١٣٧٠ ق.م أصبحت كل من حلب وعلاج بسوريا مدناً حيثية، كذلك خضعت ، نحاسي، في قلب سوريا و "عمورة" التي تشتمل على منطقة لبنان والأراضي الساحلية وصمدت قرقميش وقتاما حتى هزمت، عام.١٣٦ ق.م. و عند أن أصبحت المساحة الشاسعة الواقعة بين البحر والفرات جزءاً من إمبراطورية الحيثيين.

واسترد مرسيليس بن شوبيليليوما ولاية أرز أول المجاورة التي ظلت متمسكة باستقلالها (كما جاء في لوحات تل العمارنة) وكانت تربطها بمصر صلات الود والصداقة . وحدثت اشتباكات مع القبائل المعادية الشمالية فما وراء الجبال : كذلك كان ظهور آشور في أعالي نهر دجلة خطر يهدد

ممتلكات الحيثيين . وعندما استردت مصر قوتها ووحدتها حوالي عام ١٣٠٠ ق .م في ظل أسرة جديدة شديدة البأس، بدأ المصريون يزحفون خارج واديهم محاولين استرداد سلطانهم على سوريا . ولا شك أن الحيثيين قد وجدوا في سيتي الأول ورمسيس الثاني صورة جديدة الفرعون مصر الجبار تحتمس الثالث الذي طردهم من شمالي سوريا. وأصبحت الحرب أمرا لا مفر منه، فاشتبكت الإمبراطوريتان خلال عامى ١٢٨٦ – ١٢٨٥ ق. م في قادش وعلى نهر العاصي، لكن المعارك لم تسفر عن نتيجة حاسمة (١) وبقي شمالي سوريا تحت سيطرة الحوثيين . وأخيرا استتب السلام . ووقع الملكان المصري والجيش كما ذكرنا معاهدة صلح، حفظت صورتها بكلتا العاصمتين . وفي تلك الآونة كانت آشور تزدهر بسرعة حتى غدت خطرا يهدد الإمبراطوريتين معا، مما جعلهما تزدادان تقارباً في أواخر القرن الثالث عشر ق.م، وبعد مرور ثلاثة عشر عاما على توقيع المعاهدة بين رمسيس الثاني وحاتوسيليس الثالث، تزوج فرعون مصر من ابنة ملك الحيثيين.

وأمر تود هالياس الرابع ابن حاتوسيليس الثالث بعمل نقوش بارزة كبيرة على أسوار ، "بازيليكايا" بالقرب من بوغاز كوي . وقد ورد اسمه في تلك النقوش، وله بينها صورة تمثله بين ذراعي إله الحيثيين . وإبان حكم هذا الملك بدأت متاعب الحيثيين مع سكان ممتلكاتهم في الغرب . وتحدثنا الوثائق بأن ملك آهياوا، وواحدة من مواطنيها يسمى اتاريسياس، طردا أحد الملوك التابعين الملك الحيثي من ملكته بغربي آسيا الصغرى . و يذهب العلامة السويسري "فوزير" إلى مدى بعيد في الاستنباط فيقول : إن آهياوا

(١) على الرغم من عبارات الفخار التي زين بها رمسيس جدران معبده، فان الاعتقاد السائد هو أن النصير كان حليف ملك الحيثيين

هي بلاد "الآخيين" الذين تحدث عنهم هوميروس، وأن اتاريسياس ربما كان . آتريوس، والد و أجامنون . فالتواريخ متوافقة، ونحن نعرف أن القراصنة الموكينيين الإغريق كان لهم آنذاك نشاط كبير في غربي آسيا الصغرى، ومع أن هذا الاحتمال مثير، إلا أنه سيتى مجرد احتمال ما لم نعثر على الوثائق التي تؤكده، ولعل الصعوبة الكبرى هي أننا الانعرف حتى الآن ما إذا كانت مملكة آهياوا جزيرة من جزر البحر أم أنها كانت تقع في نفس آسيا الصغرى .

ويظهر في الوثائق الحيثية التي ترجع إلى تلك الفترة اسم آخر مألوف، هو اسم "ميتاس" ولعله ميداس – الملاك الفريجي الشهير (الذي كان يحول كل ما يلمسه إلى ذهب) – كان هو نفس ملك قبائل الموشق الذين عاشوا في القرن الثامن بعد طرد الحيثيين من الأناضول بزمن طويل . ولكن، كما يقول جورنيه، "يحتمل أن شعب الموشقى كان قد استقر في تلك المنطقة منذ زمن سابق، وأن " ميتاس " كان اسم الأسرة المالكة . وعلى أي حال فإننا نصل بهذا الشكل إلى نقطة تختلط فيها الأساطير الكلاسيكية بالحقائق الأثرية لدرجة لا يسعنا معها إلا أن نلجأ إلى التخمين و الظن .

ولم تكن جميع الوثائق الحديثة سجلات تاريخية أو نصوصاً دينية، إنما كانت بينها مجموعة قانونية تدل تفاصيلها على أن الحيثيين كانوا شعبا مزارعة أصيلا ونذكر من تلك القوانين :

إذا استعار إنسان ثوراً أو حصاناً أو بغلاً، أو حماراً، واستخدمه في العمل ثم ماتت الدابة أو افترسها ذئب، أو شردت منه، فعليه أن يدفع ثمنها كاملا أما إذا قال : لقد نفقت بأمر الله، فعليه أن يقسم اليمين على ذلك ....".

وإذا اقتحم خنزير جرناً من الأجران، أو حقلا، أو حديقة، وضربه صاحب الجرن، أو الحديقة حتى نفق، فعليه أن يرده إلى صاحبه وإلا أعتبر لصاً.

... وإذا سرق أحدهم خلية نحل فقد كان عقابه أن يدفع "مينا" [1] واحدة من الفضة، أما الآن فعليه أن يدفع خمسة "شاقلات" من الفضة. [2]

.. وذلك دليل على أن الحيثيين بدورهم كانوا يعانون من مشكلة التضخم المالي .

وكيف كان الحيثيون كشعب ؟ إن السبيل الوحيد للحكم عليهم في هذا المجال هو وثائقهم المكتوبة التي كشفت بعض الشيء عن طريقة تفكيرهم، ثم تماثيلهم التي تصور لنا ملامحهم . ويمكن القول – إجمالا – إنهم كانوا على مستوى حضاري لا بأس به إذا ما قورنوا بالحضارات المعاصرة لهم . وكانت قسوة المناخ في موطنهم الجبلي سببا في طابع الخشونة الذي لازمهم، فلم يكن لديهم واد خصيب ييسر لهم سبل الحياة كما كان الحال عند المصريين والسومريين، كما أصبحوا بسبب موقع بلاده الجغرافي عرضة للضغط المستمر من جيرانهم، فلم ينعموا أبدا كما نعم المصريون بفترات سلم طويلة لا يعكرها التهديد بغزو خارجي.

كان على الحيثيين إذا أرادوا الحياة أن يصبحوا شعبا محارباً، وتثبت الأسوار المتينة التي تحيط بمدنهم والتحصينات التي أقاموها على حدود بلادهم أنهم كانوا في حالة استعداد حربي دائم . أما الفنون والحضارة فيبدو أنهم استعاروها من حضارات أقدم اتصلوا بها، كما أن مصر وآشور كان لهما

---

(1) قطعة من النقود، كذلك .

(2) ترجمة ا.ر. جورنيه .R . Guerney

أثرهما في فن النحت عندهم . ولعلهم أخذوا الكتابة الهيروغليفية من مصر، و استعاروا الخط السارى البابلي لكتابة لغتهم.

وتشهد وثائقهم بأنهم كانوا – في التفصيل كالمصريين من حيث أتباع الأساليب الإنسانية في إدارة حروبهم وصياغة قوانينهم . وهم في هذين الميدانين أرق حضارة من الآشوريين، إذ لم يشاركوهم شهوة سفك الدماء والتعذيب، فإذا حاصروا مدينة معادية واستسلمت لهم فإنهم لا يعتدون على سكانها إذا دفعوا الجزية المقررة . وفي تلك الحالة يصبح حاكم المدينة تابعة للملك الحيثي ويحكم باسمه ويعاونه في حالة الحرب . أما إذا قاومت المدينة وأخذت عنوة جزاؤها التدمير و تحويل سكانها إلى عبيد، لكن مع ذلك لا يعذبون ولا يمثل بهم.

وتمشياً مع جميع أصحاب الحضارات القديمة فرق الحيثيون بين العبيد والأحرار وكانت قوانين الأحرار أكثر عدالة من تلك التي تطبق على العبيد، فللسيد أن يعاقب عبده كيفما يشاء، ومع ذلك فقد وردت العبارة التالية في إحدى نصوصهم الدينية :

"إذا وقع أي خادم في أي مأزق، فعليه أن يلتمس العون من سيده، وعلى السيد أن يستمع إلى شكواه (بنية حسنة) وأن يحل مشكلته . وإذا أخطأ خادم، واعترف بالخطأ لسيده، فمن حق السيد أن يعاقبه كيف يشاء . ولكن نظرا لأنه اعترف فلسوف تهدأ نفس السيد وان يؤاخذه بما فعل "

وتتضمن تعليمات الملك لقادة الحاميات، الأوامر الآتية :

" أيا كانت المدينة التي تنزلون بها، استدعوا جميع سكانها، وإذا كان

لفرد فيها قضية فانظروها واحكموا فيها بالعدل، وإذا كان لعبد أحد السادة أو الخادمة إحدى السيدات قضية فانظروها واحكموا فيها بالعدل".

"لا تميلوا مع الهوى فتغيروا وجه الحق، واحكموا بالعدل" وعند الفصل في مثل هذه القضايا كان مندوب الملك يتعاون مع السلطات المدنية ..

ومادام قائد كل حامية، وكل عمدة، وكل شيخ، يتحرى الحق في تصريف العدالة فإن أفراد الشعب سوف يعرضون عليهم قضاياهم [١]

وبالنسبة للأحرار كانت الجرائم الكبرى التي يحاكمون من أجلها هي الاغتصاب الجنسي، وتحدى الدولة، والجماع بالحيوانات، أما جرائم القتل، والسحر الأسود، والسرقة، والسطو الذي ينجم عنه موت، فتنتهي بدفع تعويضات مالية أو برد المسروقات لأصحابها.

كانت قوانين الزواج عندهم ذات طابع قبلي، فالأب هو الذي يزوج ابنته . وتم الخطوبة عندما يقدم العريس (هدية) لخطيبته المرتقبة، فإذا غيرت . هذه رأيها قبل إتمام الزواج فإنها تستطيع أن تفسخ العقد بينها وبين خطيبها بشرط أن يرد والدها (الهدية) التي تسلمها . وعند الزواج يقدم العريس هدية رمزية العائلة العروس، كما يقدم والدها مهرها . وكانت تقاليد الزواج الحيثية هذه تطابق التقاليد البابلية .

كانت مدن الحيثيين ذات الأسوار، كما كانت المدن الإغريقية في ظل الحضارة الموكينية، بمثابة قلاع دفاعية، يحتمي السكان خلف أسوارها في حالة هجوم الأعداء . وفي أيام السلم كان الأهالي يعيشون خارج أسوار

---

(١) Guerney – The Hittites. Penguin Book, London, 1954.

المدينة يزرعون حقولهم و بساتينهم ويرعون ماشيتهم . ويوجد في المدينة قصر الحاكم وعدد من المعابد، . كما توجد ثكنات الحامية العسكرية. وتحمل إحدى الوثائق الحيثية الأوامر الدائمة الموجهة لقائد قوات الحدود. كان عليه أن يعين حراسة للطرق، وأن يباشر عملية غلق أبواب المدينة ليلا، وأن يطمئن إلى سلامة التحصينات، وأن يرتب وصول الغذاء والماء وباقي المؤن. وقد أقيمت معظم حاميات الحدود في المناطق الجبلية في الشمال والجنوب الغربي في قبالة المناطق التي تسكنها القبائل الهمجية . أما في الجنوب والغرب حيث يواجه الحيثيون جيراناً متدينين، فكانوا يفضلون الاعتماد على المالك التابعة لهم لتقوم بدور " الدولة الحاجزة .

وكان الحيثيون في ميادين القتال أعداء مرهوبين، قادرين على تحريك قواتهم بسرعة، ماهرين في كشف قوات العدو بحيث تصبح تحت رحمة سلاحهم الفتاك الذي اشتهر في كافة أرجاء غربي آسيا، وهي العجلات الحربية . وكان مشاتهم يتسلحون بالبلط ويلبسون قمصاناً قصيرة كتلك التي تبدو في نقوش بوغاز كوى . ومع ذلك فإن النقوش المصرية التي تصور موقعة قادش، تمثلهم في أردية طويلة ذات أكمام – قصيرة، وقد تسلحوا بالحراب . ولعل هؤلاء كانوا من قوات الدول التابعة لهم الذين استعانوا بهم في حروبهم .

وتمثل الزراعة وتربية الماشية أهم مواردهم، كما كانوا يستخرجون النحاس، والحديد، من المناجم، ويصدرونها مع معادن أخرى للبلاد المجاورة مقابل الأقمشة – والمصنوعات . وفيما يلى ترجمة رسالة بعث بها الملك حتوسيليس الثالث إلى حاكم – من جيرانه، لعله ملك آشور :

" أما عن الحديد الجيد الذي كتبت لى عنه، فإنه غير موجود بمخازني في كيزوواتا. وهذا وقت غير ملائم لإنتاج الحديد (كما كتبت لك) . ونحن بسبيل إنتاج حديد جيد، ولكن العمل لم ينته بعد، وحين ينتهى الرجال من العمل فسوف أرسل . الحديد إليك، أما الآن فإني أبعث لك فيصل خنجر حديدي".

وقبل أن يستقر الحيثيون في آسيا الصغرى، كانت التجارة مزدهرة بين السكان الأصليين وبين الآشوريين . ومنذ زمن قريب وجد الأثريون في كلتيب التي تبعد نحو عشرين ميلا من قيصرية، بقايا محلة لتجار آشوريين . و تعتبر قصة الكشف عن مكان هذه المحلة وما أمدتنا به من معلومات، من أمتع قصص الآثار الحيثية : في عام ١٨٨٠ وجدت لدى تجار العاديات بأنقره لوحات عليها كتابات أكدية، وهي اللغة الشائعة في المعاملات التجارية. وفي عام ١٨٩٣ ثبت أن بعض هذه اللوحات قد جلب من بوغاز كوى (وهذا هو سبب ذهاب وينكلر إليها عام ١٩٠٦)، كما اتضح أن بعضها الآخر كان مصدره قرية صغيرة تسمى كولتيب تقع بالقرب من تقل معروف يسمى "قره هويوك" .

وفي عام ١٩٠٦ قام الأثري الفرنسي شانتر، بعمل بعض مجسات في التل فلم يجد شيئاً يذكر. ومع ذلك توالى وصول اللوحات من كولتيب إلى الأسواق . وقام ونكلير بعد ذلك بمحاولة أخرى دون جدوى، وأصبح من المشكوك فيه أن تكون كولتيب مصدر هذه اللوحات. ويعد الحرب العالمية الأولى قامت بعثة تشيكوسلوفاكية برياسة هر وزنى بمحاولة ثالثة، ويقص علينا ستون لويد بأسلوبه الطريف ما حدث بعد ذلك فيقول:

"حذا هروزني حذو من سبقوه فعمل مجساته الأولى في قمة التل الرئيسي، وقضى عدة أسابيع معتقدا أنه يكشف عن « قلعة حيثية، دون أن يعثر على أية لوحة. ولا شك أن القرويين في كولتيب يستحقون التقدير إذ لاذوا بالصمت المطبق للمرة الثالثة وهم يراقبون جماعة من الأجانب تقوم بالبحث وراء السراب، أقد ثبت لهم أن بيع تلك اللوحات يدر عليهم دخلا عظيمة، فلا معنى إذا للكشف عن مكانها، ولكن الحظ لم يكن حليفهم تلك المرة .

كان هروزني لغوية ضليعاً، يجيد التحدث بالتركية، وكان بين عماله اثنان من ضواحي قيصرية حيث طال التندر بما يجري في كولتيب.

واستطاع هروزني أن يصل إلى الحقيقة باستجواب هذين العاملين اللذين أرشداه إلى برج لا يبعد أكثر من مائة باردة على سفح التل الرئيسي، لكنه يحتجب وراء صف من الأشجار . ولاحظ هر وزني في الحال وجود آثار حفر أخرى ارتحاليا على نطاق واسع، ولم يحسن الذين قاموا به إخفاء معالمه.

ونقل هروزني عماله إلى تلك البقعة، فكشف بعد فترة قصيرة عن ألف لوحة، أما التل الرئيسي فكان في الواقع بقايا حصن أو مدينة مسورة أقامها سكان الأناضول الأصليون قبل أن يصبح الحيثيون أصحاب السلطة في البلاد، و بالقرب من المدينة مستعمرة أجنبية تجارية يسكنها تجار آشوريين يقيمون في آسيا الصغرى، اسمها "قايش" ووجد فيها هر وزنى و من جاء بعده من الأثريين، بقايا مساكن هؤلاء التجار الآشوريين، وبها أمتعتهم الشخصية ووثائق معاملاتهم التجارية، الأمر الذي يدل بوضوح على أنهم أكرهوا على مغادرة المكان على عجل.

وكانت عملية تأريخ هذه الوثائق سهلة، بعضها يحمل أسماء ملوك آشوريين معاصرين لها سبقوا بنحو عشرة قرون الملوك الآشوريين المشهورين الذين اكتشف لا يرد قصورهم والذين حكموا في القرنين السابع والثامن قبل الميلاد.

وأخيرا وبعد أن غادر هر وزنى كولتيب باثنين وعشرين عاما، جاءت إلى تلك البقعة في عام ١٩٤٨ بعثة تركية تحت إشراف تحسين و نعمت أوزجوك، وقامت بحفائر شاملة هناك، واستطاع الأثريان التركيان أن يحددا خمس فترات معمارية، تنتهي إلى كل منها مجموعة مستقلة من المباني، وتقع جميعها بين عام ٢٠٠٠ و عام ١٧٠٠ ق.م، وفضلا عن اكتشاف مساكن التجار ومحتوياتها التي وجدت سليمة، اكتشفت مخازن جديدة مليئة باللوحات . وكانا يخرجان في كل موسم نحو ألف لوحة جديدة .

وكتب لويد يقول :

"إن قراءة أية لوحة من هذه اللوحات لتشبه قراءة كتاب جديد لأي مؤلف معاصر من تعودنا قراءة كتبهم. فبعض جمل تكفي لخلق الجو الذي كانت شخصيات اللوحة تعيش فيه و تحملنا على الاهتمام، ولنضرب لذلك مثلا برسالة وصلت إلى تاجر من كانيش يسمى بوشوكين، أرسلها إلى آسور – إيميني، القائم بأعماله في موطنه وفيها يقول :

"وصلتني تعليماتك، وعرفت يوم وصول لوحاتك (أي المستندات) إلى "، ولقد أعطيت وكلاء ثلاث مينات من الفضة لشراء الرصاص، فإذا كنت مبنية على أخوتي فأرسل المال لي مع رسول ...."

"ويشعر المرء في الحال وكأنه مع هذا التاجر في الحجرة العليا بمنزله في الأناضول، وهو يفض غلاف الرسالة ويبتسم للإلحاح في طلب المال، بينما تدور في مخيلته صورة مراسله، ويستشعر حرارة العراق ".

ومن الواضح أن السلع كانت تنقل على ظهور الحمير، وكان هناك متعهدون للنقل مسئولون عن سلامة توصيل السلع المستوردة، كالأقمشة والمنسوجات الشهيرة التي تحمل أسماء مثيرة (لاجتذاب سيدات الأناضول دون شك)، وفي مقابل ذلك كان تجار آسيا الصغرى يصدرون الرصاص والحديد و حجر الكارنيليان ومعادن أخرى، وقد وجدت في اللوحات أسماء هؤلاء المتعهدين، كما وجدت قوائم بالمبالغ التي أنفقوها في عملياتهم .

تلك هي الصورة التي لدينا عن شعب عاش منذ ٣٠٠٠ سنة وكان ينازع مصر مكان الصدارة في العالم أجمع، ومع ذلك فمنذ ثمانين عاما فقط لم يكن هناك من يعرف شيئا على الإطلاق عن هؤلاء الناس، ولا عن مدنهم، باستثناء بعض إشارات عابرة جاءت في التوراة وفي النقوش المصرية والآشورية . ومنذ أقل من خمسين سنة كان هذا الشعب ما يزال صامتا . أما الآن فقد أصبحنا نعرف عن أفراده ولغتهم وعاداتهم و نظمهم الاجتماعية وقوانينهم وعقائدهم الدينية بقدر ما نعرف تقريبا عن جيرانهم من العراق . و معلوماتنا عنهم تزداد كل سنة مع الاكتشافات الجديدة .

إن الوصف الكامل لجميع المواقع الحيثية التي تم الكشف عنها خلال الأعوام الثلاثين الماضية، ليحتاج إلى عدد كبير من الكتب، و من أعظم وأهم تلك الاكتشافات ما قام به علماء الآثار الأتراك في " علاجا هويوك " التي تقع إلى الشمال الشرقي من بوغاز كوي، وتبعد عنها بنحو عشرين ميلا . كان

رحالة القرن التاسع عشر يعرفون ذلك المكان باسم (أيوك) ويصفونه بأنه تل كبير بقر به تمثالان حجريان كبيران لأبي الهول، أغلب الظن أنهما كانا يحرسان بوابة كبيرة . وأسفرت الحفريات العابرة التي أجريت في عام ١٨٦١ و ١٨٦٣ و ١٩٠٦ عن اكتشاف بعض مبان بالحجر وبعض جدران عليها نقوش بارزة دقيقة . وفي عام ١٩٣٠ وصلت إلى عالاجا أويوك بعثة تركية يرأسها كوساى وعريق، تستهدف التغلغل في بطن التل بحثا عن آثار أقدم من عمروا هذه المنطقة . وبعد أن قام العالمان بفحص وتسجيل الآثار الحيثية التي وجدت قرب سطح التل، حفرا بترا عميقة في التل، وكم كانت دهشتهما عظيمة حين وجدا على عمق عشرين قدما آثار مقابر ذات أثاث يرجع تاريخها إلى بداية العصر البرونزي (أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م) وكلها مجهزة بأخر الأثاث، وفي هذا يقول سيتون لويد:

"من الواضح أن هذه المقابر كانت خاصة بالكهنة أو بالأسرة المالكة، وقد دفن فيها أصحابها وفق طقوس خاصة وكدست من حولهم النذور القيمة والهدايا الثمينة تمشيا مع تقاليد العصر الذي كانوا يعيشون فيه، فمع النساء حليهن وأدوات الزينة الخاصة بهن، ومع الرجال حليهم الشخصية وأسلحتهم . وفي كل مقبرة أحيطت جثة المتوفي بتماثيل متقنة لقرص الشمس ورموز لبعض الحيوانات وأغلب الظن أن هذه وتلك كانت تحمل كالأعلام في المواكب الجنائزية . كذلك وجدت مجموعة ضخمة من الصور وأواني الشرب والأدوات اللازمة لإقامة الطقوس الدينية، صنع معظمها من الفضة والذهب بدقة متناهية ومهارة فائقة، لا تقل عما اشتهر به صناع أور السومريين من براعة في فن صناعة المعادن . "ووجدت كذلك أدوات أخرى مصنوعة من البرونز بعضها مطعم بمعادن ثمينة، كما وجدت نصال خناجر من الحديد ."

وبين عامي ١٩٣٥، ١٩٣٩ تم الكشف في علاجا هويوك عن ثلاث عشرة من هذه المقابر، تنتمي جميعها دون شك إلى الشعب الذي عاش قبل الحيثيين في الأناضول ثم هزمه الغزاة الهنديون / الأوربيون بعد ذلك بنحو خمسة قرون من الزمان . وعندما كانت الإمبراطورية الحيثية في أوج مجدها، وبينما كان موتا واليس يحارب رمسيس الثاني في قادش كانت هذه الجثث الملكية و الكهنوتية مستلقية في مقابرها الفخمة الأثاث منذ أكثر من ألف سنة (ونفهم من ذلك) أن الشعب الذي انتصر الحيثيون عليه كان شعبة متحضرة.

وأهم كشف حيثي تم في الأعوام الأخيرة، هو ذلك الذي حدث عام ١٩٤٧ في مدينة بكيليكيا . فقد اكتشفت مدينة كانت مفقودة حقا، قابعة في مكان بعيد خلاب المناظر . تقع كاراتيب في جنوب شرقي آسيا الصغرى، على بعد خمسين ميلا فقط إلى الشمال من ذلك الركن الذي يلتقي عنده شاطئ تركيا الجنوبي (الممتد من الشرق إلى الغرب) مع الشاطئ السوري (الممتد من الشمال إلى الجنوب)، وكانت هذه المنطقة تعرف قديمة باسم كيليكيا، وفي البقعة التي يبدأ عندها سهل كيليكيا الساحلي في الارتفاع نحو سفح جبال طوروس يوجد في بطن الجيل تجويف مليء بالأشجار، و يعرفه الأهالي باسم التل الأسود . وفي مثل هذا القفر تبقى الآثار مجهولة قرون عديدة، ولعل هذا المكان النائي قد ظل مهجوراً لا يزوره إلا القحامون من وقت لآخر .

ولا يكاد المرء يصدق أن ملكا من الملوك قد اختار هذا المكان مركزاً لحكمه ... في ذلك الزمن السحيق، وأن شعارات سلطانه ما تزال مدفونة في أطلال قصره تحت أشجار الصنوبر والأعشاب الشائكة، ولكن ذلك هو

الواقع، وليس من شك في أن الكشف عنه قد رد إليه بعض كرامته، لقد وجد المنقبون أمامهم عبارات صيغت بدقة وعناية ودونت بلغتين، كما وجدوا صورة خشنة الأداء تمثل العالم الذي كان يعيش فيه . وبين الأروقة المتهدمة وما بها من صور حجرية صغيرة، وجدت صور لأفراد شعبه، فإذا هم أناس لا يمتون للرشاقة بشيء، هم جباه منبطحة إلى الوراء وذقون باهتة المعالم، كأبناء الشعوب التي عبرت مساحات شاسعة من الأناضول في ذلك الوقت، يراه الرائي وكأنهم توقفوا عن أعمالهم وجعلوا يتبادلون نظرات الاستغراب والدهشة ليد القدر التي امتدت إليهم فأزاحت عنهم أستار الظلام والهدوء التي رقدوا في طياتها زمنا طويلا ".

هذا ما كتبه سيتون لورد في كتابه الشيق دير الأناضول، وقد تم هذا الكشف.. في خريف عام ١٩٤٥ على يد جماعة من علماء الآثار الأتراك برياسة هات بوسيرت وهم كاميل . وقد أرشدهم إلى الموقع مدرس تركي، كان هاوية متحمسا للآثار، وأخبرهم أنهم يستطيعون الوصول إليه في خمس ساعات على ظهور الجياد من سوق مدينة قادر لي . وقام الأثريون بزيارة استكشافية فوجدوا بين ما عثروا عليه تمثالا آدمية منكفئا على وجهه، وتماثيل أسود، و تمثالا آدمية آخر و بعض قطع من نقوش بارزة . أما باقي الآثار فكانت مدفونة تحت الأعشاب، ثم عادوا بعد عامين حيث قاموا ببحث شامل . وأثار ما كشفوا عنه اهتماما بالغا بين علماء الآثار الحيثية، ذلك أنهم عثروا هناك أخيرة على المفتاح الذي طال البحث عنه لحل الخط الهيروغليفي الحيثي، وهو نص واحد بلغتين . كانت بقايا المدينة ترجع لحوالي عام ١٨٠٠ق.م أي بعد نهاية الإمبراطورية الحيثية بكثير . ووجدت على قمة الجبل بقايا جدران دفاعية مقامة على شكل متعدد الأضلاع بها ثمانية

وعشرون برج مستطيل الشكل وبوابتان، واحدة في أعلى البرج والأخرى في أسفله . وعندما دخل الأثريون إحدى الحجرات وجدوا فيها ألواحة تحمل كتابات على وجهها، الهيروغليفية الحيثية على وجه والفينيقية على الوجه الآخر، وبالإضافة إلى ذلك وجدوا نقشا خشن الأداء يعرض مناظر متعددة منها موقعة بحرية، وجوقة موسيقية، و ألعاب رياضية. وطقوس دينية. و مناظر عادية للحياة المنزلية. وإذا كان المستوى الفني لهذه الأعمال يقل كثيرا عما وصل إليه فن النحت الحيثي في فترة ازدهاره، إلا أن قيمتها من الناحية الأثرية عظيمة جداً .

ولاشك أن أهم ما اكتشف كان تلك النقوش المدونة بلغتين. وإذا كان اللغويون قد توصلوا قبل ذلك إلى أسس قواعد اللغة بحيث أصبح في وسعهم أن يفهموا المعنى العام للنقوش . فقد أصبح في مقدورهم الآن فهم معنى كل كلمة على حدة، وهو أمر تستحيل بدونه أية ترجمة كاملة للنص. وكان من جراء ذلك الاكتشاف أن النقوش الهيروغليفية الحيثية بآسيا الصغرى . والمتناثرة في متاحف العالم، بدأت تتكلم . ولا شك أن علماء اللغة الذين اضطروا طيلة خمسين عاما إلى الاكتفاء بنقش "بوص تاركوندموس" ذى الحروف التسعة لاشك أنهم ابتسموا ساخرين من أنفسهم حين عرفوا أنه طوال تلك الأعوام كان هناك نقش كامل باللغتين يرقد فوق – قل بعيد في كيليكيا دون أن يتنبه إليه أحد.

كان الملك يسمى راسيتاود، وهو اسم أناضولي (وليس فينيقية كما كان الاعتقاد أول الأمر) و تتحدث النقوش عن بناء الحصن الذي أسماء الملك باسمه . كما تمدنا معلومات هامة. وهي أن الملك كان أيضا حاكم أل "دانونا". وليس من شك في أن هؤلاء هم الدنانيون. أبناء القبيلة التي جاء

ذكرها على جدران معبد رمسيس الثالث كعضو في حلف وأبناء البحار، الذين قاتلهم المصريون وانتصروا عليهم في القرن الثاني عشر ق.م فلعلهم أيضا الدانيون الذين حدثنا عنهم "هوميروس".

ونذكر هنا أن البحث الأثري عن الحيثيين قد بدأ في الأراضي المنخفضة بسوريا اكتشاف الكتابة الهيروغليفية في حلب وحماه. و صل البحث بالأثريين إلى آسيا الصغرى وبوغاز كوى، المدينة التي حكم فيها الحيثيون إمبراطورية كانت تمتد جنوبا إلى داخل سوريا. وعند اكتشاف اللوحة ذات اللغتين في كاراتيب تمت الدائرة وأصبح في وسعنا أخيرة أن تزيد معلوماتنا عن ، الحيثيين الجدد، أو بمعنى آخر عن حيثي سوريا الجدد الذين كان العبرانيون يعرفونهم وتردد ذكرهم في : العهد القديم.

وثمة سؤال: هل كان العبرانيون يعرفون الحيثيين الجبليين الذين يقطنون الأناضول ؟. إن في ذلك شكا . فعندما تزوج الملك داود من أرملة أوريا الجيش حوالي عام ... اق.م كان الحيثيون قد طردوا منذ أمد بعيد من جبالهم على يد الغزاة . والتكهن في هذا الموضوع ليس بأمر سهل . ويبدو أن الإمبراطورية الحيثية تفككت في أواخر القرن الثالث عشر ق.م إثر غزو كاسح من الخارج صحبته ثورات اشتعلت في الدول التابعة لهم . ونحن نعرف أنه إبان حكم أرنو انداس، الثالث أثار شعب الاهيباوا (ولعلهم الآخيون الذين تحدث عنهم هو ميروس) الاضطرابات في ولاية أرزاوا التي كانت تدين بالولاء لحيثيين . وقام مدوواتس (يلاحظ الشبه بين اسمه واسم ملوك ليديا ألياتس وساديا تس) لمساعدة ملك الاهيباوا (ويسمى بالحيثية أتاريسياس . وقد يكون اسمه بالإغريقية أتريوس). وسيطر الاثنان على بلاد أرزاوا . كذلك وردت إشارة في النقوش إلى دميتاس الذي بدأ يشاغب في الولايات الشرقية

التي كانت تحت لواء الحيثيين).

ونجد في نقوش معبد رمسيس الثالث ما يشير إلى فترة من الاضطرابات نزحت خلالها أسراب ضخمة من الشعوب كانوا يصحبون نساءهم وعرباتهم المحملة بالأمتعة واتجهوا على ساحل فلسطين نحو الجنوب حيث هددوا مصر. وكان ضمن تلك الشعوب الا كا يواشا، والدانونا، و«شعوب البحر». وتذكر النقوش أن «الجزر، كانت في حالة صخب بالغ. ووصل بعض هؤلاء الغزاة إلى مصر، وأخيرآ هزمهم فرعون في سلسلة من المواقع البرية والبحرية. وقد وقعت تلك الأحداث حول أواخر القرن الثالث عشر ق .م. وهي تقن من الناحية التاريخية بحركات مماثلة انتشرت على نطاق واسع . و قرابة ذلك الوقت استقر الفلسطينيون على ساحل فلسطين بينها كان الإغريق يشيدون مستعمراتهم في آسيا الصغرى وفي غيرها من البلدان. ويعتقد المؤرخون أن الحيثيين طردوا من آسيا الصغرى في نفس العهد. إذ تنتهي هنا قوائم أسماء الملوك في بوغاز كوى . وإذا رجعنا الأساطير هوميروس . وجدنا أن شعب فريجا أصبح صاحب القوة المسيطرة في الأناضول حينذاك.

لكن الحيثيين استمروا يعيشون في سوريا أكثر من خمسمائة عام بعد ذلك التاريخ. و تتحدث النصوص الآشورية التي ترجع إلى القرن الثامن ق.م عن بلاد "حتى" وأسماء ملوك حيثيين. وفي كل من كتاب الملوك والأيام بالعهد القديم ورد ذكر متاع الحيثيين باعتباره حاكما على سوريا وليس على آسيا الصغرى. ومن ناحية أخرى كتب جورنيه يقول:

"تختلف لغة هؤلاء الحيثيين الجدد وديانتهم عن لغة وديانة الحيثيين في حاتوساس (أي بوغاز كوى)، كذلك عن لغة وديانة الشعب الذي كان يقطن

سوريا إبان حكم الإمبراطورية الحيثية (أي الشعب الحوري) ويبدو أن سوريا كانت مسرحا لغزو آخر جاءها من إحدى الولايات الحيثية التي تحضرت بالحضارة الحيثية".

ومن الواضح أن هؤلاء هم الحيثيون الذين ذكرهم كتاب "الملوك والأيام"، لكن ذلك لا يزيل الغموض، فمن هم "أولاد حيث" الذين اشترى منهم سيدنا إبراهيم كهف مكبيلة ؟ ويبدو أن إبراهيم عليه السلام عاش حوالي عام ١٧٠٠ق.م، قبل أن يدخل الحيثيون سوريا بزمن طويل، كما أنه لا توجد أية قرينة تدل على أن إمبراطوريتهم امتدت جنوباً حتى فلسطين.

ثم هناك إشارة في بداية الباب الخامس من "كتاب الأعداد" تصف رحلة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ولا يمكن أن يرجع هذا التاريخ إلى ما بعد ١٢٥٠ق.م، ومع ذلك فالكتاب يقول بوضوح إن : " العالقة بالغون في أرض الجنوب، والحيثيون واليابوسيون . والآموريون ساكنون في الجبل ٠٠٠٠ (أي جبال يهوذا). وقد عرض الأستاذ جورنيه تفسيراً يدل على حذق إذ قال : وفي عام ١٣٣٠ ق.م جاء من مدينة كوروستاما (بآسيا الصغرى) إلى فلسطين عدد من الحيثيين واستقروا فيها،. وهو يستند إلى وثيقة تصف لنا كيف أن إله الجو الحيثي جاء برجال كوروستاما إلى أرض مصر...إذ جاء فيها: وأرسل أبي المشاة والعربات وغزوا (حدود مصر وأرض ألامكا)[1]".. و أرض ألامكا هذه هي نفس وادي البقاع، بلبنان وقد كانت فعلا حدود الأراضي المصرية إذ كان هذا الجزء من فلسطين ولاية مصرية . ولكن من المستبعد أن قبيلة من ولاية في شمال غربي آسيا الصغرى تستطيع التغلغل

([1]) ما بداخل القوس بقلم المؤلف

جنوبا إلى ذلك المدى . وإذا كان هذا قد حدث فعلا فهو أمر يفسر وجود الحيثيين في جبال يهوذا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقت أن دخل الإسرائيليون أرضا ينساب فيها اللبن والعسل .

إن الدراسة التي بدأت باكتشاف نقوش حماه وحلب لم تنته بعد. و لقد يساعدنا حل رموز الخط الهيروغليفي الذي استعمله الحيثيون الجدد على مزيد من التقدم في هذه الدراسة . ولقد استطعنا بعد حل تلك الرموز أن نكشف عن فترة بائدة الشعب كاد يطويه النسيان . ولعلنا نقف بعد ذلك على مزيد من تلك المدن لا في آسيا الصغرى فسب، بل وفي سوريا أيضا حيث كانت بعض مظاهر الحضارة الحيثية ما تزال قائمة أيام كان الملك داود يحكم أورشليم .

.

.

الفصل السابع

١٩٨٤ ق . م

في قارة الهند وباكستان الشاسعة أطلال مدن كانت لها عظمتها في الماضي، ولكن معظم تلك المدن قد شيد في العصور التاريخية بعد قيام مدن مصر والعراق بزمن طويل . والواقع أنا إلى زمن قريب نسبياً لم نكن نمتلك أدلة قاطعة على وجود أية حضارة قديمة قدم حضارة مصر و سومر في أية بقعة من بقاع الأرض، باستثناء الصين.

ومع ذلك فقد كان للهند تراثها القديم، شأنها في ذلك شأن بلاد الإغريق القديمة . ويرجع المؤرخون الهندوكيون تاريخ الهند إلى ٣٠٠٠ سنة قبل ظهور المسيحية، ولكننا نفتقر إلى الأدلة الأثرية التي تثبت ذلك، غير أننا نعرف – على أية حال – أن الآريين هم أول من غزا الهند، إذ جاءها من الشمال الغربي وأقاموا مدة على السفوح الجنوبية لجبال الهمالايا قبل أن يكتسحوا وادي نهر الجانج الفسيح ويطر دوا الدرافيديين – سكان البلاد الأصليين – إلى جنوبى القارة . وأغلب معلوماتنا عن هؤلاء مستقاة من إلى "ريج فيدا" Rig Veda، وهي مجموعة من الأناشيد الدينية التي تتحدث عن قدم نشأتهم . والدرافيديون شعب متحضر له تقاليد دينية راسخة ومعقدة وإلمام بألوان مختلفة من الفنون. كان أفراده يعبدون آلهة عديدة مازالت تقدس حتى أيامنا هذه، وقليل منا من لم يسمع، ولو بطريقة عابرة، ببعض تلك الآلهة و منها الإله "اندرا" و "فشنو" و "شيفا" وزوجته "بارفاتي" ... الخ.

وإلى ثلاثين عاماً مضت أو أكثر بقليل، كانت كل هذه مجرد معلومات

توارثها الناس عن لاهوت وأساطير الهندوكيين . ومن الواضح أن الحضارة الهندوكية قديمة، و لكن ما عمرها؟. وبينما وجدت في كل من مصر والعراق مدن، وآثار، ومقابر، أمكن الاستدلال بها وبمحتوياتها على تاريخها بصفة قاطعة، لم توجد في الهند مدن ترجع إلى ما قبل عام ٥٠٠ ق.م. وفي عام ١٩٢٢ كتب سيرجون مارشال عن آثار الهند فقال:

قبل قيام إمبراطورية "الموريين" كانت في الهند حضارة مزدهرة دامت ألف سنة على أقل تقدير، ومع ذلك لم يتبق من كل الصروح التي شيدت في تلك الأجيال نموذج واحد، باستثناء جدران "راجاجريها الهائلة" ..

وقد بدأ عهد أسرة موريا عام ٣٢١ ق، م. بينما يرجع قيام راجاجريها إلى القرن السادس ق.م.

ومع ذلك فقيل أن تنشر هذه المعلومات بعام واحد، كان رأي باجادور دايا ساهني، وهو أحد العاملين مع سير جون، قد جعلها معلومات قديمة من الناحية التاريخية، إذ بينما كان يقوم بعملية تنقيب تجريبية في أطلال مدينة هارابا Harrapa بإقليم البنجاب حيث اكتشفت أختام حجرية تحمل نقوشة لحيوانات و خطا هيروغليفية غريبا لم تحل رموزه بعد، وأثبتت أعمال التنقيب التي قام بها أن أطلال هارابا تخفي تحتها دون شك أطلال مدينة أقدم، كان يقطنها شعب عاش في العصر ال (كالكوليتيكى) Chalcolithic period ويطلق الأثريون هذه التسمية على الفترة الانتقالية التي تقع بين العصر الحجري الجديد (فيوليتيك) (و العصري البرونزى) وقد بدأت حضارة العصر الكالكوليتيكى حوالي عام ٢٥٠٠ ق م في آسيا الصغرى. وقبل ذلك التاريخ بقليل في العراق. ولكن ذلك لا يعني أن شعب وادي الأندوس وصل

إلى نفس المستوى الحضاري في نفس الزمن.

ويقول السير مورتيمر ويلر في كتابه The Indus Age :

لم يكن من المستطاع أن نستنتج ما عثرنا عليه التسلسل التاريخي لتلك الحضارة ولكن كان من الواضح أن حضارة مدينة أخرى قد تم التعرف عليها، وأنها أقدم بدرجة واضحة من حضارة إمبراطورية موديا، بل وراجاجريها أيضاً . وفي عام ١٩٢٢ قام ر.د. بانرجى، وهو موظف آخر من زملاء سير جون، باكتشاف آثار مائلة تحت برج معبد بوذي يتوج بمجموعة كبيرة من التلال تعرف باسم (موهنجودارو) Mohenjo - Daro ونظن أنها تعني (تل الموت) وهي تقع على بعد ٤٠٠ ميل في لا كارنا مقاطعة السند . وخلال بضعة أسابيع من نشر الخبر، بدا واضحا أن بابا جديدا سيضاف إلى ما تعرفه عن عصر ما قبل التاريخ في الهند، وإلى ما تم تسجيله من حضارات قديمة .

وخلال الثلاثين عاما الماضية، بينما كان "اكتشاف" سمير مورتيمر "الجديد" في بدايته، استقر الرأي على أنه كان في تلك الناحية من الهند حضارة تعود إلى ما قبل التاريخ، وتكاد تكون من عمر حضارة سومر . وهكذا تقهقرت حدود ما قبل التاريخ بأكثر من ألفي عام بالنسبة للهند.

وقبل أن نصف المدينتين الرئيسيتين اللتين تم الكشف عنهما والمساحة الشاسعة التي كانت تحت سيطرتهما، يجدر بنا أن نقول شيئا عن أقدم أدب ديني عرفته الهند وهو أناشيد الفيدا . يوجد من هذه حوالي ألف نشيد موجهة إلى مجموعة كبيرة من الآلهة الهندية، وهي تشيد بأعمال الآلهة وتضرع إليها كي تتقبل قرابين عابديها . والأناشيد مكتوبة بالسانسكريتية، وهي اللغة التي كتب بها الأدب الهندي القديم، و تعتبر نوعا من مجموعة اللغات الهندية

الأوربية التي تفرعت منها اللغة الإنجليزية . ولعل في بعض هذه الأناشيد إشارة إلى العصور التي سبقت غزو الآريين للهند، ولو أننا لا نستطيع الجزم بذلك، لكن كثيرة من تلك الأناشيد يرجع إلى أيام ساد فيها الصدام والصراع (أيام كان الغزاة يزحفون من الشمال نحو الأراضي التي أطلقوا اسمهم عليها، وهي الفترة التي استجار فيها الهنود بأكبر آلهتهم – ويسمي إندرا – ليعاونهم في القتال، كان إندرا حاكم السماء المنير، وهو مثل دزيوس، عند الإغريق، يعتبر ملك الآلهة جميع . ويتحدث آلهة الحرب . شعر الفيدا عن قيامه بأعمال عظيمة لصالح البشر مع احتفاظه بأوصاف آلهة الحرب.

وفي بعض الأناشيد يمثل إدرار "بورا مدارا" أي مدير الحصون، فهو يقوم وتدمير تسعين حصناً، وذلك لمعاونة "ديفامداس" وهو أحد أتباعه . ويبدو أن تلك الحصون كانت مجرد مدن ذات أسوار، إذ أن كلمة " بور " معناها "سور" أو حصن، وبعض الأسوار كانت مبنية بالحجر (Asmamayi) والبعض الآخر باللبن من كلمة (Ama) (ومعناها النييء) . كذلك يدمر الإله مائة قصر قديم، و يتلف الحصون كما يتلف الزمن الملابس [1].

وحتى زمن قريب كان المعتقد أن هذه الحصون لا وجود لها إلا في الأساطير أو، كما اقترح كل من ماك دوفل وكيث أنها كانت مجرد أماكن يلجأ إليها عند هجوم الأعداء، وليست سوى أسوار من طين بجنف زودت بمزلقانات وخنادق، ولكن ثبت أن الأحداث التي جاءت في الدرج فيدا، لها أساس تاريخى، شأنها في ذلك شأن القصص التي جاءت من هوميروس، وكان المعتقد أنها مجرد أساطير.

---

(1) Wheeler, Sir Mortimer. – The Indus Age.

وفي الواقع نستطيع أن نثبت الآن أنه عندما دخل الآريون في الهند كان عليهم أن يواجهوا شعبة ذا حضارة متقدمة، أقام في وادي الأندوس ألف سنة على أقل تقدير، قبل غزو أراضيه، ولم يكن شعب همجية غير مصقول.

وقد وجد الدليل على ذلك بين الآثار التي استخرجت من حفائر المدينتين، وتسمى إحداهما هارابا – وقد سبقت الإشارة إليها، وهي مدينة صغيرة تقع في مقاطعة مونتجومري في البنجاب . أما المدينة الأخرى واسمها موهنجودارو، فتقع على بعد ٣٥٠ ميلا في اتجاه الجنوب الغربي. وموهنجودارو على ضفاف نهر الأندوس، أما هارابا فكانت مقامة على ضفاف نهر د رافي، وهو أحد روافد الأندوس. وفيما وراء هاتين المدينتين وبينهما – وكلاهما تمتد بطول ثلاثة أميال – استطاع المنقبون أن يتعرفوا على ستين مستعمرة، أصغر مساحة، في سهل الأندوس، وعلى عدد أكبر من التلال الممتدة غربا، وتشير جميعها إلى نفس الحضارة، ولو أن وجه الشبه أقرب بين مستعمرات الوادي . وبمجموع المساحة الآهلة بالسكان يزيد على ألف ميل، تمتد من بوريار عند سفح تلال سملا إلى سوتكا جندور، التي تقع بالقرب من شواطئ بحر العرب، و تلك المساحة أكبر من مجموع مساحة أرض مصر أوسومر، بل إنها في الواقع تعادل ضعفها.

إن أي مسافر من كاراتشي عبر صحراء السند بالسيارة لا يجد في تلك المنطقة أثرا لجمال الطبيعة، حيث يسرح نهر السند. ببطء عبر السهل، يمتد على طول ضفتيه شريط من الأرض المنزرعة عريض، و تتناثر هنا وهناك بقع من الأرض استخلصها الإنسان من الصحراء وزرعها بالري الصناعي، وباستثناء ذلك لا تصادف العين ما يريحها من منظر الصحراء الرتيب ذي اللون الداكن حيث لا تنبت سوى شجيرات كثة تصطلي خلال الصيف الطويل بشمس لا

ترحم . وفي الأيام التي لا تهب فيها الرياح، تتراقص أمواج القيظ فوق شجر العبل، فإذا ما عصفت أثارت الرمال التي تلهب العيون، و بينما تمتص الشمس آخر قطرات أمطار الشتاء، يطفو على سطح الأرض زبد من الملح كأنه (صورة ساخرة من الجليد) وتمز العربات التي تجرها الثيران وهي تتحرك ببطء على الطريق المترب لتربط بين القرى التي برز من روضها أبراج المعابد البوذية فتشق صفحة السماء . وكما هو الحال في بابل يصعب على المسافر أن يصدق أن تلك الأراضي القاحلة استطاعت أن تقيم أود شعب كبير .

وإذ يمضى المسافر على النهر متجهة نحو الشمال، فإنه يرى تلال بالوخستان تمتد بعيدا على يساره . وعلى امتداد ٣٠٠ ميل من كاراتشي يصب في نهر الاندوس أحد الروافد، فإذا تتبعه لمسافة ١٠٠ ميل أخرى التي بنهر آخر، وهو نهر رافي، الذي ينساب من الشرق ويصب فيه . وعلى بعد ٥٠ ميلا أخرى تقوم على ضفة النهر المعنى قرية هارابا الكبيرة التي تغطي جزء من مجموعة تلال داكنة اللون في تلك البقعة . قام ساهني بحفرياته عام ١٩٢٢ و اكتشف ما يثبت أن ثمة حضارة قد قامت قبل أن يدخل الآريون وادى الأندلوس بألف عام. وقد أسدينا القرية هاربان اشتقاقا من اسم المنطقة التي اكتشفت بها (هارابا).

وهارابا من المناطق التي يصعب التنقيب فيها فضلا عن أن الحفر فيها غير مجد إلى حد يذكر، ذلك لأن القرية الحديثة تحتل جزءا من التل، ثم هي فن خربت عندما سطا عليها اللصوص في القرن التاسع عشر يسرقون أحجار البناء كى استعملوها في دك خط السكة الحديدية بين لاهور و مولتان . وعلى الرغم من ذلك استطاع المنقبون بعد دراسة ما تبقى من آثار، أن يثبتوا

أن المدينة كانت تمتد مسافة لا تقل عن ثلاثة أميال، و أن أوضح معالمها حصن متين الجدران يقوم في غربها (و مدينة سفلى) في ناحية الشرق والجنوب الشرقي. أما الحصن فعبارة عن مستطيل طوله ٤٦٠ ياردة و عرضه ٢١٥، يحيط به سور ضخم للدفاع عن المدينة، وهو مبني بقوالب اللبن عرضه خمسة وأربعون قدما، و عليه إفريز من الطوب الأحمر عرضه أربعة أقدام، وعلى مسافات بالسور تبرز أبراج لدعم قوته الدفاعية، كما توجد بهاء مكشوفة يمكن الوصول إليها من بوابات خاصة، والإشراف عليها من غرف الحراسة. ويقوم الحصن على مصطبة من الطوب الأحمر مرتفعة عن السهل، كان الوصول إليها يتم غالباً عن طريق مدرج. أما المباني التي كانت داخل هذه الجدران الدفاعية فقد تلفت لدرجة استحال معها التعرف عليها، وعندما بدأ الأثريون في خص التلال التي في شمال الحصن كانوا أوفر حظة إذ كشفوا بالقرب من مجرى النهر القديم (ابتعد النهر عن مجراه الأصلي نحو ستة أميال عن ثلاث مجموعات هامة من المباني.

ففي ناحية الجنوب، وإلى جوار الحصن مباشرة، يوجد صفان من مساكن أشبه ما تكون بثكنات الجيش، وفي ناحية الشمال توجد بقايا لخمسة صفوف من الرحى المستديرة، ووراء هذه صفان من الصوامع على مصطبة مدعمة بجدار يرتكز عليه . وتدل المجموعة كلها على أنها أقيمت وفق تخطيط مدروس، ورغم أن الطرق التي استعملها المنقبون لا تساعد على الوصول إلى دراسة طبقات الأرض دراسة وافية إلا أن المظهر العام يدل على أن كل ما اكتشف يرجع لتاريخ واحد[1].

---

(1) **Wheeler, Sir Mortimer. — The Indus Age.**

كان الصفان الشبيهان بالثكنات غير كاملين، ولكن ما تبقى منهما يدل على أن كل مجموعة سكنية كانت تتألف من حجر تين مرصوفتين رصفة جزئية بقوالب اللبن ويحدهما من الأمام ومن الخلف طرقات ضيقة ويحيط بها جميع سور . و يقولو يلر: من الواضح أن الفكرة الأصلية في بناء تلك المجموعة هي أن تكون ذات شكل موحد وكانت في الواقع جزءا من مخطط حكومي، وفي البقعة التي تقوم بها هذه المجموعات العالية المتواضعة وجد على مستوى مرتفع عن الأرض ستة عشر فرناً .. لم يمكن تحديد الغرض من استعمالها، ولكن وجد بالقرب منها بوتقة لصهر البرونز.

أما الرحى السبع عشرة فكانت دون شك لطحن الحبوب، وقد وجد فوق إحداها هاون خشبي، وحول فتحتها الوسطى – حيث يرتكز الهاون – وجدت بقايا قش و قشور حبوب . كذلك وجد قمح وشعير مدروس فوق رحى أخرى. ومن الواضح أن العمال كانوا يقومون بصحن الغلال كل منهم في هاون على تلك الرحى المرتبة في صفوف منتظمة، بينما تشرف عليهم جدران الحصن الخاصة، ويوجد حاليا في كاشمير نظام مائل لهذا، ولكن المعنى الكئيب الذي توحي به رحى هارابا يدل على تطبيق نظام السخرة في ذاك الوقت.

وعلى بعد حوالي مائة باردة شمالي هذه الرحى توجد مجموعة من الصوامع مساحة كل منها ألف قدم مربعة، وهي الأخرى مرتبة في صفوف منظمة تفصلها مرات. وأرض كل صومعة ترتفع عن الأرض التي تقوم عليها بوساطة حائط منخفض ليتيح مرور الهواء خلال كرات صغيرة بارزة . وتبلغ مساحة مجموعة الصوامع زيادة على ٩٠٠٠ قدم مربعة .

وبعد فترة من الزمن بدأ الأثريون ينقبون في التلال الكبيرة في

موهنجودارو التي تقع على بعد خمسمائة ميل تقريبا جنوبي غرب ولاية السند . وكان في تلك المنطقة عدد قليل من المباني الحديثة باستثناء برج المعبد بوذى واحد يرتفع فوق أعلى تل.

وبعد رفع آلاف الأطنان من الأتربة وأنقاض المباني، ظهرت في وضح النهار أرض مرصوفة، وجدران مرتفعة متينة تثير الخيال. واتضح للأثر بين في جميع أنحاء العالم أن هذا الاكتشاف يعتبر مرحلة جديدة في بحوث ما قبل التاريخ، وأن أمامهم طريق جديد يؤدي إلى ماضي البشر البعيد. فهذه المدينة العظمى التي اكتشفت تكاد تكون من عمر الأهرامات، وأور الكلدانية، هذا إن لم تكن من عمرهما فعلا. ويمكن القول بهذه المناسبة إننا لم نعن ننظر إلى النيل ودجلة والفرات بوصفها وحدها مهدا لأقدم حضارات (نهرية) في العالم، إذ أصبح من حق نهر الاندوس أن يتخذ مكانه بجانبهم

واتضح بسرعة أن "موهنجودارو" تنتمي لنفس الحضارة التي أثمرت هارابا وكما هو الحال في تلك المدينة تتكون موهنجودارو من جزئين رئيسيين – قلعة كبيرة شرقاً ومدينة سفلى غرباً. أما القلعة فتقوم على مصطبة من قوالب اللين و الطين وترتكز على تل صناعي. وفي الركن الجنوبي الشرقي وجدت بها بقايا أبراج خصص اثنان منها لحراسة بوابة خاصة قاموا بسدها عندما اتسمت المدينة وأقاموا مكانها مصطبة تهدمت. ووجد المنقبون بين الأنقاض حوالي مائة قطعة من الحجارة المحروقة تزن الواحدة منها نحو ست أوقيات وكانت تستخدم كقذائف .

ووجد المنقبون في فناء القلعة حماما كبيرة أو مغطساً طوله ٣٩ قدماً وعرضه ٢٣ قدماً وعمقه ثمانية أقدام، ويحيط به ممر ضيق تفصله عن الفناء

صفوف من الأعمدة المنية بالطوب الأحمر .كما وجدوا درجا نزل إلى المغطس، ولكيلا تتسرب المياه من هذا المغطس كسيت أرضيته وجوانبه بقوالب من الطوب الأحمر المثبتة بمونة من الجبس، وكان تصريف المياه يتم عن طريق بالوعة متصلة بمصرف له سقف مقبى ينساب حول الجزء الغربي من تل القلعة وألحقت بالحمام حجرات إضافية تشتمل واحدة منها على بئر تزود الحمام بالماء . ووجد كذلك درج لعله كان يوصل إلى طابق أعلى أو إلى السطح.

وإلى الشمال من هذا الحمام الكبير وجدت مجموعات من الحجرات، بكل مجموعة منها ثماني حمامات صغيرة متينة البناء، أرضها مكسوة بالطوب الأحمر وبها بالوعات متصلة بالمصرف، وبكل حجرة سلم صغير من الطوب الأحمر يؤدي في الغالب إلى طابق أعلى.

وفي الجهة الغربية اكتشف بناء يفوق الحمام الكبير أهمية، فقد كان السيد .. ما كاى هو أول من تنبه لوجود هذا البناء في الثلاثينات، فقد نفت نظره كتل صلدة من الطوب الأحمر يبلغ ارتفاع الواحدة منها حوالي خمسة أقدام، وتفصل بينها ممرات ضيق . واعتقد ماك كاي أنها قد تكون بقايا حمام بخار، ولكن بعد أن كشف ويلر عام ١٩٥٠ عن المبنى كله عرفت حقيقته : كان عبارة عن طابق سفلى الصومعة هائلة طولها ١٥٠ قدماً وعرضها ٧٥ قدماً، وقد شيدت باللبن كبقية المدينة و عندما ظهرت المباني تماما اتضح أن ارتفاع بعض الجدران يصل إلى أكثر من عشرين قدماً . كانت الجدران الخارجية منحدرة مما جعل المبني يبدو كالحصن الحصين . وفي طرفه الشمالي وجدت مصطبة من الطوب الأحمر جوانبها منحدرة كذلك باستثناء جزء واحد كان قائما لتسهيل عملية رفع البالات من أسفل.

أما شبكة القوائم التي ترتكز عليها الجدران فكان الغرض منها مرور الهواء إذ وجدت مساقط للهواء في الجدران الخارجية، وأما الصومعة ذاتها التي لم يتبق منها إلا المصطبة فمصنوعة من الخشب . والمساحة الشاملة تعادل تقريبا بمجموعة الصوامع التي أكتشفت في هارابا.

وإلى الشمال الشرقي من الحمام الكبير، كان يوجد مبنى كبير متين، يشتمل على فناء مكشوف واسع، وعدد من الغرف الصغيرة التي تشبه الثكنات، وقد كسيه أرضية بعضها بالطوب الأحمر بعناية وبنى بها درج، واتجه الرأي إلى أن المبنى كان بمثابة بمجمع للكهنة ولكن هذا الرأي لم يتأيد بعد أما المباني التي تقع أسفل برج بودهست ودير الرهبان، فلا يمكن الاقتراب منهما الآن : وقد يوجد بها كما يظن البعض – معبد الإله أو الآلهة التي يعبدها أهالى هارابا . ويذكرنا ترتيب قلاع هارا پا و موهنجودار بالإدارات الكهنوتية في سومر القديمة، إذا نجد في اور مثلا أن كهنة إله القمر كانوا يديرون مصانع النسيج والجعة والمخابز، و مصانع الحدادة، وذلك لمصلحة الإله و الدولة بطبيعة الحال . ولا يمكننا في هذا الصدد إلا التخمين بالنسبة لما كان عليه الحال في هارابا، إذ أن النقوش التي اكتشفت في جميع أركانها لم تحل رموزها بعد.

لذلك ستبقى تقاليد شعب هارا يا القديم غامضة علينا، وكل ما نستطيع أن نعرفه الآن عنهم مستمد ما بقي من مبانيهم وما وجد بها من أدوات لكنا مع ذلك نستطيع أن نعرف الكثير، فقد فهمنا مثلا أن أهل هارا با كانوا ملين بتخطيط المدن. فالمدينة السفلى في موهنجودارو قد خططت شوارعها المتقاطعة قبل بناء المدينة ذاتها، بعكس شوارع أور في سومر التي تمتد في كل اتجاه دون نظام محدد، ومع ذلك فإن هذه الشبكة المتراكمة من

الشوارع والحواري المقامة جميعها بقوالب الطين دون أن يكون بها أية معالم الزينة، قاتمة المظهر لا تسر الناظرين . ويندر وجود نوافذ تطل عليها، ولعلهم كانوا يستعيضون عن النوافذ بفتحات ذات شباك من الحديد للتهوية . أما الحجرات فتطل على فناء مكشوف ويفصلها عن بعضها البعض فواصل ان المصير تسمح بمرور الهواء .

وأغرب ماتميزت به مدن هارابا، حيث أصبحت فريدة بين مدن ماقبل العصر ا لاسيكى في الشرق القديم، هو النظام الدقيق الذي اتبع في تصريف المياه، ومراعاة النواحي الصحية في المنازل، فالحمامات متوافرة، وثمة مراحيض تتصل بخزانات أوم عمال البلدية بتفريغها بانتظام .

و يقول ويلر في هذا الصدد :

"إن المعالم المتكررة التي تستلفت النظر في الاهتمام بتوفير المياه، والحمامات والمصارف، ووجود السلالم المؤدية للطوابق العلوية. ووجدت في الطابق الأرضي ببعض المنازل مراحيض بمقعد شبيهة بتلك التي تستعمل في البلاد الغربية الحديثة وهي متصلة بمجار منزلقة أو مدرجة داخل الجدران تؤدي إلى خزانات من الفخار أو الطوب الأحمر خارج المنزل، في الطريق،.
– ويقول، ويلر في وصف المظهر العام للمدينة السفلى : وإن عرض الشوارع الرئيسية يبلغ ثلاثين قدما، وتفصل بين كل المباني الكبيرة طرقات، كثير منها مدرج (وهي شبيهة بحارات مدينة افينيون فرنسا) لتحد من شدة الرياح .

وبالإضافة إلى المساكن الخاصة، وجدت بجمعات كبيرة ربما كانت للأعمال التجارية أو الصناعية، كذلك وجد مبنى به زلع ذات شكل مخروطي، ربما كان هذا المبنى مطعمة عامة . أما المباني الدينية فلا يمكن الاستدلال

عليها بصفة قاطعة، ولو أن الأثريين اكتشفوا في المدينة السفلى مجموعة معقدة من المباني ذات الجدران السميكة، وبها طريق للواكب، ويؤدي إلى ميدان عام ربما كانت به شجرة مقدسة أو تمثال لأحد الألهة، و بالقرب من هذا المبنى وجد جزء من تمثال لرجل ملتح لعله كان جالساً أو متخذاً وضع القرفصاء، وهو حليق الشارب، أما جبينه فضيق بشكل غير طبيعي، وعليه عصابة من الشبك، وكالشأن في جميع التماثيل الآدمية النادرة التي وجدت في مختلف أنحاء هارابا، كان له ذقن أفطس ووجه بارز .

وحتى تاريخنا هذا لم تكتشف في هارابا أية نماذج فنية تقارن بما عثر عليه في بابل أو مصر، من حيث الجمال والحيوية، لقد اكتشف عدد كبير من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق، والخزف، وأغلبها لحيوانات، أما التماثيل الآدمية فكانت نادرة، وإذا وجدت فخشنة ومصنوعة بغير عناية، كأن البشر لا يستأهلون الاهتمام، و وجدت بين تماثيل الحيوانات الكثيرة تماثيل فيلة، ووحيد القرن، والثور البري، والقردة، والسلحفاة، والماعز، والكلاب، والخنازير، وعديد من الطيور غير المعروفة، و نستطيع من هذه المجموعة أن نكون فكرة عن الحيوانات البرية المختلفة التي كان يموج بها وادي الاندوس في تلك الأيام الغابرة، ويفهم من ذلك أن هذه المنطقة كانت منذ ٤٠٠٠ عام تتمتع بجو رطب يسمح بنمو نباتات الأدغال والمستنقعات، ووجد كذلك عدد كبير من تماثيل صغيرة الحجم لامرأة يغلب على الظن أنها تمثل إلهة، وكانت تضع على رأسها أحيانا وشاحا كبيرة فضفاضة ونهداها بارزان، وفي بعض التماثيل الأخرى كانت ترضع طفلها، وفي البعض الآخر كانت على جانبيها سلتان، يفهم ما تبقى بهما من آثار الدخان أنهما كانتا تستعجلان لحرق البخور . وربما كانت هذه الإلهة بالنسبة لشعب ها را با

الإلهة الأم التي كانت تعبد في صور مختلفة في شتى بقاع العالم أيام ما قبل التاريخ.

كانت بعض النماذج التي اكتشفت مصنوعة بمهارة . ونذكر من هذه تماثيل صغيرة من الخزف، لماعز وكلاب و سنجاب وقردة، كذلك اكتشفت مجموعة من الزراير ودبابيس الزينة والخواتم، والأساور كلها مصنوعة من مادة الخزف الجذابة اللون الأخضر المزرق . وفي مجموعة من الحلي كانت في الغالب ملكا لأحد صناعها عثر على عدد كبير من فصوص الذهب . كذلك استخدمت أنواع أخرى من الأحجار مثل الكار نيليان واللابيس لازولى [1]. كما استعملوا أيضاً أنواعاً خاصة أخرى في صناعة الخرز وحجارة اللعب (كقطع لعبة الشطرنج). وكان أهالي هارابا يصنعون اللعب لأطفالهم، وربما على يد فنيين متخصصين في صناعتها اكتشفت لعب تمثل ثيران برءوس متحركة، وعربات ذات عجل من الطين المحروق، وتماثيل النساء يقمن بعملية عجن الدقيق . وصفارات على شكل طيور، وشدا شيخ من الخزف بداخلها حبيبات من الفخار.

وتدل قطع الموازين والمكاييل التي اكتشفت بكثرة، على نشاط شعب هارابا في ميدان التجارة، وتختلف قطع الموازين بين ما هو كبير جدا به حلقات لحمله وما هو صغير جدا يستخدمه تجار الحلى الثمينة، وهي تدل على دقة وتوافق و نظام. كان النظام العشرى مستعملا في الموازين الكبيرة وفي مقاييس الأطوال . واكتشف جزء من قشرة خشبية (كانت جزءاً من ميزان) تحمل تقاسيم دقيقة يعادل الجزء الواحد منها ٢٦٤،. من البوصة

(١) خامة لصنع أدوات تحتاج لدقة ومتانة .

بخطأ ضئيل لا يعدو ٠٠٣ ، من البوصه.

كان أهالي هارابا يطبقون نظام الري، وقد اكتشفت بقايا خزان لحجز مياه النهر بعد الفيضان السنوي، وكانوا يزرعون القمح والشعير والبسلة والشمام . ووجدت على بعض أختام نقوش قد تمثل شجر الموز، وكانوا يربون الماشية والأغنام مثل الخراف والبقر والخنازير والماعز . ويبدو أنهم عرفوا الجمال والجاموس، والثور الهندي والدب والغزال الأرقط. وكان عندهم قطط وكلاب أليفة . وفي كانودارو وهو أحد المواقع في هارابا وجد قالب من الطين سارت فوقه قبل أن يجف قطة وكلب فبقيت آثار أقدامهما واضحة وعميقة بشكل يدل على سرعة الحيوانين، وكما هي العادة كان الكلب يطارد القط.

ولم يكتشف إلا عدد قليل من القطع الفنية، وكانت التماثيل المتقنة والمصنوعة من الأ لاباستر والسيتا تا يت والبرونز ذات طابع جامد بوجه عام، إلا القليل منها. وأهم ما يلفت النظر فيها تمثال مصنوع من البرونز اكتشف على عمق ستة أقدام تحت أرض بيت في موهنجودارو وهو يمثل راقصة عارية تلقي برأسها إلى الوراء، ذراعها الأيسر مغطى من الكتف حتى المعصم بأساور، وهي من شعب الأبوريين . وربما جاءت من بالوخستان، لها أنف أفطس و شعر مجعد، كبيرة العينين، والشبه بين هذا التمثال وبين التماثيل الهندية يبدو واضحاً من حيث الأداء الفني كذلك لوحظت أوجه شبه عديدة بين النقوش التي وجدت على الأختام الصغيرة في هارا پا سواء كانت تمثل آدميين أو آلهة، وإحدى هذه النقوش كانت لشخص ذي ثلاثة رءوس جالس على مقعد منخفض يتوجه غطاء طويل للرأس، ذراعه التي تكسوها الأساور . تقف على أحد جانبيه جاموسة، وعلى الجانب الآخر وحيد القرن، وتحت المقعد توجد عنزتان . وقد اكتشف السيرجون مارشال أن هذا الرسم الأصلي

للإله الهندي " شيفا " عندما يتجلى في صورة باسوياتي إله الوحوش.

ومن آن لآخر تلاحظ آثار الثقافة العصرية التي كان شعب هارا يا على اتصال بها . فنجد مثلا خاتما يحمل صورة لشخص مد ذراعيه المسك بأسود أمامه، وعلى خاتم آخر نجد نما هاجمه وحش نصفه آدمى و نصفه لثور، وهو يذكرنا بصورة (اباني) السومري الذي خلقته المعبودة ارورو ليقاتل جلجامش.

ولم يعثر على أية ألواح من الطين المحروق كتلك التي كشفت لنا عن الكثير من حضارات بابل وآشور والإمبراطورية الحيثية، وقد كانت على بعض الأختام كتابة تصويرية لم يستطع أحد قراءتها لأنها لا تشبه أي كتابة أخرى معروفة . ولم يعبر على شيء منها بلغتين إحداهما معروفة (بلغني أن ميشيل قدريس العلامة الشاب المرموق الذي نجح في حل رموز الكتابة المستوية، برغم عدم وجود نقوش لها بلغتين، كان على وشك القيام بمهمة حل تلك اللغة المجهولة، و لسوء الحظ مات العلامة في حادث سيارة قبل كتابة هذه السطور بأسابيع) .

أما مشكلة التأريخ فإنها لم تحل بعد حلا شافياً، ولكن مخلفات الحضارات الأخرى المعروفة التي وجدت في هارابا، مكنت علماء الآثار من القول بأن تاريخ أقدم حضارة في هارابا لا يتخطى عام ٢٥٠٠ ق.م. ومع ذلك فلا زالت في هارابا و موهنجودارو طبقات من الأرض لم تفحص بعد، فقد ارتفع مستوى الأنهار ارتفاعا محسوسا منذ بناء هذه المدن، مما جعل الحفر تحت عمق معين مستحيلا دون مضخات محكمة الصنع لشفط مياه الرشح.

بقي أن نسأل: هل تكونت حضارة وادي الأندوس مستقلة أم أنها تمت

بصلة ما إلى حضارات نهرية أقدم في جنوب العراق ؟، يقول العلماء إن شعبه هارابا وهو الذي ازدهرت حضارته بعد حضارة سومر – قد كون حضارته الخاصة مستقلا عن العراق، كما يقول ويلر إن الأدلة على وجود صلات مع الغرب قبل عام ٢٠٠٠ ق.م أدلة عير وافية [١].

أما عن تاريخ نهاية حضارة وادى الأندوس فيبدو أنه امتد حتى النصف الأول من الألف الثاني ق.م. أي حوالي أيام الغزو الآري الذي وقع عام ١٥٠٠ على وجه التقريب، وأتخذ مادون في ال "ريج فيدا"، مسحة جديدة منذ اكتشاف هاراپا وموهنجودارو . ونستطيع أن نقول إن تلك الحصون، و القلاع، التي حطمها الإله إندرا "كما يمزق الزمن الملابس"، إنما كانت مدن هاراپا ذات الأسوار، ولا ينطبق هذا على موهنجودارو وهاراپا فقط، بل على مدن وقرى أخرى محصنة قامت في نفس الوقت وكشف عنها الأثريون على ضفاف النهر بين المدينتين الرئيسيتين وخلفهما . (قد ثبت أن نقط الالتقاء بين التراث الأدبي "على الأصح الشفوي" والأدلة الأثرية قد زادت عما كان متوقعا).

وليست أسباب ذبول الحضارة في وادي الأندوس واضحة تماماً . فبعض المصادر تقول إن التغييرات التي طرأت على المناخ وقلة كمية الأمطار، ربما أثرت في طبيعة الأرض بحيث أصبحت لا تصلح للإنتاج الزراعي والحيواني و عليهما يعتمد اقتصاد هاراپا . لكن هذا الرأي غير مسلم به، فإذا كانت المنطقة قد تعرضت قبلا لتقلبات مناخية، فهل كانت هذه التقلبات من فعل الطبيعة أم نتيجة لفعل البشر؟ أو كليهما ؟. ومن الواضح أن ملايين قوالب

---

(١) Wheeler, Sir Mortimer. — The Indus Age.

الطوب الأحمر الذي استعمل في إقامة موهنجودارو وهارا پا وغيرهما من المدن يدل على استعمال مقادير كبيرة جداً من الأخشاب لحرقها . كذلك استعمل الخشب بسخاء في البناء في هارابا . وقد يتسبب قطع أشجار الغابات على نطاق واسع في نقص هطول الأمطار وفي تفتيت التربة . ولعل هذا هو ما حدث في وادي الأندوس، كما حدث في بلاد أخرى.

ولا تزال هذه كلها مجرد تكهنات، ولكن فحص المستويات العليا بمدن هارابا قد أثبت حدوث تدهور شديد في البلاد في أواخر أيامها، فقد لجأ الناس إلى تقسيم المباني القديمة الفسيحة إلى غرف صغيرة تفصلها حواجز، أما الشوارع الواسعة فقد اعتدت عليها المباني، وازدحمت الشوارع الضيقة بمساكن حقيرة، وهذه كلها أدلة قاطعة على انحطاط المستوى السياسي والاقتصادي، لكن الضربة القاضية التي أتت على المدينة المتداعية جاءتها دون شك من الخارج، فقد اكتشفت آثار هجوم مسلح في موهنجودارو و غيرها من المدن .

وقد وجد المنقبون في حجرة واحدة بمدينة موهنجودارو هياكل عظمية لثلاث عشرة امرأة، وهيكلا لطفل وبعض الهياكل بها أساور وقلائد خرز وخواتم، ويدل وضع الهياكل على أن صاحباتها متن موتاً جائياً . كان بإحدى الجماجم أثر جرح بالسيف وجمجمة أخرى ما يدل على أن صاحبها تعرضت لقتال عنيف،، وفي نواح أخرى بالمدينة وجدت في حفرة غير عميقة تسعة هياكل عظمية في أوضاع ملتوية بشكل غير طبيعي وبجانبها سنا فيل . والمعتقد أنها بقايا عائلة ربما كانت من تجار العاج هاجمها المعتدون وهي تحاول الهرب، ويحتمل أن يكون الغزاة قد سلبوا الجثث وتركوا سن الفيل الذي لا قيمة له عندهم . وكشفت إحدى حجرات الآبار عن مأساة بشعة، إذ

وجد على الدرج المؤدي للحجرة هيكلان آدميان، ومن الواضح أن صاحبهما قضيا في محاولة يائسة للوصول إلى الشارع، كما وجدت بقايا هيكلين آخرين بالقرب منهما، لكن صاحبهما وصلا إلى الخارج. ولا شك أن هؤلاء الناس قتلوا جميعا، كذلك وجدت، في أماكن أخرى بالمدينة هيا كل بشرية أخرى مكدسة دون أية أدوات جنائزية، مما يدل على أنها لم تدفن بطريقة نظامية. وفي أماكن أخرى تركت الجثث حيث كانت دون دفن .

وفي ضوء هذه الأدلة التي يرجع تاريخها على ما يبدو إلى حوالي عام ١٥٠٠ق.م وهو التاريخ التقليدي للغزو الآري، لا نجد مجالا للشك في الذين قاموا بالغزو . ويقول سير مورتيمر ويلر : " إن شعب اندرا هو المتهم ".

وقد جاء مؤسسو الحضارة الهندوكية بتقاليدهم الثقافية من وطنهم الآرى، ويستدل من النماذج القليلة للفن الهارابي التي اكتشفت حتى تاريخنا هذا أن الغزاة المنتصرين اعتنقوا حضارة هارابا – ولو أنهم تجاهلوا بعض نواح منها مثل هندسة الصحة العامة (الحمامات ودورات المياه ... إلخ). وانتهى الأمر بأن أندثر كل ما يمت بشعب هارابا القديم حتى التقاليد والعادات، كما اختفت مدنهم تحت التراب والأنقاض التي تركها من جاء بعدهم من سكان، إلا أننا وقفنا من من بحوث الأثريين خلال الثلاثين عاما الأخيرة، على كثير من البيانات عن تلك الحضارة المفقودة . كذلك أدت دراسة أساليب صناعة الفخار إلى تتبع بداية الحضارة الارابية في القرى التي كانت بالتلال وبأعالي الوادي، حيث كان أجداد أهالي هارابا و موهنجودارو يقيمون قبل أن ينزحوا إلى الوادي، وفي جار مو وهي إحدى مواقع التنقيب عند سفح التلال بشمال العراق أمكن القيام بعملية تأريخ رجعت بنا إلى ما يقرب من خمسة آلاف عام أو أقل بقليل .

وأخيراً بدأت المستعمرات تنمو على ضفاف نهر الاندوس وروافده و تدريجيا تكون مجتمع تسيطر عليه موهنجودارو وهارابا العاصمتان التوأم تربط بينهما الأنهار العظيمة . ويوحي المظهر العام بوجود دولة منظمة تنظيما دقيقة تجمع الجزية من الغلال التي يعتمد الشعب علها وتخزنها في الصوامع الضخمة القائمة في ظلال القلاع التي تحرسها . وتدل الصفوف المنظمة من المباني الشبيهة بالثكنات وكذلك العجلات التي كان يطحن القمح عليها تحت رقابة المشرفين، كل هذا يوحي بوجود نظام حكومى حاذق يديره كهنة أو كهنة ملكيون، كما كان الحال في سومر .

ولكن الصورة كانت قائمة بصفة عامة . فبينما نعجب بمهارة شعب هارابا في التخطيط المعماري، وفي الهندسة الصحية، نشعر في نفس الوقت أن الحضارة الهارابية تخلو من الجاذبية والجمال . كانت المدن داكنة يكتنفها جو لا إنساني بل أدنى من ذلك -، كانت الشوارع غاصة بمنازل خالية من الجمال، مبنية بقوالب من اللبن، وكما يقول ويلر : مهما كان من وقع العدد الضخم للمباني ومغزاها من الناحية الاجتماعية إلا أنها من حيث التذوق الفني للجمال تعتبر أميالا من الملل.

ويستطيع المرء أن يتخيل هذه الشوارع الشبيهة بالحظائر وهي تحترق تحت الشمس المشتعلة . بينما تسير الكتل البشرية كالنمل بنظام وسرعة تحت إشراف ورقابة دولة مركزية قوية . تعيش في حضارة خالية من المرح مليئة بالعمل . تتركز الأهمية فيها على الأشياء المادية . وفي عصرنا الحديث ما يشابه هذه الأوضاع . هل يرجع كل هذا إلى ١٩٨٤ ق.م؟

الفصل الثامن

أرض بلا أحزان

كتبت هذا الكتاب، أنا، روبرت نوكس (ابن روبرت نوكس المتوفي جزيرة زيلون)، حين كنت في التاسعة والثلاثين من عمري . وقد أسرت في زيلون في الرابع من ابريل عام ١٦٦٠، أما مولدي فكان في "تأورهل" بمدينة لندن في الثامن من فبراير عام ١٦٤١ . ويوم أخذت أسيراً كان عمري تسعة عشر عاما وشهرة واحدة وسبعة وعشرين يوما، وبقيت سجينا هناك أربعة أشهر وسبعة عشر يوما زيادة عن المدة التي عشتها في العالم قبل الأسر . وفي الثامن عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٧٩ أطلق الله سراحي من هذا الأمر حين أمد الهولنديين بعونه في حصن أريبا فله المجد والتقدير .

روبرت نوكس
لندن في عام ١٦٩٦

وفي عام ١٦٨١ ظهر في مكتبات لندن كتاب بعنوان "أخبار تاريخية عن سيلان وبعض بيانات عن حياتي تستحق الذكر إلى حد ما" من تأليف روبرت نوكس . وبدأ الكتاب بالسطور التي افتتحنا بها هذا الفصل .

ولم يتبق من كتاب نوكسن إلا نسخ قليلة، وحتى عام ١٩١٠ لم يكن هناك من عن المؤلف شيئاً يزيد على ما ذكره هو في كتابه ،أخبار تاريخية ..،، ولكن حدث في ذلك العام أن اكتشف مستر دونالد فرجيسون في مكتبة بودليان بمدينة اكسفورد، بعض مذكرات كتبها نوكس عن حياته، كما اكتشفت

مخطوطات أخرى . و تعتبر هذه، بالإضافة إلى الكتاب – أقدم ما لدينا من معلومات باللغة الإنجليزية عن جزيرة سيلان ومدنها التي اندثرت . وكان والد نوكس – وقد ولد عام ١٥٨١ في ثاكتون بمقاطعة سفوك Suffork – ربان سفينة تجارية تعمل في البحر الأبيض المتوسط . ويقول ابنه عنه:

"عندما كنت أناهز الرابعة عشرة من عمري، بن أبي لنفسه سفينة جديدة (هي التي أسرت عليها) . وكنت شديد الميل البحر، لكن أبي كان يكره أن يجعل من ملاحاً. وتصادف أن حضر بعض رجال البحر لزيارته، وفي سياق الحديث – وكنت واقفة بالقرب منهم – سألوا أبي عما إذا كان ينوي أن يصطحبني إلى البحر، وأجاب أبي "كلا، إني أرغب في أن يكون ولدي تاجراً " وسألوني عن رأي فأجبت بأن الذهاب إلى البحر هو أمنيتي الوحيدة . وبناء على ذلك التفتوا إلى والدي قائلين : إن هذه السفينة الجديدة، عندما تعتزل السفر بالبحر، ستكون بمثابة الأرض الخصبة لابنك . ومن المؤسف أن تعارض ميوله الطيبة لأن الشبان يصيبون كل النجاح حين يستجيبون لنداء ميولهم.

وكانت النتيجة أن روبرت نوكس الشاب ذهب فعلا للبحر ولكن لمدة قصيرة، إذ بعد أول رحلة له بثلاث سنوات فقط أبحر على سفينة أبيه (آن). في تلك الرحلة المشئومة التي يقول عنها)، فقدت خلالها أبي ونفسي وأفضل سنين عمري، و سجنت ٢٣ عاما حتى سنة ١٦٨٠ . في عام ١٦٥٩ اقتلعت الروابع قلع السفينة آن بالقرب من شواطئ جنوب الهند، واضطر طاقم السفينة للذهاب إلى كو تيار في جزيرة سيلان لشراء قلع جديد، وكان في ذلك نهاية الحياة البحرية بالنسبة لروبرت ونهاية الحياة كلها بالنسبة لوالده، فقد أسرهما رجال الجزيرة مع ستة عشر من البحارة وأخذوهم إلى

بلاط ملكهم الراجا سنغو . ومات الأب في الأسر أما روبرت فيقي بين الملك قرابة عشرين عاما .

ويقول جيمس رايان في مقدمته للطبعة الجديدة من كتاب نوكس التي صدرت في عام ١٩١١ : " إن أسباب القبض عليهم كانت، أولا : بدعة عجيبة للملك سنغو في أن يقيم (حديقة حيوان من الأسرى الأوربيين) ثانياً : غيرة الهولانديين من احتمال تدخل الإنجليز، ثالثا: عدم استعداد الأسرى أنفسهم للقيام بأية محاولة جدية للهرب" .

وفي هذا القول تقدير عال لجاذبية سيلان إذ أن راجاسنغو أساء معاملة نوكس ووالده، وكان يعامل أفراد شعبه وأسراه بقسوة مرعبة . ولكن بالرغم من نقد نوكس لأهل سيلان وملكهم، و بالرغم من أنه يقول . " فقدت أبي ونفسى وأفضل سنين عمري، فإن الجزيرة سحر ته بجمالها، . كان رجلا ذكيا دقيق الملاحظة يهتم بكل شيء حوله . وبالرغم من أنه تربى تربية بيوريتانية (يقول إن أمه كانت شديدة التقوى، وكان الله دائماً في فكرها)، إلا أنه درس عادات وتقاليد شعب الجزيرة بعين صادقة غير متحيزة . كان من وقت لآخر يعود بذاكرته إلى الوسط الذي نشأ فيه، وكان عندئذ – مقتضى تعالم كتاب العهد القديم – يكيل اللوم على الدعارة . والوثنية، إلا أنه، على العموم، كان يراقب الحياة من حوله بصراحة وموضوعية تكفل الإعجاب ببحاثة حديث في علم الأجناس.

وكما حدث مع لايرد والمغامرين (في عصر فيكتوريا) بعد مرور قرنين على ذلك التاريخ، أعتقد أن نوكس أصبح مولعة بتلك الحضارة الأجنبية الغربية التي وجد نفسه فيها، وقد يكون السر في بقائه عشرين عاما بين شعب

سيلان هو انعدام الرغبة لديه في العودة إلى بلد سكانها مثقلون بالملابس و أذهانهم مغلقة، ينتشر فيها التعصب البيوريتاني .

إن اسم سيلان جديد نسبياً على الجزيرة . فقد كانت معروفة عند الإغريق باسم "تابروبان" (ورقة النحاس) . وعند العرب باسم سرنديب . وقد حول البرتغاليون هذا الاسم في القرن السادس إلى سيلان، ولكن أجمل اسم أطلق على الجزيرة جاءها من عند الصينيين، إذ كانوا يسمونها " أرض بلا أحزان " . ابرز الجزيرة من المحيط الهندي جنوبي القارة الهندية، وهي رطبة خضراء، مناخها قارى، وجنوبها منطقة جبلية، وتبلغ أعلى قمة فيها ٨٠٠٠ قدم، لكنها تمتد شمالا في سهول خضراء تكسو أغلبها أدغال كثيفة لا يمكن التغلغل فيها . وفي تلك الكتلة الخضراء الخصبة التي تزخر بالحيوانات – مثل : الفيل والفهد والنمر الأرقط والقردة – ترقد خرائب مبان عظيمة وجميلة المدن اندثرت منذ قرون.

وفي القرن السادس ق.م. بعد أن قضى الغزاة الآريون على حضارة وادى الاندوس بألف عام، نزح المستعمرون الهنود من وادي الجانج وعبروا البحر وغزوا سيلان . وهؤلاء هم أجداد السنغاليين المحدثين الذين يمثلون غالبية شعب الجزيرة .

ولأكثر من ألفي عام حكم الجزيرة ملوك من السنغال . بدأ حكم أولهم عام ٥٦٣ ق . م أي بعد انقضاء عشرين عاما على وفاة الملك "نابوخت ناصر" وانتهى حكم آخرهم عام ١٨١٥ بعد الميلاد، نفس العام الذي وقعت فيه معركة واترلو، وكان راجا سنغو، الذي أسر نوكس، أحد هؤلاء الملوك.

وإذا كان عنصر السنغال هو الذي يسود في جنوبي الجزيرة، فان شمالها

يسود فيه عنصر التاميليين، الذين ينتمون إلى الدرافيديين الذين يقيمون بجنوب الهند . وقد استقر التاملون في سيلان بعد أجيال من النضال، وهم أساساً من الهندوس، أما السنغال فقد اعتنقوا البوذية في القرن الثالث ق. م. أي بعد أن غزوا الجزيرة بمائتي عام . ويوجد بالجزيرة أقلية من المسلمين والمسيحين.

استقر السنغال في سيلان أكثر من ألفي عام قبل أن ينزل بها الأوربيون . وكان أول من وصل إليها هم التجار البورتغاليون الذين أسسوا فيها مستعمرات تجارية حوالي عام ١٥٠٥ ميلادية . وبعد قرن و نصف قرن تبعهم الهولانديون الذين كانوا في ذاك الوقت يؤسسون مستعمراتهم في الهند الشرقية، وطردوا المستوطنين البرتغاليين . لكن الملوك السنغاليين استمروا في حكم البلاد من عاصمتهم كاندى . حتى عندما أصبحت الجزيرة من الممتلكات البريطانية عام ١٧٨٥ . ولكن الملوك الكانديين اختفوا في عام ١٨٢٥ م بمحض اختيارهم كما يقول أحد المسئولين الإنجليز.

وربما كان من الأفضل أن تتعرف على الجزيرة من خلال ما جاء على لسان نوكس الذي رأى الجزيرة أيام كانت أرضا غريبة، تحكمها أسرة من أبنائها، وقبل أن تكتشف مدنها التي اندثرت والتي لا حصر لها، فقد كان لديه الوقت الكافي لدراستها.

فبعد أن وصف المدن الخمس الرئيسية التي كانت آهلة بالسكان في ذلك الوقت – بما في ذلك العاصمة كاندي – استرسل نوكس قائلا :

"بالإضافة إلى تلك (المدن) التي تحدثت عنها، توجد في مواقع متعددة خرائب لا تزال تسمى "مدناً "، ومن هذه المدن كان الملوك يحكمون، وإن

لم يبق من آثارهم فيها إلا القليل . وفي الطرف الشمالي من ممتلكات الملك توجد واحدة من هذه المدن المتهدمة و اسمها (أنورود جيورو) في الواقع " أنورادها بورا" (Anuradhapura) حيث حكم – حسب القول السائد – تسعون ملكا، قدست أرواحهم جميعاً بفضل ما أقاموه من أعمدة حجرية وصور تمجد آلهتهم، ولا يزال بعضها قائما إلى الآن. ويعتقد السنغال أن تلك النصب تستحق العيادة وأنها تؤدي إلى السماء ...... وفي هذه المدينة التي تسمى) " آنوروجيورو " توجد نقطة حراسة ليس وراؤها شعب يدين بالطاعة إلى ملك كاندي . ويقع هذا المكان على مسيرة أكثر من تسعين ميلا إلى الشمال من مدينة كاندي" :

أما المدن الصغيرة التي سكنها السنغال فيقول عنها نوكس ما يلي:

" أفضلها تلك التي تمتلكها الآلهة حيث توجد المعابد، وهم لا يهتمون بتخطيط الشوارع و بإقامة منازل في صفوف منتظمة، وإنما يقيم كل رجل على حدة في ضيعته التي ربما يوجد حولها سياج و خندق لمنع وصول الماشية إليها (من الخارج). وهم يقيمون مدنهم دائما بعيدا عن الطريق العام لأنهم يفضلون ألا تكون فهذه المدن سوقة عامة لجميع الناس، وإنما لهؤلاء الذين يتعاملون معهم فقط" .

وملاحظات نوكس عن نظام الحكم، واندين، والأعمال، والعادات و تقاليد الشعب، لها قيمتها بالنسبة إلى التاريخ الذي دونت فيه إذ أن تأثير الأوربيين في ذلك الوقت كان ضعيفة نسبية، مما يجعل للوصف طابعة خاصة بسيلان والحالة التي كانت عليها في القرون السابقة، عندما كانت ومدنها التي اندثرت، مازالت قائمة . ويقول نوكس عن الملك :

أما حكمه، فكان استبدادية وتعسفيا لأقصى حد، لأنه كان يحكم حكم مطلقا وفق إرادته وأهوائه، كانت رأسه هي مستشاره الوحيد والأرض جميعها تحت تصرفه، وكذلك جميع الأفراد من أرق الطبقات إلى أدناها، فالآدميون جميع والممتلكات جميع تخضع لإرادته . وفوق ذلك لم يكن تعوزه تلك الفضائل الثلاث التي يتسم بها، الطاغية، وهي الغيرة، والنفاق، والقسوة .

ويبدو أن نظام الحكم كان إقطاعيا إلى حد بعيد، فالملك لا يدفع أجرة الزراعة أرضه، وإنما يلزم الناس بهذه الزراعة الأمة، وهو يستعين بكبار ضباطه الذين يسمى الواحد منهم (اديجار) ويقول نوكس (أستطيع أن أسميهم كبار القضاة الذين تخضع المدن لسطانهم . ويلي هؤلاء الموظفين الكبار آخرون يسميهم نو كس (ديسو فاس، وكانوا يحكمون المقاطعات، وكل منهم بمثابة قائد على رأس عدد من الجنود . وهؤلاء الموظفون كانوا يؤلفون على ما دو طبقة أرستقراطية وراثية، إذ يقول نوكس (إن الملك لم يكن يراعى مهارتهم وكفايتهم فحسب، وإنما كان يتحتم انتماؤهم إلى منبت عرق و محتد كريم، وكانت لديهم هيئة من صغار الموظفين كالسكرتاريين وجباة الضرائب و غيرهم . ونستطيع أن نرى في هؤلاء جميع صورة الحكم الاستبدادي القديم الذي عرفناه في آشور وبابل وهارابا.

ويلي الحاكم مباشرة موظف آخر يدعى (ليانا) و هو الكاتب الذي يقرأ الرسائل الواردة ويسجل جميع الأعمال ... ويحتفظ بالسجلات ... ويأتي من بعده الاوندبا)، وهو الموظف الذي يجى أموال الملك، ثم رالمونا تانا) أي الوزان (الذي يقوم بكيل القمح من الأراضي الملكية أو أي قيح آخر يخص الملك.

وتعيين هؤلاء وفصلهم رهن بإشارة الملك وليس فيهم من يعتلى منصبه مدى حياته، على أن الموظف حين يكون في المنصب، ينعم بشراء واسع، يكتسبه في غالب الأحيان عن طريق الرشوة والاستغلال، ويصف نوكس كيف أنهم حين يسافرون في أنحاء الدولة لإنجاز مصالح الملك، كانوا يتنقلون في حراسة عدد من الجند المسلحين الذين يسيرون أمامهم وخلاهم، وكانت التقاليد الرسمية تقتضي – حين يسير هؤلاء العظماء – أن يتكى، الواحد منهم على ذراع رجل أو غلام، وفضلا عن ذلك فإن "الادجيار" أينما ذهب، كان يصحب شخصا يحمل سوطا كبيرا كسياط خيل العربات، يلوح به في الهواء حتى يلفت نظر الشعب إلى أن الأجيار في الطريق .

وكان الملاحون يزرعون الغلال والأرز، وفي الجزء الشمالي من المدينة بصفة خاصة، حيث يسود الجفاف، كانوا يلجأون إلى ري الأراضي بإقامة سدود كبيرة الحجز مياه الأمطار وحفظها، وكانوا يزرعون الخضروات وأشجار الفاكهة بما في ذلك نخيل جوز الهند والموز والأناناس والرمان والكروم . لكنهم كانوا يجدون شجرة معينة على الرغم من أنها لا تحمل أي ثمر: هذه كانوا يسمونها (بوجاهاه)، ونسميها نحن شجرة الإله، وهي كبيرة جدا وفروعها مترامية وأوراقها تهتز دائماً مثل الحية، كانوا يقدسون هذه الأشجار تقديساً كبيرة ويعبدونها، لاعتقادهم بأن (البودر) (بوذا) وهو إله كبير عندهم، عندما كان على هذه الأرض، اعتاد أن يجلس تحت هذا النوع من الأشجار.

وقد انتقلت البوذية من الهند إلى سيلان حوالي عام ٣٠٠ ق.م، وكان "سيدارتا"، أو "جوتانا"، كما يسمى أحياناً، أميراً هندوكياً من شمال الهند شغل في القرن الخامس ق.م مشكلة آلام الحياة البشرية، وفي محاولة لعلاجه من هذه الفكرة التي سيطرت على ذهنه، زوجه والده من أميرة جميلة تسمى ديا

سودهارا، تطبيقا للقول المأثور (إن الأفكار التي لا يمكنك تركيزها بسلاسل من النحاس تربط بسهولة ويسر بشعرة من رأس فتاة) وعاش الزوجان في سعادة اثنتي عشرة سنة، ورزقت و پاسود هارا، بولد من زوجها . وعندما بلغ سيدار تا الثلاثين من عمره انفصل عن زوجته و أصبح ناسكا لفترة من الزمن كما يفعل البراهمة . لكنه ترك هذا الطريق أيضا في آخر الأمر لعدم اقتناعه بإمكان الوصول إلى تحرر الروح عن طريق تعذيب الجسد. والمذهب الذي طرحه في آخر الأمر والذي أصبح عقيدة ثلث سكان العالم، مذهب يقوم على الزهد والتحرر من الارتباط الذي يعتبر العامل الوحيد للبقاء . وعاد إلى زوجته التي أصبحت أولى أتباعه . و بوذا (الذي أفاق)- وهو الاسم الجديد الذي أطلق عليه – كان يشك في وجود الآلهة ولم يدع الألوهية لنفسه أبدا. ومع ذلك فإن أتباعه الكثيرين يعبدونه كاله، والأصنام التي رآها و نوكس، في معابد سيلان كانت بطبيعة الحال صورة البوذا نفسه . ومن الغريب، أن البوذية التي كادت أن تتلاشى في البلد الذي نشأت فيه سيطرت على شعوب كثيرة خارج الهند لدرجة أنها أصبحت الآن أكثر الأديان انتشارا في آسيا .

إن مدن سيلان المندثرة قد نشأت أصلا نتيجة لحماس دينى، ذلك أن القوة الدافعة للخلق والإبداع عند السنغال، وهي شعور كامن في جميع أفراد البشر، قد اتجهت نحو إقامة معابد لخمة و محاريب وأديرة للكهنة وقصور للملوك، هو الذي أتاح لهم فرصة تركيز الأيدي العاملة و موارد المملكة لبناء هذه الصروح المدهشة، والمنشآت العامة مثل : البحيرات الصناعية الهائلة التي تسهل عملية الري، والخزانات التي تحجز الماء، والترع التي حولت ما كان أدغال إلى أرض خصبة مثمرة . وقد استعمل الملوك جيوشا من المهندسين، البنائين والنحاتين والحدادين، وصناع الحلى، وذلك ليجعلوا

مدنهم جميلة وذات ثراء. وأكبر هذه (المدن) هو (أنورادها بورا) التي بدأ تأسيسها في زمن يكاد يتفق مع زمن فتوحات الإسكندر الأكبر وخلفائه، وظلت تنمو وتزدهر خلال فترة الإمبراطورية الرومانية . ومع ذلك فلا يمكن أن نشبه أعظم إنتاج معمارى قام به أباطرة الرومان، من حيث الحجم، بالفن الرفيع عند الملوك السنغال المعاصرين لهم . فنجد مثلا أن مساحة رأنوراد ها بورا تبلغ ٢٠٠ ميلا مربعا، وإذا قارنا قصور ملوك مثل د تيسا، و ودوتها جامانى، كما وصفها الكتاب السنغال –- بعصر الإمبراطور دقلديانوس، بدا هذا هزيلا بجانبها . وكانت و الداجوما، – وهي عبارة عن تلال صناعية تبني لتشيد من فوقها المعابد و مشتملاتها المقدسة – ترتفع إلى نحو ثلاثمائة قدم، ويمكن مقارنتها بأهرامات مصر . أما هندسة تنظيم المياه فلم يكن لها مثيل حتى القرن التاسع عشر والعشرين، وعلى سبيل المثال نذكر بحيرة بيتريا التي حفرها و ما هاسن، في القرن الثالث بعد الميلاد، كان قطرها عشرين ميلا، وكانت المباني والخزانات التي صفت لتحويل مياه النهر الذي يغذيها تمتد إلى ثمانين ميلا، ووصل متوسط ارتفاع تلك المباني إلى ثمانين قدماً ..

وقد أدت الحروب التي دامت قروناً بين السنغال والتاميل الغزاة (وكانوا أصلا براهمة) من ناحية، و بين السنغال أنفسهم من ناحية أخرى، إلى إضعاف المملكة، فتهدم نظام الرى الدقيق أو أصابه العطب بسبب الإهمال، وعادت الأدغال تكتسح بقسوة المدن التي كانت قد تحولت إلى حدائق . و بقيت لبعض المدن مثل رأنوراد ها بورا، و و بولو نارووال ذكرى دينية باعتبارها مكان للحج لكنهما فقدتا صفة العواصم، واندثرت مدن أخرى حتى اكتشفها الأوربيون في القرنين التاسع عشر والعشرين . وحتى وقت قريب نسبيا كان من الصعب جدا الوصول الزيارة "أنوراد هابورا " و "بلونارووا" وهما

الموقعان اللذان تعرف عنها أكثر من غيرهما . وكتب هنرى كيف عام ١٨١٧ ينصح المسافرين بقوله :

"من الأفضل استئجار زوج من الخيل وعربة ذات . "يايات" وعربتين تجرهما الثيران لحمل المؤن، وأسرة، ولوازم المعسكرات، كذلك ثلاثة أزواج من الثيران، زوج منها بصفة احتياطية يستخدم في حالة إصابة الآخرين، وحارسين للخيل، وثلاثة سياس للثيران، وطاه معه صد، و حوالي خمسة عشر حمالا . و هذا الجهاز الضخم ضرورى، لأن كثيرا من الأماكن التي تزار تقع بعيدا عن الطرق التي شقت أخيرة عبر الولايات، ولا يمكن الوصول إليها (أي أماكن الآثار) إلا عن طرق دروب عبر أدغال غاية في الوعورة [١] .

ومن حسن الحظ أن مشكلة تفسير ما عثر عليه مدينة السنغال القديمة قد أمكن التغلب عليها بسهولة لوجود كتابات سنسكريتية تحكي قصة تأسيسها وتاريخ الملوك الذين قاموا بتشييدها، كذلك يوجد بالمدن نقوش كثيرة يمكن قراءتها . وأقدم التواريخ المدونة معروفة تحت عنوان "ماها وامسا" وهو أسم أول أو أكبر أسرة حكمت البلاد. ومن الواضح أن أغلب مادون منبثق من الأساطير أو الميثولوجيا (مما يزود من بهجتها)، إلا أنه يشتمل على قدر واف من الحقائق الثابتة . ولاشك أن ملخصة لبعض الأحداث الهامة، سيساعدنا على فهم تلك الآثار بطريقة أوضح. وإني أدين ببعض هذه البيانات إلى كتاب "سيلان" [٢]، تأليف لورد هولدن، وهو من أجمل الكتب الحديثة التي ألفت عن الجزيرة.

---

(١) Cave, Henry W. — The Ruined Cities of Ceylon. — Sampson Low, Marston & Co. 1900.

(٢) Lord Holden. Ceylon. - George Allen & Unwin Ltd. 1938.

وتقول الأسطورة إن أول ملوك سيلان "فيجايا" الأول كان حفيداً لأسد. فحوالى عام ٦٠٠ ق.م – كما جاء في هذه القصة القديمة – كان ذلك البنجال ابنة (يبدو أنها كانت تتسم بعض صفات باسيفاى Pasiphae الملكة الإغريقية)، وكانت هذه الشابة مصابة بجنون الجنس فنزلت سرة ذات مساء من الطابق الأعلى بقصر والدها وغررت با سد كان ما را بالطريق، واستبدت بالوحش شهوة عارمة عندما لمسته الفتاة، فمنها على ظهره، وأسرع بها إلى عرينه، وهناك اقترن بها وأنجبت له الأميرة من هذا القران طفلين توأمين، ولداً وبنتاً .

ويسترسل لورد هولدن قائلا :

"كانت اليدان والقدمان في هذا الابن واسمه سيها باهو، عل شكل (مخالب) الأسد، وعندما بلغ السادسة عشر من عمره سأل أمه دون حذر لماذا تختلفان بهذه الدرجة أنت وأبي يا أماه ؟ ".

وحين عرف الفتي الحقيقة صدم صدمة عنيفة، لدرجة أنه هرب ولجأ إلى عم الأميرة، وكان طبيعيا أن يهتاج الأسد، فعاث في ضواحي المدينة لدرجة أن الملك عرض مكافأة لمن يقتل الحيوان، ولم يعبأ " سيها باهو " بواجبات البنوة، وقتل أباه، فمنحه الملك مملكة بنجال مكافأة له . (وحدث بعد ذلك) أن فيجايا وهو أحد أولاد سيها باهو الستة عشر، ارتكب أعمالا بالغة العنف والقسوة، ففي من الهند، وأصبح أول ملوك سيلان .

ونجد أنفسنا هنا أثبت قدماً، فنحن نعرف أن فيجايا قد غزا جزيرة سيلان حوالي عام ٥٠٠ ق.م. على رأس قوة كبيرة، حيث نزل أولا في الشمال الغربي من الجزيرة ثم أخضعها تدريجيا لسلطانه . كان فيجايا وأتباعه يعتنقون

ديانة البراهمة، وهي ديانة الغزاة الآريين الذين قضوا على حضارة وادى الأندوس القديمة، وبعد ذلك فتحوا جنوب الهند، وكانت سيلان تعرف باسم (لانكا) في التاريخ والأساطير الهندوكية القديمة .

ونحن لا نعرف شيئا عن سكان الجزيرة الأصليين، فالكتابات القديمة تزدريهم و تسميهم (يا كاس) (أي عبدة الشيطان) . كانوا خليط من أنصاف المتوحشين الذين تتفاوت درجة البربرية فيهم، وقد كتب عنهم كيف في ١٨٩٧ يقول : (بقيت منهم بعض قبائل قليلة متناثرة، وهم يرفضون الاتصال بالأجناس الأخرى، وما زالوا يقيمون في الغابات حيث يعيشون على الصيد، وعقائدهم الدينية غاية في البدائية إذ يعبدون الأفاعي و الشياطين، أما عقليتهم فلا تمتاز إلا قليلا عن مستوى الحيوانات الدنيا ...).

وجاء فيجايا وأتباعه معهم بالحضارة العالية التي ورثوها عن أجدادهم الآريين، وما كادوا يستقرون في البلاد حتى بدأوا في تمهيد الطرق وبناء المدن، و تنظيم أعمال الري، ونقلوا إلى سيلان ثقافتهم الوطنية التي عدلوها لكي توائم الاحتياجات المحلية، لكنهم في أول الأمر كانوا من البراهمة وكانوا يعبدون آلهة متعددة .

وفي الجزء الأخير من القرن الثالث ق.م. تحولوا إلى البوذية كما ذكرنا سابقا، ونجد في ال ، ما هاواسا، سردة للطريقة التي تم بها هذا التحول. كان دينا نامبيا تيسا (٢٢٧ – ٢٠٧ ق م واختصار اسمه تيسا) ملكا على "لانكا" ووصلت شهرته إلى الإمبراطور "آسوكا"، في الهند، ومع أن هذا الأخير اعتلى العرش بعد أن قتل تسعة وتسعين من إخوته غير الأشقاء، إلا أنه كان بوذية متدينة . وكان ابنه ما هندا من الكهنة البوذيين، فقرر الملك أن

يرسل ماهدا إلى الانكا ليحول الحاكم السنغالي إلى المذهب الجديد، و تمت المقابلة على جبل د ماهنتال الذي أصبح من ذاك التاريخ أقدس مكان بالجزيرة. ويذكر في الماهاو اسا أن ماهنتا وصل عن طريق الجو و قابل الملك، بينما كان هذا الأخير في رحلة صيد بالقرب من ما هنتال، ودون مقدمات بدأ في استجواب تيسا ليتبين ما إذا كان قد نضج إلى الدرجة التي تسمح له باعتناق المذهب الجديد أم لا.

وسأل ماهندا : وقل لي ما اسم هذه الشجرة ؟.

وأجاب الملك : "إنها شجرة مانجو".

– " وهل توجد أشجار مانجو غيرها ؟ " .

– " يوجد الكثير "

– " وهل توجد أشجار أخرى في العالم غير أشجار المانجو هذه "؟

– " نعم يوجد الكثير من الأشجار لكنها ليست أشجار مانجو ".

– " وبالإضافة إلى أشجار المانجو وغيرها من الأشجار، هل توجد أشجار أخرى في العالم " ؟.

– " نعم، يوجد كثير لكنها ليست أشجار المانجو ".

– " وبالإضافة إلى أشجار المانجو والأشجار التي ليست بأشجار المانجو هل توجد أشجار أخرى ؟".

– وأجاب الملك : " نعم، هذه الشجرة ". وفرح الما هندا وقال : "يا

حاكم الرجال، إنك حكيم " .

وبعد اختبار الذكاء هذا، بدأ ما هندا يلقن تيسا التعاليم البوذية، وتقول الأسطورة إن نجاحه كان عظيمة لدرجة أن الملك وأتباعه اعتنقوا المذهب الجديد في زمن وجيز .

ولإحياء ذكرى هذا الحدث أقام تيسا وخلفاؤه مباني مقدسة على جبل ما هنتال، وكان منها فيهارا (أي دير للكهنة)، كما شيدوا في الصخور عدد كبيرة من مساكن الكهنة، وأقاموا أيضا عددا من الداجوبا وهي تلال صناعية بها مخلفات مقدسة . وبنوا سلما هائلا من الجرانيت يبدأ عند سفح الجبل ويرتفع إلى أكثر من ألف قدم .

وقبل أن يغادر ما هندا سيلان، وعد الملك بإرسال عدة قطع مقدسة من مخلفات بوذا : نابه الأيمن، وعظم طرقوته المني، ووعاء الصدقة، وفرع من الشجرة المقدسة التي كان جالسة تحتها عندما بلغ مرتبة البوذية. وتقول الماها ومسا إن جميع هذه الأشياء وصلت في أوانها و صاحب وصولها معجزات . فعندما أحضر الوعاء المقدس الذي يحتوي على بعض القطع المقدسة قال :

"إذا كانت هذه من مخلفات الحكيم، فلتنحن أمامها مظلتي من تلقاء نفسها وليركع الفيل الذي أركبه على ركبتيه وليهبط فوق رأسي الوعاء الذي يحتوى على المخلفات".

وطبعاً تم كل هذا ورفع الملك الوعاء من على رأسه ووضعه على ظهر الفيل، وفي الحال هلل الفيل فرحة وزلزلت الأرض، وفيما بعد، بينما كانت

المخلفات توضع في محراب خاص اندفع الوعاء مرة أخرى في الهواء واستقر على رأس الملك.

وتكررت نفس التمثيلية مع فرع شجرة البو، فقد أحضر الفرع من الهند إلى سيلان في وعاء ذهبي، ونقل إلى عاصمة آنوراد هابورا ليستقر في المحراب الذي شيد له خصيصاً .

" وفي الساعة التي تصل فيها الأطياف إلى أقصى طولها [1] دخل الموكب حديقة ماهيميجها واشترك الملك بنفسه في وضع الوعاء في مكانه . وفي لحظة انتزع فرع الشجرة نفسه وقفز ثمانين ذراعاً في الهواء وهو معتدل يكلله البهاء، ونشر حوله هالة من الشعاع ذات ستة ألوان... وبعد ذلك عاد الفرع إلى الوعاء على الأرض واندفعت بذوره إلى أسفل و ثبتته في الأرض.

ومع أن هذه الأساطير ساذجة وجميلة، إلا أنه من الضروري أن نتذكر أنها هي والمذهب الذي ترمز إليه كانت الدافع الذي أدى إلى بناء المدن العظيمة في سيلان. ويستطيع المرء أن يرى حتى الآن في آنوراد ها بورا شجرة الو " بو " وربما كانت من سلالة نفس الشجرة التي زرعها تيسا منذ أكثر من ألفي عام (هذا الشجر من فصيلة تتوالد من تلقاء نفسها). وفي ذلك المكان وغيره نستطيع أن ترى أيضا الداجوبا (محاريب) العديدة الهائلة الحجم، وهي مبان أقامها الملوك الورعون عبر أجيال متتالية لحفظ المخلفات المقدسة، وقد ألحقت بهذه المحارب التي تختفي الآن تحت أدغال تمتد آلاف من الأميال، مبان كانت جميعها تستهدف نفس الهدف الرئيسي، وهو تمجيد بوذا، كذلك نرى الأديرة التي عاش فيها آلاف الكهنة (ويسمون

([1]) وقت الغروب .

تيرا)[1] بملابسهم الخاصة والقصور الملكية الفخمة بحدائقها وورودها، ومتنزهاتها الفسيحة ومساكن العمال الذين يقطعون الأحجار ويصنعون التماثيل، ومساكن صناع الذهب والفضة والعاج والصياغ الذين يصقلون الحجارة الكريمة التي كانت تتألق في المحاريب والمعابد، لقد كان هؤلاء جميعا يسهمون في أعمال دينية، تماما كما يسهم الآلاف الذين يزرعون الغلال وحقول الأرز وينتجون الغذاء اللازم لجيوش الموظفين والكهنة والمتعبدين.

ورغم صرامة المذهب البوذى و تمسكه بالسلوك السوي والتفكير القويم، وإصراره على الطهر وقدسية الحياة بالنسبة للبشر والحيوان على السواء فإن تاريخ الملوك السنغاليين قد تلطخ بالدماء، كشأن معظم المالك الشرقية . فهو نفس التاريخ الذي نعرفه عن الاستبداد والقسوة، وسفك الدماء، والقتل، والاغتيال. وكان إستعمال الخوازيق والسحل تحت أقدام الفيلة ووأد المحكوم عليه داخل جدار، من أساليب العقاب عندهم. حقا كان بعض ملوكهم يتسمون بالإنسانية و فعل الخير، ونبل الخلق والأريحية، لكن كثيرة منهم كانوا سفلة و منحلين . ومع ذلك فإن هذا الوضع ينطبق أيضا على بعض الحكام من المسيحيين والمسلمين.

وبعد موت تيسا استمر نفوذ البوذيين وزاد بأسا لمدة خمسين عاما وازدادت آنورادهاپورا جمالا وأبهة . ثم حدث حوالي ١٤٥ ق.م أن فتح سيلان أحد التاميل من جنوب الهند وكان يسمى الارا . ونظرا لأنه كان هندوكية، وبالتالي معادية للبوذية، فقد أهمل ودمر أجزاء كبيرة من مدينة تيسا

---

(١) على الرغم من أن كلمة تيرا تترجم عادة إلى كاهن، إلا أن الأنسب استعمال كلمة مبشر، لان التيرا لا يقوم بطقوس دينية .

. ومع ذلك ظلت شجرة ال "بو" باقية لأن البراهمة أيضا كانوا يقدسونها . في ذاك الوقت كان من تبقى من سلالة الملوك السنغال المخذولين، يقيمون بمنطقة التلال في "راهونا" ويتآمرون الاسترجاع مملكتهم . وكان من بينهم أخوان : الأمير "جامانى" و " تيسا" (آخر) وكان مقدراً أن يكون لهما نفوذ كبير على مستقبل سيلان .

كان جاماني شاباً حاد الطبع وقد أثاره رفض أبيه الإذن له بمحاربة " إلارا " لدرجة أنه أرسل (لأبيه) رداء امرأة ومعه رسالة يقول له فيها (لو أن أي كان رجلا لما خاطبني هكذا، وخليق به أن يلبس هذا الرداء)، وعوقب الفتى الوقح على عمله هذا بالنفي المؤقت إلى د ميليه، ولكن أفراد الشعب السنغالي كانوا يكون له الإعجاب، وقد أطلقوا عليه اسم " دوثا " أي الغاضب. وهكذا أصبح معروفا باسم دوثا جاماني، وهو الاسم الذي كان يحمله عندما استرد آنورادها بورا وهو يمتطى فيلا كبيرا أمه كاندولا (وهو يفوق الفيلة جميعا من حيث القوة وجمال الشكل والسرعة وضخامة الحجم).

وعند هذه النقطة تتخذ القصة طابعا هو مرية : فكما اشتبك آخيل و هكتور في الإلياذة، يشتبك هنا كل من و دوثا جاماني، وإلارا في معركة فردية، لكنهما لم يكونا راجلين، وإنما فوق ظهور الفيلة، و تقابل الملكان خارج بوابة آنورادهابورا الجنوبية، بعد أن تقهقر التاميل أثر معركة حامية . وصرخ الملك السنغالي قائلا :

(لن يقتل إلارا سواى) واندفع بفيله على عدوه مجتنباً الرمح الذي صوبه إلارا نحوه و مزق كاندولا قيل إلارا بأسنانه، فوقع على الأرض، وعندئذ قفز دواجاماني من فوق الأرض، وأسرع يجهز على خصمه بخنجره.

وبعد ذلك قام الملك المنتصر بدفن رفاة إلارا في حفل مهيب، وفيما بعد كان ملوك سيلان يترجلون عند مرورهم بالنصب المقام على قبره ويقدمون التحية لعدو شجاع . وبعد ألفي عام من هذا التاريخ عندما هزم البريطانيون آخر المطالبين بعرش السنغال، ترجل هذا الأخير في المكان التقليدي الذي قضى فيه الارا نحبه وقدم له التحية . كان هذا عام ١٨١٨.

وخلف (دوثا جاماني) الملك تيسا فواصل برنامج البناء العظيم في انورادها بورا إلى أن استرد التاميل المدينة منه بعد ثلاثين عاما . وشهدت المدينة مزيدا من أعمال السلب والنهب والتدمير حتى عام ٢٧ ق.م حين استردها الملك السنغالى (فائاجامانى) أما ابنه كورانجا الذي حكم في أوائل العصر المسيحي، فلم يذكر في (الماهاو مسا) إلا ذكرة عابرة، بينما تظفر زوجته أنولا، بقسط وافر من الاهتمام، وذلك الأسباب سوف تتضح بعد قليل.

فقد قتلت ستة ملوك كان خمسة منهم أزواجا لها. تخلصت أولا من كورانجا عندما وقعت في غرام سيفا وهو أحد حراس القصر . وكان تيسا وريث كورانجا الشرعي، فوضعت له السم هو الآخر ليستولى سيفا على الملك، وبعد عام و شهرين ملته فوضعت له سما لتتزوج من نجار أعجبها . وحكم هذا الأخير – وكان يدعى فاتوكا – سنة وشهرين، أغتيل بعدها ليفسح المكان لحطاب اسمه تيسا، ودام هذا الأخير سنة وشهرين كذلك، ثم أعقبه نيليا أحد كهنة القصر الذي تذكر المها وامسا أنه كان آخر من لقي نفس المصير، ذلك أنه عندما أرادت الأميرة آنولا أن تشبع أهواءها مع اثنين وثلاثين من حرس القصر (وهي التي ذكرت العدد) قتلت نيليا بالسم وحكمت أربعة شهور، وعندئذ رأى كو تانكانا تيسا، وهو ابن أخ أول ضحا يا آنولا، أن الأمر قد تفاقم وجاوز كل حد، فأعدم الملكة واعتلى العرش، وحكم

ورثته مائتي عام من بعده . وخلال هذه السنين مرت فترة نضال بين الملكية وهيئة الكهنوت، الأمر الذي جعل ماهاستا – وهو أحد الملوك الذين تولوا العرش في أواخر تلك الفترة – يهدم القصر النحاسي وهو مقر البوذية العتيد في لانكا، ودفعه إلى مساندة أقلية من الكفرة، لكنه عاد إلى مذهبه آخر الأمر، وأقام (للبيخوس) محرابا يعد من أضخم الداجو با في (انورادها بورا) وسمي هذا المحراب (جيتا فانارامادجوبا) كما حفر الخزانات العظيمة (وهي في الواقع بحيرات صناعية هائلة المساحة) في ميتريا، وكانتالاى .

وتعاقبت على العرش بعد هذا الملك سلسلة من الملوك الضعاف الذين ينتمون إلى أسرة (سولا وامزا) (أي الأسرة الأدنى مرتبة)، وكانوا أقل قدرة على رد غزوات التاميل المتكررة، وضعفت الدولة وبدأت سيلان تفقد ثراءها واستقلالها، وخلال القرن الثامن الميلادي اضطر الملوك إلى ترك عاصمتهم القديمة و بناء عاصمة أخرى جديدة في بولو ناروا، بينما احتل التاميل (آنوراد هابورا) ونهبوها . وفي عام ١٠٠٠ بعد الميلاد، سقطت بولو ناروا أيضا، ولكن ملوك سيلان استردوا مجدهم فترة قصيرة من الزمن عندما انتصر فيجايا باهو الأول عام ١٠٦٥ على عدوه القديم وتوج ملكا على لانكا. أما حفيده بارا كراما با هو الأول، الذي فاقه شهرة و مجدا، فقد جمع جيشا يربو على مليوني جندي واكتسح الهند، وانتصر على ملك باندي واضطره إلى دفع الجزية لسيلان . وحين عاد إلى الجزيرة أعاد بناء بولو ناروا و شيد سلسلة من التحصينات حول المدينة، ومسرحا للرقص والغناء، ومكانا جذابا يقوم على عامود واحد يبدو وكأنه انبثق من الأرض . – وكانت أرضه من ذهب ويضيئه شمعدان واحد [1] كذلك رسم الملك كثيرة من مباني العاصمة السابقة التي

---

(1) Lord Holden. Ceylon, George Allen and Unwin, 1938.

كادت تختنق تحت الأدغال حيث تتربص الدببة والنمور (كما ذكرت المهاوامسا)، واستتب السلام والأمن بالجزيرة لدرجة أنه " أصبح في وسع أية امرأة أن تعبر الجزيرة بجوهرة ثمينة دون أن يعترضها أحد".

وكانت هذه آخر ومضة للشعلة، فما كاد الملك (بارا كراما باهو) يقضي نحبه حتى انهارت أمجاد حضارة سيلان القديمة بصفة نهائية، وتعددت غزوات التاميل وحكم البلاد ملوك أنانيون من السنغال، وتجمعت الأسباب للقضاء على الحضارة المكينة التي سادت في الأيام الغابرة . وخلال فترة قصيرة من القرن الخامس عشر، حوالي نفس الفترة التي قامت فيها حرب الوردتين بانجلترا، اكتسح الجيش الصيني سيلانو أخذ ملك السنغال أسيرة إلى بكين، لكن الاحتلال الصيني انتهى في أواخر عام ١٥٠٠، و بعد اثنين وعشرين عاما أخرى، وقف بين يدي الملك السنغالي واحد من رسله وقال له منفعلا.

" يوجد في ميناء كولومبو أناس من جنس أبيض البشرة، ملامحهم جميلة ويلبسون سترات وخوذات من حديد، وهم لا يستقرون دقيقة واحدة في مكان واحد .. وهم يأكلون ألواحة من العثوب الأبيض ويشربون دماً . معهم مدافع لها صوت أعلى من صوت الرعد، والكرة التي تنطلق منها تسير مسافة فرسخ ثم تستطيع هدم قصر من المرمر ".

كان هؤلاء بحارة سفن برتغالية دفعهم التيار إلى ميناء كولمبو، وهكذا وصلت أوربا إلى سيلان بعد أن بني أول ملوكها مدينة آنورادها بورا بأكثر من ألفي عام، وخلال هذه القرون العشرين نمت حضارة غنية، وازدهرت ثم تلاشت . وعندما بدأ البرتغاليون والهولنديون والإنجليز في استكشاف (أرض

بلا أحزان) لم يكن هناك ما يستحق الذكر من تلك الأمجاد، ومع ذلك فقد كان الأهالي يتحدثون عن أطلال مدينة في الأدغال الشمالية .

وخلال القرن التاسع عشر، بعد أن أصبحت سيلان من الممتلكات البريطانية قام عدد من المغامرين برحلات إلى داخل الجزيرة واكتشفوا هذه المدن القديمة . و نشر (ميجورفوربس) – وهو أحدهؤلاء الرحالة — كتاب بعنوان (أحد عشر عاما في سيلان).

ووردت في الكتاب قائمة تتضمن أسماء مائة وخمسة وستين ملكا سنغالية، وهي تبدأ على النحو التالي :

١– فجايا ٥٤٣ ق . م – حكم ٣٨ سنة – مؤسس أسرة فجايا .

وتنتهي هكذا.

١٦٥ – سرى ويكريما راجا سنغا (كاندى) ١٧٩٨ م – حكم ست عشرة سنة – ابن اخت زوجة الملك المتوفي – خلعه الإنجليز ومات في الأسر .

وقد جمعت هذه البيانات – بطبيعة الحال – من السجلات السنغالية القديمة. وبصرف النظر عما فيها من عناصر ميثولوجية، فقد ثبت أنها سليمة الجوهر . وقد ذهل فوربس وغيره من المستكشفين بما عثروا عليه من قرائن تدل على وجودمدن لا مثيل لها في الحضارات القديمة، سواء في أوربا أو في غربي آسيا، و يقول فوريس " إن المكان الذي ازدهرت فيه تلك المدن أصبح الآن مسرحا تزمجر فيه الفيلة وتعدو فوقه الخنازير البرية والغزلان، و تسمع اصوات الطواويس بصورة تزيد من وحشة الصمت المقبض الذي توحي به

غابة كثيفة تموج أشجارها فوق مدينة مدفونة".[1]

ثم يسترسل قائلا :

" إن جميع أطلال آنورادهابورا – بما في ذلك تلك الصروح الشاهقة التي تحتوي على مخلفات بوذا – تكسوها الأدغال كلية أو تخفي الغابة أجزاء منها، مرقد ملأها خيال الأهالي بأشباح المدرسين وأرواح الكفرة الذين كتب عليهم أن يسر حوا دون هدف بين جدرانها المالية التي شهدت آثامهم وكتب عليهم أن يشاركوها في وحشتها ... والمكان الوحيد الخالي من الأدغال هو واجهة المعبد الكبير حيث توجد شجرة فارعة الظلال في وسط ميدان، كما يوجد عامود من الحجر ارتفاعه أربعة عشر قدماً وبجانبه تمثال ثور من الجرانيت يدور على محور ".

ومن هذا الميدان يرتفع درج إلى ساحة حولها سياج و تتوسطها شجرة ال "بوه" المقدسة ويمكن الجزم بأنها نفس الشجرة التي زرعها ديفانامبياتيسا. ويقول فوريس وإن هذه الشجرة هي أهم ما يجله الحجاج الكثيرين الذين يفدون إلى و آنورادهابورا وهي لا تزال قائمة في مكانها يقدسها الملايين.

ووصف فوريس كذلك القصر النحاسي الذي أقامه دوتها جاماني والذي يحتوى على ألف وستمائة عامود منظمة في أربعين صفة متوازية، وبكل صف أربعون عامودا، والأعمدة كلها تحتل مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها ٢٣٤ قدما . و يذكر المؤلف كذلك محراب « داجوبا آروناد » هابورا الذي بناه دوتها جاماني وسط مصطبة مربعة مرتفعة مغطاة بحجر الجرانيت المصقول.

---

(1) Forbes, Major. Eleven Years in Ceylon, London, 1840.

ويبلغ طول ضلع المصطبة ٥٠٠ قدم، ويحيط بها خندق عرضه ٧٠ قدماً . وجوانبها منحوته بشكل يمثل النصف الأمامي من الفيلة بارزا حتى تبدو تلك الحيوانات وكأنها تحمل هذا البناء الضخم على ظهورها ".

وبالقرب من الداجوبا أشار الدليل لفورس (كما يفعل حتى يومنا هذا) إلى لوحة من الجرانيت حمل عليها الملك و هو يحتضر لكي يشاهد أعماله المجيدة، وهي المحراب روان وللى و القصر النحاسي (Brazen Palace) لوهاباً سابا الذي لم يبق منه إلا الأعمدة . وتقول عنه الماهاوامسا:

"تبلغ مساحة القصر مائة ذراع مربعة، وارتفاعه مائة ذراع، وبه تسعة طوابق، وبكل طابق مائة شقة . وجميع هذه الشقق مزينة بالفضة . وبها أفارين مرصعة بالجواهر، وزخارف الزهور التي تزينه محلاة هي الأخرى بالجواهر، وكذلك كانت حيال الزينة ذات الرنين مصنوعة من الذهب، وبه ألف غرفة النوم لها نوافذ مزينة تبرق كالعيون،.

وجاء في المهاوامسا عن القاعة التي تعتبر أبرز معالم هـ ذا القصر النحاسي ما يلي :

"إن هذه القاعة ترتكز على أعمدة من ذهب تمثل أسود وحيوانات أخرى، وكانت تزينها عقود من اللؤلؤ ممتدة على طول الحائط . وفي وسطها تماما كان يوجد عرش جميل أخاذ مصنوع من العاج، على أحد جوانبه رمز الشمس من الذهب وعلى جانب آخر رمز القمر من الفضة، وعلى جانب ثالث النجوم مصنوعة من اللؤلؤ .

وكانت تكسو البناء كله ألواح من النحاس، ومن ثم سمي " القصر

النحاسي " وقد أزيلت الأعشاب عن تلك المباني التي رآها فوريس وزملاؤه منذ أكثر من قرن مضى، ورمت ترميمة جزئيا . وكافح الأثريون البريطانيون ومن بعدهم السنغاليون خلال أعوام، لإنقاذ تلك المدن التي اندثرت من العطب، وأزالوا الأشجار والأعشاب عن الأماكن التي كانت فيما مضى حدائق ومنتزهات أنيقة تزدان بها آنوراد ها بورا وبولو ناروا، وغيرها من المدن. و يستطيع المرء أن يصل إليها عبر طرق ممهدة شقت، حيث اضطر كيف وفوريس إلى الكفاح خلال الأدغال، وحيث لاحظ روبرت نوكس قبل ذلك بقرن ونصف قرن من الزمان – وهو هارب من حكم صدر ضده بالسجن لمدة تسعة عشر عاما – لاحظ في أماكن متفرقة على ضفاف النهر أكداسة من الأعمدة الحجرية، وأكواما أخرى من الحجر ... كانت – كما اعتقد –– مباني فيما مضى،...

ويستطيع المرء أن يتمتع برؤية محراب ، التراب الذهبي، الذي شاده الملك دو تا جاماني ليضع فيه أثر قدم بوذا المقدس و مجموعة ثمينة من الذخائر . ويرتفع هذا المحراب ٢٧٠ قدما و محيطه ٢٩٤ قدماً . كما أنه مبني بالطوب الأحمر.

وكتب هولدن يقول :

"ويشبه المحراب من بعيد كرة هائلة حمراء تتوجها قبة ذهبية يخطف تألقها الأبصار، وإذا اقترب المرء منه رأى أمامه بروزة أشبه بالسقالة، يدور حول المحراب ويزيد من ضخامته . وعلى هذا الجانب الشرقي للمبني سبعة تماثيل هي أجمل ما اكتشف في سيلان . وتمثل أحدها الملك نفسه، بينما تمثل الأخرى الآلهة « بوذا، الأربعة الذين زاروا الأرض.

وعلى مسافة قريبة من المعبد يوجد تمثالان فوق عدد بسيط من الدرج تمثل الملك دو تا جاماني وأمه . وأروع ما في هذه التماثيل هو جمال الأيدي المتشابكة وهي منحنية انحناءة طفيفة نحو الصدر، تزين صدر الأم مجموعة من القلائد و العقود، وتتوج رأسها قبعة يغلب على الظن أنها صينية الأصل، أما وجهها فتشيع فيه أمارات الطمأنينة، ويذكرنا منظر وجهها الجاني بالتماثيل الإيطالية البدائية للعذراء . ولا يمكن أن نفي هذه التماثيل حقها من الجمال مهما بالغنا في القول [1] .

وقد أبقى الزمن على بعض تماثيل قليلة متناثرة في انوراد ها بورا وبولو ناروا وغيرهما من الأماكن، ورغم عددها القليل فإنها تدل دلالة كافية على جمال الفن السنغالي، وهي تمثل ابتسامة نحيلة لكنها جميلة التنسيق، دقيقة الملامح، فيها رقة تشبه رقة زهور اللوتس التي يمسكون بها . ويصف لنا " كيف " لوحة منقوشة اكتشفت في محراب ابهاياجيريا فيقول :

" بأعلى اللوحة صورة رجل .... وفوق رأسه هالة مكونة من ثعبان الكوبرا ذي الرءوس الخمسة، وقد أمسك بيمناه بعض الزهور، بينما وضع يسراه على خاصرته . وفي أسفل اللوحة صورة امرأة على رأسها غطاء مخروطي الشكل، ونصف جسدها العلوي عار تزينه بعض الحلى، أما النصف السفلي فيكسوه رداء شفاف، ويحلى ساقيها خلخال و على كفها الأيمن إناء به زهرة اللوتس".

إن الفن القديم في سيلان يتسم بصفات متناقضة، فهو يجمع بين القوة والرقة، والشهوة والزهد، والقسوة والرفق، وقد تفسر لنا تلك الصفات المتناقضة شيئا عن طباع الشعب نفسه، فنحن نجد أهل سيلان يتصفون

---

(1) Lord Holden. Ceylon.

بالقوة وحب السلطان، كما رأينا أهل نينوى وبابل والحيثيين، ونحن نجد عندهم ذلك التل الهائل الذي شيدوه من الطوب الأحمر على هيئة ناقوس ضخم، وقد ارتفع نحو خمسين قدم) أكثر من ارتفاع كاتدرائية القديس بول، كما نجد السلم الجرانيتي العريض الذي يرقي ألف قدم فوق جبل مييننتال، وقلعة سيجرى ذات الأروقة العديدة التي تشرف من على على مادونها، و محراب جيتا واناراما التي استلزم بناؤها خامات تكفي لبناء ثمانية ألف منزل تمتد واجهة كل منها عشرون قدما، أو لبناء جدار ارتفاعه عشرة أقدام و عرضه قدما وطوله يصل ما بين لندن وأدنبرة.

وبجانب هذه المباني الهائلة التي تمثل القوة توجد أشياء تمثل الرقة، فهناك شوارع كانت تزينها حيال من الزهور يمر فيها الملوك على ظهور فيلة مسرجة بالذهب . وهناك المحاريب المرصعة بجواهر دقيقة الصنع، وهناك تماثيل بوذا متربعا يفكر بهدوء . وهناك الراقصات الباسمات بأردافهن المتماثلة وهن يتنقلن برشاقة حالمة مساهمة ورثتها عنهن الأجيال التالية .

الفصل التاسع

نهاية مدينة

لكل من واتاه الحظ فسافر إلى البلدان القديمة، مدن قريبة إلى نفسه من بين تلك التي اندثرت، ولقد استهوتني بالميرا في صحراء سوريا (وقد جاء وصفها في كتاب One Man ' s Journey)، ثم بومي التي كتب عنها أكثر مما كتب عن أية مدينة أخرى . لذلك أرجو المعذرة إذا وجد القارئ أن هذا الفصل من كتاب يأتي دون غيره من حيث أتباع الطريقة الموضوعية في وصف المدن، لأن ذكرياتي عن بومى ذكريات شخصية إلى حد بعيد لأسباب سوف تتضح بعد قليل . وهي ذكريات يشاركني فيها على ما أعتقد كثير من المحاربين الذين اشتركوا في القتال فوق الأراضي الإيطالية سنة ١٩٤٤.

لم يكن في نيتي أن أزور مقاطعة كامبانيا حيث تقع بومبي . والواقع أني نقلت إليها في سيارة إسعاف . وكنت قد عينت مراسلا حربية في أوائل صيف عام ١٩٤٤ في سلاح الطيران الملكي لإخراج برامج الإذاعة عن نقل قوات الطيران في شمال إفريقيا وإيطاليا وبورما . وكانت هذه أول مرة أغادر فيها انجلترا وهو أمر مثير بالنسبة إلى . لذلك حزنت حزنا شديدا عندما أصبت في نابولي يحمي حسبها الأطباء أول الأمر مجرد نوبة برد، ثم اتضح فيما بعد أني مصاب بالتهاب رئوى حاد. وأذكر وكأني كنت في حلم الولية الفخمة التي أقامها ضباط الفرقة ٢١٤ ذات مساء، ثم نقلي بعدها في رحلة طويلة على ساحل خليج نابولي إلى مبنى جدرانة " وردية اللون " يقع وسط الحدائق و بساتين الزيتون .

وفي اليوم التالي لوصولي أفقت مبكرا في عنبر المستشفى على صوت

هزيم مزعج مصحوب بهزات، وحسبت أن السبب هو حدوث انفجار في المنطقة المجاورة . وعندما حضرت الممرضة لقياس درجة حرارتى سألتها إذا كان العدو قد ألتي علينا قنابله أثناء الليل، وأجابتني بهدوء وبساطة: "تعني هذا ؟ إنه بركان فيزوف".

وسالتها : فيزوف ؟ وهل نحن قريبون منه ؟

فأجابت : قريبون ؟ إننا فوقه [1] – وخرجت مسرعة بالترمومتر" .

و اعتدت خلال فترة النقاهة أن أجلس في الشرفة، أنظر إلى قمة البركان المخروطية تتصاعد منها بين وقت وآخر سحابات من الدخان، منصت إلى القصص الممتعة التي يرويها إلى زملائي الذين رأوا الانفجار المشهور الذي حدث قبل وصولي بعدة أسابيع. وكنت أتمنى سراً وأنا خجل من نفسي أن يثور البركان مرة ثانية، لكني كنت سيئ الحظ مع البراكين، فقد صادفتني نفس التجربة بعد تسع سنوات وأنا في المكسيك. إذ قمت برحلة شاقة عبر البلاد لأرى بركان باراكوتين الذي بقي ثائرة بعنف عدة أسابيع، بيد أني ما كدت أصل إليه حتى وجدته جبلا هادئة من الرماد، لا يتنازل حتى بمجرد فورة واحدة ... و تصادف مرة أن رأيت بركان سترومبولي في ثورته وأنا محلق فوقه في طائرة، لكني متأكد أنه كان سيهدأ في الحال لو أننا هبطنا إليه .

إن هذه التأملات ليست سوى عرض أردت أن أوضح به الطريقة الغريبة التي وصلت بها إلى مدينتي بومي و هركولانيوم المطمورتين. وقد أثبتت زياراتي التالية عام ١٩٥٢ أن انطباعاتي الأولى عنهما كانت صحيحة . إن

([1]) كان المستشفى في تورى ديل جريكو، في سفح الجبل .

عام ١٩٤٤ لم يكن وقتاً موفقا لزيارة بومبى، فالحرب قد أوقفت أعمال الحفر في ذلك التاريخ والأنوار الكاشفة التي تمتد في الأفق نحو الشال تجعل البحث عن الآثار مسألة غير ذات موضوع . كانت الشوارع العتيقة مكتظة بالمارة لكنهم ليسوا من المهتمين بدراسة الآثار وإنما جنود يقضون أجازاتهم . والواقع أنني لم أكن في حالة تسمح بالدراسة الجدية، ورغم انضمامي إلى طابور الجنود لمشاهدة بيت الدعارة الروماني (وهو أشهر الأماكن الأثرية)، فقد ارتقيت جزءا من الجبل وقفزت فوق الحمم وهي بعد دافئة، لكن انطباعاتى جميعا كانت سطحية .

أو لعلني أحسست بذلك حينئذ، فبعد الحرب، وبعد مضي ثماني سنوات على زيارتي الأولى لبومبي، حين عدت إليها سائحا وشاهدت أطلالها على مهل، بقيت انطباعاتي الأولى هي الأعمق . في تلك الأيام كان الرماد الذي يغطي الشوارع ودمدمة البركان التي تحدث بين حين وحين، والقصص التي نسمعها في الحانات عن القوى التي طمست، وعن السكان الذين هجروا منازلهم، كان كل هذا يجعلها أقرب إلى الكارثة الأولى التي أودت بمدينة بومبي عام ٧٩ ميلادية.

وبخلاف جميع المدن التي وصفت في هذا الكتاب، لم تتلاشى بومبي بطريقة تدريجية، إنما قضت فجأة بضربة مروعة . ونحن نستطيع أن نتخيل سقوط تلك الضربة خلال وصف شهود العيان من الرومان، فقد مات بليني الكبير في الكارثة وهو يقود الأسطول الروماني عند ميسينيوم، ووصف أبن أخته بليني الصغير ذلك الحادث في خطاب أرسله إلى تاكيتوس بأسلوب نابض يجعلنا نعيش التجربة، كتب يقول :

"في الرابع والعشرين من شهر أغسطس، حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر طلبت أمي منه (من بليني الكبير) أن يراقب غرامة غريبة الشكل والحجم، وكان خالي قد أخذ قسطه من الجلوس في الشمس، ثم أخذ حمامة باردة وتناول غذاءه ثم بدأ في دراساته، وفي الحال طلب حذاءه وذهب إلى مكان مرتفع يستطيع أن يراقب منه تلك الظاهرة بوضوح. ولم يكن من السهل عليه – لبعد المسافة – أن يتحقق من الجبل الذي لفظ تلك السحابة، لكن تبين فيما بعد أنه جبل فيرزوف و ليس في وسعي أن أصفها بأكثر من أنها كانت شجرة الصنوبر التي يزيد ارتفاعها عديدة من الفروع . وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أن رها دفعتها إلى أعلى ثم ما لبث أن توقفت، فإذا السحابة تتسع و تأخذ في الاختفاء في نفس الوقت، أو لعل صورتها تلك كانت نتيجة لثقلها . وكانت تبدو أحيانا بيضاء اللون، وأحيانا أخرى داكنة اللون تتخللها البقع وكأنها تحمل تراباً أو رماداً ".

"وقرر خالى، مدفوعاً بروحه العلمية، أن هذه الظاهرة تستحق المراقبة عن قرب . فأمر بإحضار مركب خفيفة و ترك لي حرية مرافقته إذا رغبت في ذلك". ويبدو أن بليني الصغير كان يفتقر إلى حب الاستطلاع وروح المغامرة التي يتسم بها خاله فأجابه : " إني أفضل الاستذكار . – و تصادف أنه كان قد كلفني كتابة موضوع في الإنشاء .. و يتضح لنا خلق بليني الكبير ما حدث بعد ذلك . فقد أرسلت له ركتينا (زوجة صديقه باسوس) رسالة تخبره فيها أن الفيلا التي تقيم بها في خطر وأنها لا تستطيع الهرب إلا عن طريق البحر . فغير خطته الأصلية وواصل، بروح البطولة والتضحية، العمل الذي كان قد بدأه بروح فلسفية . ولم يكن ذلك كله كافية لصرف بليني الصغير عن نشاطه الأدلي مما جعل بليني الكبير بحر بدونه بعد أن أمر بإعداد زوارق كبيرة

لتصحبه في الرحلة . وكان ينوي مساعدة الكثيرين، لا ركتينا فقط، لأن الفيلات كانت كثيرة العدد على ذلك الشاطئ الجميل . وأسرع نحو المكان الذي كان الناس يفرون منه، واتجه مباشرة إلى مركز الخطر . ولم يشعر بأدني خوف حتى لقد استطاع أن يملى ملاحظاته على تحركات ذلك الشيء المرعب والتغيرات التي تطرأ عليه .

"كان الجمر المتساقط يزداد كثافة وحرارة كلما اقترب خالي من الشاطئ، ثم أخذ يسقط في القوارب ذاتها، كما بدأت حجارة الخفاف تسقط كذلك ومعها حجارة اسودت و تشققت من تأثير النيران . ثم بدأ البحر يفور من تحتهم بينما تكدست فوق الشاطئ الانهيارات المنزلقة من الجبال . وبعد أن فكر لحظة فيما إذا كان يجب أن يتقهقر، قال للقبطان الذي شجع السير قدما : إن الحظ يساعد الشجعان، خذني إلى بومبو نيانوس، وكان بومبو نيانوس عندئذ في ستا بياى – التي تقع في منتصف الخليج – ... وقد أعد أمتعته إذ أدرك أن ستا بياى – رغم بعدها عن الخطر مؤقتة – فلسوف تتعرض له عما قليل، لذلك قرر أن يهرب بمجرد أن تتوقف الريح المضادة . لكن تلك الريح المضادة كانت في مصلحة خالي إذ أوصلته إلى بومبو نيانوس، وعندما التقي به، احتضن صديقه الملتاع وطمأنه وشجعه ثم طلب أن يعدوا له الحمام، وبعد أن اغتسل جلس إلى مائدة العشاء منشرحة، أو متظاهرة بالانشراح وهو أمر لا يقل بطولة".

، إبان ذلك كان بركان فيزوف يشتعل في عدة أماكن وينشر لهيبة يضيء ظلمات الليل ويبدد حلكتها، لكن خالي، ليهدئ روع صديقه، مضى يقول : إن السكان الفزعين قد تركوا بعض النيران مشتعلة، وأن ما يرونه أمامهم ليس سوى قرى مهجورة تشتعل فيها النيران.

أما عن تجربته الخاصة في تلك الفترة، قد كتب بليني الصغير يقول : "قبل ذلك كانت تحدث هزات أرضية تستمر عدة أيام، ولكنها لم تكن تفزعنا كثيرة لأنها كانت مألوفة في كامبانيا، ولكن في تلك الليلة كانت (الهزات) قوية عنيفة حتى ليعتقد المرء أن الأرض لا تهتز لحسب وإنما تنقلب رأسا على عقب . وأسرعت أمي إلى حجرتي، وكنت أجد في ترك الفراش وفي نيتي أن أوقظها إذ كانت نائمة، وجلسنا في ساحة المنزل الأمامية التي تفصله عن البحر بمسافة قصيرة . وطلبت نسخة من كتاب ليني و بدأت أقرأ، بل وأختار الفقرات التي أحتاج إليها وكأن شيئا لم يكن، ولست أدري إذا كان تصرفي هذا شجاعة أم قلة خبرة فقد كنت حينذاك دون الثامنة عشرة من عمرى ".

وفي نفس الوقت كان سكان بومى و القرى والفيلات المحيطة بها يعتقدون أنهم يشاهدون مردة في السماء . وفي ذلك كتب ديوكاسيوس يقول:

"عدد من الرجال أكبر من حجم البشر بكثير، أو هي مخلوقات، تشبه في الواقع ما جاء في وصف المردة، كانت تظهر أحيانا على جوانب الجبل، وأحيانا على الأرض المحيطة بنا، وأحيانا في المدن، سارحة فوق الأرض صباحا و مساء، بل وطائرة في الهواء .... وكانت تسمع دمدمات متواصلة في باطن الأرض كأنها هزيم الرعد، وفوق سطحها كأنها الفحيح، وأخذ البحر في الزئير ورددت السماء صداه . وفأة سمع صوت شيء يتحطم وكأن الجبال تهوى و تتحول إلى خراب، وفي أول الأمر أنطلقت الحجارة وارتفعت إلى قمة الجبل، ثم اشتعلت نيران كثيرة وانتشر دخان لا آخر له حتى تسربل الجو كله في الظلام واختفت الشمس تماما ... واعتقد البعض أن المردة قد انطلقوا ثانية ثائرين (وفي تلك اللحظة أصبح التحقق من شكلهم ممكنا خلال الدخان، فضلا عن قرع الطبول الذي تناهى إلى الأسماع)، بينما اعتقد

البعض الآخر أن العالم كله تحول إلى شعلة من النيران المضطرمة .

لكن ديوكاسيوس كتب هذا الوصف بعد مرور مائة وخمسين عاماً على ثورة البركان، واستقى معلوماته من كتابات معاصريه التي فقدت بعد ذلك . ومن القصص التي سمعها من السكان . أما بليني الصغير الذي كان منهمكا في قراءة ليفي، بينما يتهاوى مسكنه، وترتعد أمه وهي تفكر في شقيقم) الموجود في الخليج غارقة في الظلام، فقد كانا من شهود العيان . وفيما يلي ما دونه الشاب وهو يصف اليوم التالي :

"كانت الساعة السادسة صباحاً ولا يزال الضوء خافتاً، وكانت المباني من حولنا تتأرجح، ومع أننا كنا في مكان مكشوف، إلا أنه كان ضيقا ومحصورة، ويخشى علينا من خطر حقيقي و محتوم إذا انهار البناء . وقرر الاثنان أن يرحلا عن المدينة ".

"وبعد خروجنا من المنزل وقفنا وسط أغرب وأبشع منظر . كانت العربات التي أمرنا بإحضارها تنزلق إلى الأمام وإلى الخلف مع أنها على أرض منبسطة، ولم يجد وضع حجارة خلف العجل لتثبيتها، ثم رأينا البحر وكأنه انحسر إلى الوراء مدفوعة بحركة تشنجية من الأرض . ومن المؤكد أن الشاطئ اتسع جدا عما كان عليه و ظهرت فوقه مجموعة كبيرة من الحيوانات المائية أصبحت أسيرة على الأرض اليابسة . وعلى الناحية الأخرى من الخليج انفجرت غمامة سوداء مخيفة وأخذت تنفث الدخان في سحابات لولبية، و من وقت لآخر كانت تتثاءب لتكشف عن الحب طويل عجيب يشبه لمعان البرق لكنه أكبر بكثير ...".

وفي ستا بياى كان بليني الكبير يحتضر بعد أن قضى الليل مع صديقه بومبونيانوس . وفيما بعد بلغ ابن أخته أن الرجل العجوز نام برهة من الزمن إلى

أن غرق الغناء الذي يؤدي إلى غرفته تحت خليط من حجر الخفاف والرماد، وأنه لو بقى مدة أطول في حجرة النوم لما استطاع مغادرتها . وعندما أيقظوه خرج وذهب إلى بومبونيانوس ورفاقه الذين بقوامستيقظين طوال الليل . وتداولوا فيما بينهم عما إذا كان الأفضل لهم أن يبقوا بالمنزل أم أن يتجولوا في العراء.

واستقر رأيهم أخيراً على الخروج، وبرغم أن ذلك يعرضهم لسقوط الأحجار فوق رءوسهم أو الاختناق بالرماد، فإنه أفضل على كل حال من الموت تحت المباني المنهارة . وثمة وصف ساخر مؤلم لكبار الموظفين الرومان وأتباعهم الذين حزموا وسادات فوق رءوسهم، وكان هذا هو السبيل الوحيد ليحموا أنفسهم من السيل المتساقط من فوقهم، وأخيراً اتجهوا إلى الشاطئ ولكن كان من المستحيل عليهم أن يركبوا البحر لأن الأمواج والريح كانت غير مواتيه.

"وهناك ألقى خالى بنفسه على قلع مركب بال وطلب ماء باردة وشرب عدة مرات . و بعد برهة وجيزة تفرق الجميع هاربين أمام النيران ورائحة الكبريت الثقيلة التي سبقتها، أما هو فقد أفاق بسببها، ونهض بمساعدة اثنين من عبيده، لكنه تهالك في الحال . وأعتقد أن دخانا ثقيلا قد زكم أنفه وأغلق قصبته الهوائية التي لم تكن ضعيفة ضعفاً طبيعياً وحسب، وإنما كانت في حالة التهاب مزمن . وعند ما ظهرت تباشير الفجر التالي (وهو اليوم الثالث لذهابه) اكتشف جسده سليماً كاملاً، وكان مرتدية جميع ملابسه كما لو كان حيا، وبدا كأنه رجل نائم لأرجل قضى نحبه" .

وعبر الخليج، فوق الأرض المحيطة بميناء ميسينيوم المتهدمة، التي أبكر منها بليني الكبير، كانت شقيقته تحاول إقناع ابنها بالهرب كيفما استطاع . و يقول

بليني:

وكان في استطاعة شاب أن يهرب، أما هي وقد أثقلتها السنون كما أثقلها جسمها المترهل، فكانت معرضة لموت محقق، هذا إذا لم تتسبب في موتي كذلك . وأجبتها بأني لن أنقذ نفسي وأتركها، وأخذت بيدها وأسرعنا في الطريق . وكان الرماد المشتعل يتساقط من فوقنا، لكنه كان خفيفا، ونظرت خلني فإذا ظلام حالك يزحف في أثرنا منحدرة على الأرض مثل الغدير .... ولم نكد نجلس لنستريح هنيهة حتى أطبق علينا، ولم يكن كظلام ليلة غائمة غاب قمرها وإنما كظلام حجرة أحكم غلقها وانطفأ مصباحها . كنا نسمع صراخ النساء وعويل الأطفال و صياح الرجال . كان البعض يبحثون عن أطفالهم والبعض عن آبائهم وآخرون عن زوجاتهم أو أزواجهن ولا يستطيعون التعرف عليهم إلا من صوتهم . كان واحد يندب حظه والآخر يندب حظ أسرته . بعضهم يتمنى الموت و البعض الآخر يبتهل إلى الآلهة خوفا منها . كثير منهم يرفعون أيديهم إلى الآلهة، لكن الغالبية اعتقدت أنه ليس ثمة آلهة في أي مكان، وأن الظلام الأبدي خيم على الأرض .

وبقي باليني وأمه على قيد الحياة، لكن الآلاف قضوا نحهم، منهم من خنقه الدخان، ومنهم من أحرقته النيران، ومنهم من سحقته المباني المنهارة . ولقد اعتقد الكثيرون دون ريب – كما يقول شباب الرومان – وانه الليل السرمدى، وعلى جدار إحدى الفيلات بمدينة بومبي، التي كشف عنها الأثريون بعد ثمانية عشر قرنا، كان أحدهم قد كتب :

" سدوم وعاموراه " .

الفصل العاشر

بومبي تبعث من جديد

"هذه هي "يامار كيلوس"، القصة التي أترنم بها على شاطئ خالكيس، حيث يقذف بركان فيزوف حمم غضبه، و يصب نيرانا لا تقل عن نيران الحرب التي كنت تقودها في صقلية (ترينا كريا)، إنه لأمر مجيب، لكنه مع ذاك حقيقي!؟ هل ستصدق الأجيال المقبلة، عندما تنمو التلال مرة ثانية وتخضر هذه القفور، أن مدناً وأقواماً ترقد من تحتها ؟ وأن أرض أجدادهم مرت بمحنة كهذه" ؟

هكذا كتب بوبليوس بابنيوس شاعر الملاحم الرومان، الذي كان معاصراً لبليني الصغير . واليوم تجيب الأيام على سؤاله . لقد رفع المنقبون خلال المائتي عام الماضية كثيرا من الرماد البركاني الذي طمر بو مبى، و كشفوا شوارع وحوانيت وحانات، ومصانع صغيرة، ومباني عامة وفيلات بعضها هرب منها سكانها، وفي البعض الآخر حاولوا الهرب، وذلك منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة . كذلك قاموا كشف بعض أجزاء ميناء هركولانيوم المجاور، وكان عملهم هناك عسيرا إذ طمرت هذه المدنية تحت وابل من الطين البركاني إلى عمق يبلغ خمسين أو ستين قدما . وبمرور الزمن تحجر هذا الطين وأصبح صلدا كالصخر .

وأول من قام بالتنقيب في بومبى، كان سكانها أنفسهم الذين عادوا إلى المدينة عندما خمدت ثورة البركان، وقد حفروا خلال أسقف المنازل التي دفنت، وأنقذوا ما أمكنهم الوصول إليه من أثاث ومتاع، ولازلنا نرى حتى الآن

الفجوات التي حفروها في الرماد المتجمد في عدة أماكن . ولكن مرور الأعوام التي بومبى و هركولانيوم في زوايا النسيان، وانقضت القرون الوسطى دون أن يقترب منها أحد، وبقي الحال كذلك حتى عام ١٧٠٩ حين قام أمير نمساوى بحفر بئر في هركولانيوم ثم مد منها أنفاقا سرق عن طريقها الرخام والتماثيل التي كانت في المسرح المدفون . وبعد عشرين سنة بدأ التنقيب بانتظام في نفس الموقع، لكن شارل الثالث ملك نابولي الذي أمر بعمل الحفريات، استعمل الموقع كنجم يأخذ منه القطع الأثرية لمجموعته، وبعد بضع سنوات أخرى أدي كشف جاء مصادفة إلى بدء الحفر بالمنطقة، وكان التنقيب أول الأمر يجرى عن طريق حفر أنفاق، ثم لجأ المنقبون إلى رفع الركام للكشف عن المدينة كشفا كاملا .

ولم تتوقف أعمال الحفر منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى أيامنا هذه، ولو أنها بطيئة قليلة الإنتاج، ولعل هذا البطء كان ذا فائدة، فقد أدى إلى الاحتفاظ بأجزاء كبيرة من المدينتين في حالة سليمة انتظارا لأساليب الحفر العلمي الحديثة . وقد تقدم فن الحفر في الخمسين عاما الماضية بحيث أصبح التنقيب في بقعة ما يسفر عن الحصول على معلومات أثرية أكثر ما كان عليه الحال قديما في ظل أساليب الحفر البدائية الخشنة .

وقد تم حتى الآن الكشف عن أربعة أخماس مدينة بومبي، وعن جزء لا بأس به من مدينة هركولانيوم، وإن يكن أصغر مما كشف من بومبى و يعتبر الموقعان من أشهر المواقع الأثرية في أوربا كلها، ويراهما غير الأثريين أروع وأعجب ما اكتشف، ذلك أننا هنا دون أي مكان آخر في العالم، نجد أنفسنا أمام مدن لم تندثر تدريجيا، وإنما توقفت فيها الحياة فجأة. وفي هذا يقول

أحد الكتاب [1].

خلف هذه الجدران ترقد مدينة إيطالية قديمة، فقدت حياتها في لحظة من الزمن، ومن يدخل أبواب هذه المدينة فكأنما رجع ألفي عام في الماضي البعيد" .

لقد حاولت في الفصول السابقة من هذا الكتاب أن أصف الطرق التي جمع بها الأثريون شتات اكتشافاتهم ليرسموا منها صورة للمدن الأثرية الآشورية والسومرية والحيثية والهندية، وكيف قاموا بحل رموز النقوش المكتوبة بلغات اندثرت . ولكن الأوضاع في بومي وهركولانيوم تختلف عن ذلك : كانت الشوارع والمنازل والحوانيت والحانات والمحال التجارية كلها موجودة في انتظار الكشف عنها ؛ حجرة الأكل بأثاثها كاملا، وحجرة النوم بها السرير ومنضدة صغيرة بجانبه، القدر مازال فوق الموقد، المخبز والطواحين والأفران والحانات التي تحمل جدرانها ملاحظات زوارها، بيت الدعارة ومقصوراته الصغيرة المرتبة الغانيات، والخزانة التي يدفع عندها الزائرون الرسوم ... أما الملاحظات المكتوبة على الجدران، وقد وجد ١٥٠٠٠ منها على جدران المدينة – فكانت تتراوح بين لافتات انتخابية و تعليقات المعجبين و تمارين أطفال، وإعلانات عن ألعاب المصارعين ... إلخ. ولم توجد أية صعوبة في قراءتها، إذ كانت جميعها مكتوبة باللغة اللاتينية، وحتى تكتمل الصورة كانت جدران منازل الأثرياء مزينة برسومات ملونة تعرض تفاصيل أخاذة عن حياة السكان اليومية بمدينة بومى منذ ثمانية عشر قرنا من الزمان .

وقبل أن ندرس المدينتين، سنلقي نظرة عاجلة على تاريخهما : ويهمنا أن

---

(1) R. C. Carrington, in BBC television broadcast on Pompeii.

نذكر هنا أن بومى و هركولانيوم كانتا قائمتين قبل أن يحتلهما الرومان بستمائة عام، وأن كثيرة من مبانيهما ترجع إلى ما قبل أيام الرومان . ففي القرن السابع ق.م عندما كان المستعمرون الإغريق يركزون أنفسهم على الساحل، كانت تقيم في المدينتين قبيلة الأوسكيين ثم استحوذ عليهما الإتروسكيون ها بطين من شمال إيطاليا (وقد سمي إقليم توسكانيا باسمهم) . وفي عام ٦٢٠ ق . م آلتا إلى السامتيين، و ازدهرتا حينذاك ازدهاراً كبيرة . وكان الإنترسكيون والسامنيون يفرقون الرومان من عدة وجوه . ففي تلك الأيام كان الرومان مجرد قبيلة صغيرة تعيش على ضفاف نهر التيبر، ولا تكاد الحرب بينهم وبين جيرانهم تتوقف . وخلال الفترة التي سبقت حكم الرومان كانت الثقافة الإغريقية هي السائدة . ونجد مثلا أن عبارة Torre del Greco (حيث كان مستشفي سلاح الطيران عام ١٩٤٤) تعنى مدينة الإغريق، أما مدينة هركولانيوم فقد سميت باسم البطل الإغريق هرقل . وقد انتشرت بين سكان كمبانيا الفنون الإغريقية والديانة الإغريقية والآداب الإغريقية .

وعندما استولى القائد الروماني «سولا، على بومبي عام ٨٠ ق.م وأقام بها جنده المسرحين، وجد الرومان أنفسهم سادة مدن ريفية جميلة مزدهرة، يرجع تاريخها إلى أكثر من ستة قرون مضت . وإذا قارنا هؤلاء السكان الجدد بالسمنيين الذين تشبعوا بالحضارة الإغريقية لوجدناهم في مستوى حضاري أدنى، ولو أنهم تأغرقوا بدورهم بعد ذلك حين فتحو العالم الإغريقي . وبمرور الزمن اجتذب خليج نابولي أثرياء الرومان بجماله و اعتدال طقسه، فبنوا فيلاتهم بالقرب من بومى و هركولانيوم و باياى وميسينو، واتخدوها أماكن لقضاء عطلاتهم أو بالإقامة الدائمة . ومن هذا القبيل كانت فيلا بلينى و ابن أخته وأصدقائهم بالبوس وركتينا و بومبونيانوس.

وكانت بومبي أكبر كثيراً من هركولانيوم، وكان عدد سكانها يتراوح بين خمسة عشر ألفا وخمسة وعشرين ألفا من الأنفس، والسبب في هذا الفرق الكبير هو أن المصيفين الرومان الأثرياء حين يفدون على المدينة بأتباعهم وعبيده وأفراد حاشيتهم، كانوا يجتذبون إليها التجار والفنانين . وكان المسرح الدائري الذي عرض فيه المصارعون ألعابهم، وتستعرض به الحيوانات يتسع لعشرين ألف نسمة، مما يعمل على الظن بأن تلك الألعاب كانت تجتذب كثيرا من المتفرجين من المدن المجاورة، وفي هذا تفسير لذلك العدد الكبير من الحانات والفنادق التي تم الكشف عنها في بومبي.

أقيمت بومبي على بقعة صخرية منعزلة كونتها الحمم البركانية في قديم الزمن، وتقع على مسافة خمسة أميال تقريبا إلى الجنوب الشرقي من فيزوف . أماهركولانيوم لن تبتعد عن الجبل بمثل هذا القدر، فقد بنيت على الشاطئ . وكتبت كورتي تقول : كانت هركولا نيوم أول الأمر مركزا للتجارة العابرة، بني في موقع ملائم، ثم اتضح سريعة أن بومي تتمتع بالميزات التي تؤهلها لكي تصبح مدينة تجارية هامة . ذلك أنها شيدت بعيداً عن البركان، في مكان قريب من نهر سارنو الصالح الملاحة، وقد تهيأت لها كل الإمكانيات التي تجعلها ميناء صالحا . هذا بالإضافة إلى أنها مركز التقاء عدة طرق هامة، ولهذا السبب حول الإغريق اهتمامهم إليها [١] وبقيت هركولانيوم مدينة صغيرة.

و بديهي أن المجال لا يتسع هنا لوصف أي المدينتين وصفاً تفصيلياً، ولقد وضع في ذلك أكثر من كتاب، ولما كنت قد قرأت أو اطلعت على

---

(1) Caesar Conte. The Destruction and Corti, Egon Resurrection of Pompeii and Herculaneum. Routledge and Kegan Paul. 1951.

أغلب ما كتب عنهما باللغة الإنجليزية، فإني أنصح بقراءة كتاب :

The Destruction and Resurrection of Pompeii and Herculaneum by Egon Caesar Conte Corti.

الذي نشر أولا في ألمانيا عام ١٩٤٠ ثم في انجلترا عام ١٩٥١ – وحيث أن المثل الإنجليزي يقول : (الكلاب لا تأكل بعضها) البعض أجدني على هذا الأساس مترددا في نقد كتابات زملائي الذين يعملون في نفس المجال – ولا سيما أن أغلبه قد كتب بأيدي علماء أثريين تزيد معلوماتهم عن معلومات كثيرة، لكني أعتقد أن عددا كبيرة من هذه الكتب يعتوره النقص بسبب التجاهل المتعمد لناحية بعينها من نواحي الحياة في بومي، رغم أنها تستلفت على الفور نظر زوارها المحايدين تلك هي ناحية الحياة الجنسية فيها، وبرغم أن بومي تعتبر أكثر المدن المندثرة حيوية، فإننا نجد أن بعض الكتاب قد خنقوا تلك المدينة البائسة تحت أكداس من البيانات عن المخابز والمغاسل تثقل كاهلها كما أثقلته حمم البركان التي طمرتها.

وعندما يتعرض هؤلاء الكتاب في أحيان نادرة إلى مظاهر الحياة الدنيوية في بومبي – وهي مظاهر تبدو واضحة تماما في جميع الرسومات الحائطية الملونة وقد تكون أحيانا نحتا يمثل عضو التذكير – فإنهم يعلقون عليها إما باستحياء وإما بتكلف يضيق به المرء لو أنه لم يكن مضحكا، ونجد مثلا أن أحد الكتاب يشير مستنكرة (إلى إحدى الطرقات المظلمة) و يقول : (كانت بالمدينة طرقات مظلمة حيث تتربص الرذيلة، وفي آخر هذا الطريق المنحوس يوجد مبنى من طابقين . كان مشهورة لدى سكان بومى بنساء لا

يحفلن با لفضيلة) [1].

ثم يتحول الكاتب بسرعة عن هذا الموضوع ويحولنا معه إلى الحمامات الرومانية فيقول :

"كان حب الرومان الشديد للحمامات أقل من حبهم للرذيلة" .. إلخ. و

كان العامة من سكان بومي يميلون إلى كتابة تعليقاتهم الطريفة على الجدران وهي الكتابة التي يعرفها الأثريون باسم (جرافيتي) وقد تحدث عنها الأستاذ (ماو) فقال :

"إن المثقفين من سكان المدينة، رجالا ونساء على السواء، لم يتعودوا تسجيل أسمائهم أو تدوين ملاحظاتهم وتعليقاتهم على الجدران، لذلك أعتقد أن أصحاب هذه الكتابات لا يمثلون أرقي طبقات المجتمع " .

ومع أننا نوافق على هذا الرأي، إلا أن المثقفين من الرجال والنساء قد دونوا مذكرات وكتبوا خطابات لا تزال باقية، أما معلوماتنا عن عامة الشعب، فقد كان مصدرها الوحيد هو تلك الكتابات الحائطية التي أمدتنا جدران بومى بكثير منها، وهي كتابات صبيانية، كما يصفها أحد العلماء . ومع ذلك فإنها لا تسبب لقارئها مللا يزيد على ما تبعثه في النفس مذكرات بعض الرومان المختالين الذين نرى كتاباتهم الآن مسجلة بكل وقار في مجموعة لويب (LOEB) .

وأعتقد أن أحد أسباب هذا التعالي الأكاديمى يرجع إلى أن بعض الجرافيتي في بومي يشير إلى نوع معين من النشاط الإنساني، قد لا يرضى

---

(1) BBC Television Broadcast, September 18th, 1956.

عنه بعض العلماء، ومن ذلك مثلا ما دونه بعض المتهوسين على ج دار إحدى حانات بومى منذ ألف وثمانمائة سنة :

"تحياتنا : نحن أشجع من يشرب الخمر ؛ وعندما تحضر، ندفع الحساب" .. وتتكرر هذه العبارة ثلاث مرات بتوقيع شخص واحد هو (يوبور) الذي يبدو أنه كان أشد زملائه مرحا .

وثمة نقش آخر تحت رسم ملون لحانة، جاء فيه :

" عليك اللعنة يا صاحب الحانة " إنك تبيعنا الماء بدلا من النبيذ، بينما تشرب أنت النبيذ الصافي .

ومن أفضل ما وضع عن هذه الجرافيتى كتاب The Common People of "Pompeii" من تأليف العالمة الأمريكية هيلين تانزر [1] وثمة كتب أخرى تجدها مدونة بقائمة مراجع هذا الكتاب . وتتضمن هذه الكتب جميعا بيانات قيمة، ولا سيما كتاب " (بومى) من تأليف كارنجتون . أما كتاب كورتى . فهو كتاب يجمع – فيما أعتقد – بين صحة البيانات والبحث العلمي والأسلوب الأخاذ الجريء، كما أنه يتحاشى التكلف الذي يتسم به أصحاب العقول المغلقة .

حين ندخل بومى من باب مارينا في الجنوب . فإننا نرتقي طريقاً منحدراً مرصوفاً بالحجارة التي تآكلت تحت عجل العربات المتجهة إلى السوق العامة الكبيرة (فورم) أو إلى الميدان العام الذي تحتل أحد أطرافه أجزاء كبيرة من أطلال معبد ساتورن الكبير . وفي مواجهة السوق وعلى مقربة منه نجد بقايا

---

(1) Published by John Hopkins Press, Baltimore.

البازيليكا، وهي بناء نغم ذو عهد كان يستعمل أيام الرومان دارة للقضاء وقاعة للاجتماعات، وفيه كانت تنجر الأعمال العامة، و نستطيع أن نتخيل سكان بومى وهم جلوس في استرخاء تحت ظلال الأعمدة يشترون الحلوى من الباعة المتجولين الذين تحتشد بهم الأماكن العامة . وعلى جدران أحد المنازل الكبيرة رسم يمثل شيخ غلبه النعاس وإلى جواره صينية الحلوى، وولدا صغيرا يصطحبه رجل – يغلب على الظن أنه والده – وقد أمسك بصحن . وشابا يبدو أنه ابن البائع يلمس كتف الرجل العجوز ليوقظه .

من هذه البقعة المرتفعة ترى العين من ناحية الشمال منحدرات جبل فيزوف التي تكسوها الكروم، بينما تمتد أراضى كمبانيا الباسمة على الجانبين، متتبعة ضفاف الخليج الحانية : الشمس تلهب الأكتاف، والبحر في زرقة السماء، و بين الأعمدة البيضاء التي تسطع عليها الشمس فراغ غارق في الظلام . إن كل ما يوحى به اسم البحر الأبيض المتوسط من أحاسيس لتخزنه جدران هذه المدينة الصغيرة التي كانت تموج بالعمران في يوم من الأيام، وإن سكانها وهم يرتدون عباءاتهم البيضاء و يثرثرون باللاتينية، يضحكون ويتجادلون ويساومون ليبدون أقرب إلينا بكثير من البابليين والحيثيين الذين قضوا منذ آماد بعيدة .

و نواصل السير على الطريق من السوق العامة حتى نصل إلى مفرق طرق، وهناك نلتقي بواحد من أهم الشوارع، شارع نولا الذي يقطع المدينة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ونجد كذلك شارع الرخاء " Street of Abundance " الذي يسير في نفس الاتجاه إلى الجنوب الشرقي، ثم شارعة ثالثة، هو شارع ستا بيانا (Strada stabiana) الذي يقطع الشارعين السابقين منتدأ من الشمال الغربي إلى . الجنوب الشرقي . وبين هذه الشوارع

الكبرى توجد شبكة من شوارع أصغر في بعضها حوانيت وحانات و محال تجارية، وتوجد بالأخرى فيلات سكنية .

والمنظر الخارجي لهذه الفيلات لا يبعث على البهجة، فثمة سور عال يحيط بكل منها، به مدخل رئيسي إلى جواره مسكن الحارس الخاص، وثمة عدد قليل من النوافذ المطلة على الخارج، فإذا اجتاز الزائر هذه الأسوار، وجد مجموعة من. الحجرات حول ساحة مكشوفة ينفذ خلالها الضوء وماء المطر الذي يتجمع في خزان خاص أعد في وسطها، و من وراء هذه الحجرات يمر الزائر خلال مدخل آخر يوصله إلى بناء وبهو ذى عمد، كان يزرع أحياناً بالزهور والشجيرات، وتظلل جوانبه البواكي، ومن ورائه عدد آخر من الحجرات . وإذا كانت الفيلا من الحجم الكبير، فأن الزائر يصل بعد ذلك كله إلى الحديقة حيث يجد، وسط أحواض الأزهار، تماثيل العروس البحر، والحيوانات الأسطورية، وربما وجد أيضا عددا من النافورات .

وكان يحمي المدينة كلها سور كبير، ولكن استقرار الرومان فيها عام ٨٠ ق.م،. جعل الدفاع عنها أمرا غير ضروري، بل إنهم بدأوا يقيمون الفيلات خارج هذا السور ولا سيما في الناحية الجنوبية من المنحدرات المطلة على البحر . ولا تزال تسع من بوابات المدينة قائمة وهي : بوابة البحر التي دخلنا منها، وبوابة ستا باى في الطريق الجنوبي الشرقي لشارع ستابياى، و بوابة فيزوف في الطريق المواجه النفس الشارع، و بوابة نولا في الطرف الشمالى لشارع نولا .. وهكذا. وفي الركن. الشمالي الشرقي بني المسرح الكبير من داخل السور، ويبدو أن هذا الركن كان مخصصة بصفة أساسية لمن لهم صلة بالألعاب، كالمصارعين الذين يعيشون في مدارسهم مع مدربهم، والحيوانات و حراسها ... ألخ.

ولم تكن بومي المكان المفضل لإقامة أثرياء الرومان وأثرياء التجار من أبنائها فقط، وإنما كانت أساسا مركز تجارية هامة . كان نبيذ فاليرنا المشهور يصنع من الكروم التي تنمو على منحدرات فيزوف، وكانت هناك أيضا أنواع أخرى محلية – أرخص ثمنا – يصدر بعضها إلى الخارج. وكما هو الحال الآن كانت توجد بساتين واسعة للزيتون، وكان زيت الزيتون من أهم الصادرات . وأدى الرماد البركاني إلى خصوبة التربة في مبانيا، فزرع الريفيون الحبوب والفاكهة والخضروات (وكان لبومى سوقها الخاص للخضروات) . كذلك قاموا بتربية الماشية والدواجن لهيئوا الأطباق الشهية للذواقة في بومي، والصورة العامة ترسم لنا شعبا يعيش في ثراء واسترخاء تحت شمس مشرقة، يأكل ما لذ وطاب ويشرب النبيذ الجيد، ويغترف دون حياء من المسرات الجنسية .

وثمة طابع آخر تتسم به المدينة و هو السوقية، فالرسومات الحائطية الملونة، والتماثيل، وزخرفه المنازل، تختلف كلها من حيث القيمة الفنية، وأحسن ما فيها يعتبر دون المستوى إذا قورن بالفن الإغريق، ولا شك أن المستوى الفني في بومبي كان أرقي في ظل الإغريق منه في ظل الرومان، برغم أن الهندسة الصحية تقدمت في العصر الأخير . وإذا كان الفن في بومبي يتسم بطابع بجاحة محدثى النعمة، فإنه في نفس الوقت يعطينا صورة ناطقة عن حياة الرومان الريفية في القرن الأول بعد الميلاد .

إن المرء يحتاج إلى مجهود جبار – ولا سيما إذا كان من غير الأثريين – لكي يتخيل بابل و نينوى أيام كانتا آهلتين بالسكان . لكن الأمر لا يتطلب مثل هذا المجهود بالنسبة لبومى و هر كولانيوم حتى من الرجل العادي . ذلك لأن الجدران لا تزال قائمة بل ومرتفعة إلى درجة واضحة في كثير من الشوارع

. وفي بعض الحالات التي انهارت فيها الطوابق العليا إثر ثورة البركان، أعاد الأثريون الإيطاليون بناءها كما كانت تماما . ويسير المرء في نفس الطرقات التي كان سكان بومبي يسيرون فيها، ويخطو فوق نفس الأحجار الناتئة التي أعدت ليتجنب بها المارة الأوحال في موسم الأمطار . أما الحوانيت التي كان السكان يشترون منها الغذاء والملبس والوجبات الخفيفة قبل ذهابهم إلى المسرح، والمطاعم والحانات، فكلها باقية على حالها، الحمامات العامة بحجراتها المجهزة بالماء الساخن والبارد، والحجرات ذات الدواليب المخصصة لخلع الملابس، والمغاطس والساحات المخصصة للتمارين الرياضية، لاتزان كما كانت أيام الرومان . حتى حدائق الفيلات مزروعة بنفس الزهور التي كان يزرعها سكان بومبي . وقد استطاع علماء النبات معرفة فصيلتها من انطباعات الجذور القديمة على الركام البركاني الذي تحجر، وعندئذ أعادوا زراعة نفس النوع .

إن أول زيارة لمدينة بومى تعتبر تجربة فريدة مثيرة بل تكاد تكون مخيفة، وباستثناء هركولانيوم لا يحس المرء في أي مكان آخر في العالم مثل ما يحس به من ارتباط مباشر بالماضي وهو في بومي . فيلا أثناء سيرنا في أحد الأزقة قد ندخل إحدى البوابات فنجد مخبزاً، وهناك نرى أمامنا الطاحونة التي تتكون من حجر سفلي مخروطي الشكل، ينطبق عليه حجر علوي في شكل زجاجة الساعة، ويلقي القمح من فتحة في هذا الحجر العلوي الذي تديره حمير تسير فوق مصطبة دائرية، و بالقرب نجد إسطبل الحمير، وحجرة العجين، والأفران و مخزنا للخبز . ولقد عثر في بومي على عشرين مخبزاً من هذا النوع، ووجدت بعض أرغفة احترقت حتى تفحمت، وكان الرغيف دائري الشكل، وبه شق ينصفه مثل الكعكة . وإذا واصلنا السير في الزقاق نجد

مؤسسة لتجهيز النسيج حيث كانت تغسل التوجا (وذلك أمر إجبارى)، وحيث كان النسيج الخام الذي رفع من على الأنوال ينظف أولا بدقة في أحواض، ثم يغسل مرة ثانية ثم يبيض بالكبريت قبل أن يسلم إلى تجار القماش، ولا تزال الأدوات التي كانت تستعمل في إنجاز هذه العمليات المتعددة قائمة في مكانها، ويمكن مقارنتها بمثيلاتها التي اكتشفت في فيلا رومانية بمدينة تشدورث و جلوستر شابر في إنجلترا . لقد كانت الحياة في بومي في القرن الأول الميلاد شبيهة من عدة نواحي بالحياة الريفية الحديثة في إيطاليا، فنستطيع أن نلاحظ مثلا عدد المقاهي، والمطاعم، والبارات، وأن أفضل هذه التسمية على كلمة رحانة، التي تستعمل في الدليل السياحي، فالبار هو المكان الذي يتناول فيه الرواد مشروباتهم أو يأخذونها معهم لتناولها في الخارج، وهكذا كانت تلك الأماكن في بومي، وقد عرفت حينذاك باسم "تابرنا"، وكانت تلحق بها حجرات خاصة تقدم فيها وجبات الطعام للراغبين فيه . وقد وجدت على جدران البارات رسومات حائطية تمثل الرواد يقدم لهم ما يطلبون . وهناك تعليق – أشرنا إليه – كتبه أحد الرواد على الجدار معبراً عن امتعاضه . وثمة تعليق آخر فوق رسم لجندي يحمل رمحاً، يقول كاتبه :

"أعطني كوبا من الساتينيوم،، وهو نبيذ يصدر للخارج، و يفهم من ذلك أن الجندي لا يرغب في النبيذ العادي .

وهناك صورة أخرى لإحدى الخادمات بالخانة تقدم النبيذ لواحد من الرواد قائلة له : « تستطيع أن تشرب هنا نظير آس واحد، وإذا دفعت آسين تحصل على نبيذ أفضل، أما إذا دفعت أربعة آسات فانك تحصل على نبيذ فاليرنا" .. وصورة أخرى تمثل صاحب حانة يدفع باثنين من السكارى إلى

الخارج وهو يقول :

"اغربا من هنا، وفي وسعكما أن تتعاركا في الخارج".

ومنطقة الآثار في مصر مليئة بالرسومات المماثلة التي تصور الحياة اليومية، ولكن الأمر في بومبي يختلف، إذ يستطيع الإنسان أن يقف في نفس المبني حيث كان التجار والجنود والمصارعون والراقصات، و مدربو الحيوانات يمرحون بعد الانتهاء من عملهم اليومي، يراهنون ويسبون صاحب الحانة ويقر صون الخادمة في ردفها، ويشربون حتى يشملون، ثم ترتفع أصواتهم بأغانيهم التي تدل – دون شك على أنهم لا يمثلون العناصر الراقية في المجتمع .

ولعل واحدا من هؤلاء هو الذي كتب على الجدار د هنا أقامت رامولا مع ستافوكلوسى " بعد ليلة قضاها في حانة من تلك الحانات .

وكما يحدث في أيامنا هذه، كان العشاق في بومبى يسجلون أسماءهم على الجدران ويكتبون أحيانا أبياتا من الشعر الرديء، أغلب الظن أنها مقتطفات من أغانيهم المشهورة . ونذكر منها على سبيل المثال:

يستطيع أي امرئ أن يوقف الريح من أن تهب .

والمياه من أن تنساب.

أما أن يوقف المحبين عن الحب ....

ومع ذلك فلم يكن كل الشعر المكتوب على جدران المدينة بهذه التفاهة، فقد وجدت مقتطفات من أوفيد، ولو كريشيوس وبر و بر تيوس

وفرجيل، وكثيرة ما كان كتاب هذه الأبيات يخطئون لاعتمادهم على الذاكرة . وأحيانا نجد أسماء آلهة وإلهات إغريقية وبجانبها ملاحظات جدية مثل: " الشر الصغير ينمو إذا أهمل ".

وكان لصبية المدارس نصيبهم من الملاحظات فدونوها أسفل الجدران، كتب أحدهم الحروف الأبجدية بخط صبياني، بينما سجل آخر أسماء أيام الأسبوع " الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء ... إلخ " وتدل هذه الكتابات – سواء أكانت بالطباشير أو بالحفر – على أن المواطنين جميعا، وحتى طبقاتهم الدنيا، كانوا ملمين بالآداب، . وكما تقول هيلين تانزر ركان الجميع يعرفون القراءة، ويبدو أنهم كانوا يعرفون الكتابة أيضاً ".

وقد كتب أحد الظرفاء على جدار منزل : " الكل يكتبون على الجدران – إلا أنا ".

واستعملت الجدران أيضاً للإعلانات الانتخابية، وكان يحكم المدينة مجلس خاص، ينتخب أعضاؤه لمدة خمسة أعوام . ويبدو أن عملية انتخابات جديدة كانت قد تمت حين دهم البركان المدينة، أو لعل معركتها كانت على أشدها حينذاك، لأن الجدران كانت مغطاة بأسماء المرشحين وأسماء أنصارهم وصناعاتهم . ولتلك الإعلانات قيمتها لأنها تدلنا على بعض المهن التي كان الناس يزاولونها،، فنجد الزراع، وسائقي البغال، وأصحاب الحانات وصيادي السمك والخبازين والإسكافيين والصباغين، و منظف المنازل، وحراسها، و الجند والمصارعين ... إلخ .

وكانت هناك حوانيت لبيع الأطعمة – يسهمونها alimento – وقد أعلن أحد (أو إحدى) أصحاب هذه الحوانيت عما أي به في قائمة تضمنت

الزيت والنبيذ والجبن والخضروات والخبز . كذلك كان هناك تجار متخصصون في بيع سلع بعينها مثل تاجر الثوم (aliurii)، وتاجر الدواجن (glinari) ويبدو أن السكان كانوا يأكلون البيض المسلوق في وجبة الإفطار كما تفعل الآن . وفي إحدى منازل الأثرياء وجد الأثريون طاقما للإفطار مصنوعة من الفضة بما في ذلك صينية وكأسين للبيض .

ولم يقتصر تجار النبيذ على تموين أصحاب الحانات والمنازل بما يحتاجون إليه، وإنما كانوا يصدرونه للخارج أيضا، ولاسيما نبيذ فيزوف (Vinum Vesuvinum) الذي يصنع من السكر وم المزروعة على منحدرات البركان . أما بليني فكان يعتقد أن نبيذ بومبيا يصيب المرء بالصداع، وكانت المدينة تستورد أنواعاً أخرى من النبيذ من تاورمينا وسورنتو .

ولقد تحدثت عن ال "رتابرنا" فيما سبق، وهي تشبه المقاهي عندنا، ولكن بومبي عرفت أماكن أخرى عديدة يجد المرء فيها حاجته من الطعام والنوم والترفيه، وفي وسع الزائر أن يرى كثيرة من هذه الأماكن في المدينة بعد أن بعثت فنجد مثلا الفنادق (Hospitioe) التي تشتمل على حجرات للنوم و للأكل، كما نجد أماكن للمشروبات الساخنة (themopalia) وهي أشبه بالحوانيت الأمريكية حيث يأكل الروادوقوفا بالقرب من بار مهيء بفجوات ترتكز فيها أطباق الشوربة وغيرها من السوائل . وكان الفرد يستطيع المرور بهذه الأماكن وهو في طريقه إلى المسرح حين يكون في عجلة من أمره، بحيث لا يستطيع تناول وجبة كاملة بالمطعم . وتقع هذه الحوانيت عادة في الطرقات العامة بالقرب من المسارح. وثمة نوع آخر من محال الأكل يسمى با بيناى (papinoe) يقدم فيه ما تبقى من لحوم القرابين . وتقول عنها هيلين تانزر إن الرجل المهذب لم يكن يسمح لنفسه بارتياد تلا ع الأماكن .

و إذا بدا للقارئ أني بالغت في الحديث عن الطعام والشراب في بومبى فذلك لأن جميع الأدلة الأثرية من كتابة على الجدران، إلى تخطيط المباني وما وجد بها من أدوات، تشير كلها دون مواربة إلى حياة كلها ملاذ . وإذا حكمنا بتلك الأدلة لوجدنا أن سكان بومبي قد استهدفوا من الحياة هدفين : الكسب المادي واللذة . ومن الأمثلة على الهدف الأول، تلك العبارة التي وجدت منقوشة على جدار فيلا يمتلكها رجل أعمال ثرى، وهي :

(مرحبا بالكسب).

وفي فيلا أخرى كان صاحب المنزل يرحب بالزائرين قائلا :

(إن الكسب هو السرور).

أما الهدف الثاني : من أمثلته ما نجده في منزل جميل كان يملكه كايوس يوكوندوس في طريق ستابيا حيث نقرأ نصاً لأوفيد يقول:

" ليعش المحب ! وليت كل من لا يعرف كيف يحب ! واللعنة على من بر منا الحب ".

وكان كابوس عبداً تحررو أثرى من أعمال البنوك، ويقول كورتى إنه بالإضافة إلى اهتمامه الشديد بالمال، كان فنانا ذواقة للحياة .

وإذا حكمنا بالأدلة الأثرية وحدها مرة أخرى، لوجدنا أن أهم ما كان يهج سكان بومى هو ما لذ وطاب من المأكل و النبيذ، والمنازل المترفة، والجنس بطبيعة الحال، وذلك بالنسبة لكافة الطبقات الاجتماعية دون استثناء. ففي الأوساط الدنيا، إذا لم يجد الرجل خليلة، أو إذا كان فقيرا ليس في مقدوره الإنفاق على عشيقة، ففي وسعه أن يلجأ إلى مكان ملائم بالقرب من شارع مر

كيورى، لا يزال قائمة حتى الآن، وهو بناء من طابقين به شرفة جميلة وعند الدخول يدفع الزائر نقوده في خزينة خاصة، ويختار ما يحلو له من أسباب المتعة . و نستطيع أن نرى حتى الآن، المقصورات الصغيرة المخصصة للبنات، وفي كل مقصورة اسم صاحبتها .

وعلى الجدران التي خلف الأسرة نرى صورة ملونة تتعمد أغلب الكتب التي ألفت عن بومبى أن تصفها وصفة عابرة، هذا إذا لم تتجاهلها تماماً، ولا شك أن هذا التصرف ينزل بنا من الناحية الخلقية، إلى مستوى الدليل التافه الذي يسمح للرجال بزيارة المبني كله ثم يتقبل مبلغا إضافية من السيدات مقابل السياح لهن بدخول نفس المبني . وهذه الصور – التي نجد واحدة منها في كل مقصورة – تعرض أوضاعا متعددة للاستمتاع بالجنس، وهي توصف بأنها (بذيئة) وشهوانية، ولست أراها كذلك إلا إذا رسمت على جدار في ميدان عام، أو في حجرة الجلوس بأحد المنازل، أما عرضها في مكان للدعارة فهو أمر ملائم ويعتبر من وسائل الزينة العملية . وإذا كانت هذه الصور كريهة ممقوتة من الناحية الفنية فإنها – من الناحية الخلقية – لا تزيد إيذاء عن بعض مناظر مسرحية شكسبير (هنري الرابع) ولعل الوقت قد حان للتخلي عن الرياء في هذا الموضوع.

وكان في وسع الأثرياء الذين لا يرغبون في ارتياد تلك الأماكن العامة أن يخصصوا في مساكنهم حجرات منفصلة لهذا الغرض، كانت تسمى (Ciceroni) . وفي نهاية الحفل الذي تشترك فيه عادة الراقصات، يجد صاحب الحفل وضيوفه في تلك الحجرات ما يرغبون فيه . وفي منزل و آل فتيتيوس، نموذج لهذه الحجرات، وهو من أفخم فيلات بومي، كان يمتلكه شقيقان من العبيد الذين تحرروا ثم أصابوا ثراء واسعاً وقد أصلح الشقيقان

الفيلا وأعادا تأثيثها . ويقول كورتى :

كان الشقيقان المتحرران منغمسين في الملذات دون حياء . ونجد الدليل القاطع على ذلك في إحدى الحجرات الصغيرة التي كسيت جدرانها بصور تثير المحبين الأقصى الحدود .

والجنس في مرتبته الراقية ممثل في صور حائطية (بمنزل الأسرار)، وهو فيلا كبيرة نغمة الرياش، مقامة خارج المدينة وتطل على البحر، وكانت صاحبة الفيلا أصلا من كاهنات الإله ديونيسوس، وتكسو جدران الفيلا صور ملونة تعبر عن تسلسل الخطوات المتبعة في تدشين المبتدئات في تلك المهنة.

وكتب كورتى عن هذه الصور يقول : " لعلها تمثل تدشين صاحبة ذلك المنزل الفخم نفسها، بمعنى أن هذه (الشابة) المبتدئة التي تراها في الصور، هي نفسها التي أصبحت سيدة المنزل".

ونرى في المنظر الأول ولدا عارياً — وغالباً أنه خنثي – يقرأ من قرطاس ملفوف، التعليمات الخاصة بالتدشين (للأسرار)، وبجانبه كاهنة تحمل طبقاً به نذور وتتجه نحو ثلاث نساء يوشكن على القيام بطقوس رمزية، وبالقرب تقف كاهنة أخرى تدير ظهرها لنا، تصب ماء مطهرة على شيء ما لا نراه، وبجانبها سايلنوس [١] وهو يلعب عارية على قيثارة بينما يلعب راعي غنم على الناي). والصورة الآلية تمثل الشابة التي تحت التمرين تبدو مرعوبة وتنحني بينما تحاول أن تغطى نفسها بوشاحها . ثم نرى نفس الفتاة وهي دون ملابس تحني رأسها على ركبة الكاهنة، بينما يقف عند ظهرها شخص يرفع سوطا بيده

---

(١) اله من زملاء باكوس اله الخمر والفسق. يصور أحيانا نصفه إنسانا والنصف الآخر حصانا أو جديا.

. وأثناء عملية الجلد بالسوط ترقص إحدى (البكانت) (تابعة للإله باكوس تم تدشينها) وهى عارية أمام الفتاة وكأنها تريها المتعة التي تنتظرها عندما تنتهي من هذه التجربة المؤلمة . وتصل الذروة في المنظر التالي حيث يكشف وهو رمز على التناسل.

وكان الترفيه الرئيسي يقام في المسرح الدائري الهائل الذي قام ببنائه ثرى من سكان بومى، ويتسع المبني الثلاثين ألف متفرج، وفي تلك الاستعراضات العامة كان المصارعون ينازلون بعضهم البعض حتى الموت، بينما تستعد الحيوانات القتال بعضها البعض أو لنزال منافسيهم من البشر .

ويوجد بالمدينة محلان آخران للترفيه، لكنهما مسرحان للتمثيل وليس لعرض الألعاب الرياضية . يتسع المسرح الكبير منهما لحوالي ٥٠٠٠ نسمة، أما المسرح الأصغر فيتسع لنحو ١٥٠٠، و توجد عدة رسومات حائطية تمثل مناظر التمثيليات التي كانت تعرض في المسرح الكبير، ولكن لم يمكن التعرف على المسرحيات من الموضوع الذي تعالجه . وتمثل إحدى الصور منظرة قد يكون عن مسرحية (Miles Gloriosts) (الجندي الفشار) من تأليف بلوتوس . نجد في الصورة مثلا مقنعة يمسك برح بينما يقترب منه شخص مقنع" هو الآخر . وعلى جانبي المسرح يجلس رجل يمسك بعصا ويبدو عليه الضجر . وتقول مس تانزر : (إن . هذين الرجلين ليسا من الممثلين، وإنما من رجال البوليس الذين يجلسون : أكشاك بمقدمة المسرح) . وتعرض صورة أخرى منظرا لرقصة من كوميديا بها أربعة مثلين يلعب أحدهم بالرق والثاني بالصاجات والآخرون بالصنارة العادية والمزدوجة .

وتقرأ أسماء بعض الممثلين على جدران بومي، وأشهرهم بارس واكتيوس،

وقد دونت في وداعه العبارة الآتية : (اكتيوس، يا معبود الجماهير، عد إلينا سريعة و تصحبك السلامة !).

ويبدو مع ذلك أن المصارعين كانوا أكثر شهرة . فقد وصف واحد منهم بأنه (Dominus puparum) زير نساء، وتصفه كتابة أخرى بأنه (Suspirum puellarum) أمنية كل فتاة، ونجد بعض إعلانات عن الحفلات المقبلة بالمسرح تلفت نظر الشعب إلى أن : (فرقة المصارعين التي يملكها سوتشيرس كنتوس ستعرض ألعابها في بومي في ٣١ مايو.

"وسيكون هناك عرض للحيوانات".

"وستستعمل الخيام".

أما المسرح الصغير الذي يتسع لألف وخمسمائة نسمة فلم يعرف نوع العرض الذي كان يقام به، ولكن يحتمل أنه كان في رعاية القطاع المثقف من أفراد الشعب .

أما هركولانيوم فساحتها تعادل مسدس مساحة بومبي، ونظرا لأنها طهرت تحت طبقة من الركام البركاني، يبلغ سمكها ستون قدما، فقد كان الكشف عنها أكثر صعوبة. والصناعة الوحيدة التي مارسها السكان كانت الصيد. وقد اكتشفت بها كميات ضخمة من السنانير، والشباك . والشعر، والعوامات . ومع ذلك فإنها لم تحظ بأهمية اقتصادية تذكر، كما كانت أهميتها السياسية ضئيلة . وقد لاحظ كارنجتون أنه لم يعثر في المدينة على إعلان واحد للانتخابات . وكانت الشوارع ضيقة، لا توجد بها آثار لعجل العربات . ويتضح من ذلك كله أن هركولانيوم كانت مدينة هادئة صغيرة .

كان بها مسرح اكتشف عام ١٧٥٠ وحتى الآن لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق أنفاق تحت الأرض وهو يضاء حاليا بالكهرباء . وفي إحدى الفيلات التي اكتشفت هي الأخرى في القرن الثامن عشر، وجدت بعض القطع البرونزية التي تنتمي إلى الفن الإغريقي و الفن الهلينستي الرفيع، وهي معروضة حاليا في متحف نابولي . وعثر المنقبون في نفس المبني على كشف نادر، وهو عبارة عن مكتبة كان يملكها رجل ثرى، تتكون من حوالي ألفي بردية، اتضح أن معظمها مدون باللغة اليونانية، وأنه يتناول الفلسفة الأبيقورية .

ولما كانت أعمال (فيلوديموس) تؤلف الجانب الأكبر من هذه المجموعة البردية، فقد اعتقد بعض الباحثين أنها كانت مكتبة هذا الفيلسوف نفسه، وربما كانت الفيلا ملكا لولي نعمته، كالبور نيوسبيزوكيز و نينوس والد زوجة يوليوس .

قيصر [١] . ومنذ عام ١٩٢٧ جرت أعمال تنقيب جديدة في هركولانيوم وأسفرت عن كشف مزيد من الشوارع والفيلات و بمجموعة من الحمامات العامة، وربما كان أهم ما اكتشف ذلك البناء السكني الذي يرتفع حوالي عشرين قدما، ودعامات البناء الخارجية المصنوعة من الخشب، في وسطه فناء صغير، وبالواجهة شرفة ترتكز على أعمدة، وثمة مداخل ثلاثة للمبنى يؤدى أحدها إلى سلم الطابق الأعلى . ويؤدى الثاني إلى الطابق الأرضي . وبينما يؤدى الثالث إلى حانوت متصل بحجرات الطابق الأرض . و يعتبر المبني منزلا سكنية متواضعا لا يصل إلى مستوى الفيلات الفاخرة.

وعثر المنقبون في إحدى حجرات الطابق العلوي على الأثاث القديم، و

---

(١) Carrington, R. C. Pompeii. Clarendon Press, 1936.

هو سرير خشى ومنضدة ودولاب، وربما كان هذا المسكن المتواضع يستعمل للنوم والجلوس معا . و توجد حجرة أكبر بها شرفة تطل على واجهة المبني، ولعلها كانت مخصصة للمالك . ويتساءل المرء ماذا كان مصيره هو وباقي السكان يوم اضطرتهم الكارثة إلى هجر هذا المكان المنسق الأثاث تاركين متاعهم من خلفهم ؟.

ولقد تمكن معظم سكان هركولانيوم من الفرار، بعكس ما حدث في بومى حيث لقي ألفان من سكانها حتفهم، و معظم الذين عثر على جثثهم قد كان لديهم الوقت الاحتماء بأماكن مختلفة، إذ اكتشفت هياكلهم في الأقبية، وتحت الأعمدة وفي مداخل المنازل الخاصة، وفي أماكن عامة استظلوا فيها بشيء ما ..

إن المدينة لم تهلك بفعل الحمم المنصهرة، و إلا لتهدمت المنازل تماما . ومع ذلك فقد كانت الحجم تنطلق من آن لآخر، فقد ذكر بليني أنه رأى نيرانا تشتعل على منحدرات الجبل، و لكن من الواضح أنها لم تصل إلى المدينة نفسها. وقد تسلقت عام ١٩٤٤ المنحدرات السفلى للبركان وقفزت من فوق الحمم التي خمدت وكانت أشبه بأكوام من بقايا الأفران.

وسبق في عام ١٩٥٢ أن رأيت في مكسيكو سيلا من الحمم ارتفاعه خمسون قدماً وقد اخترق أحد جوانب كنيسة كبيرة ولم يترك منها إلا الأبراج في طرفها والمحراب الكبير من الطرف الآخر . وكانت الكتل الخشنة المتبقية تزن أطناناً وتشبه الحديد ولها رنين كرنين المعادن، ويمكن لسيل كهذا أن يطيح بمبنى البرلمان، فما كان عساه أن يفعل بمباني بومي الهزيلة نسبياً ؟

إن المادة التي دفنت تحتها المدينة كانت (اللابيللى) وهي حمم على هيئة كتل تكدست داخل البركان ثم قذفت بشدة إلى الخارج، وهي أحيانا في حجم الجوزة وأحيانا أخرى رماد ناعم . وهي لم تحرق المدينة وإنما طمرتها فكتمت أنفاسها.

إن وصف بليني مرعب فعلا لكنه لم يكن في بومبي بالذات بل في ميسينيوم . ولا نستطيع أن نتصور المأساة التي نزلت بالسكان إلا من الأدلة التي كشف عنها المنقبون عندما حفروا في الشوارع المطمورة . ولا يسعني هنا إلا أن أضع بين يدي القارى، مادو نه مستر كورتي في كتابه الرائع عندما أعاد وصف الكارثة بعد دراسة دقيقة للموقع، واستنادا إلى ما كتبه المعاصرون قال:

وفجأة انطلاق هدير رعد مخيف قبل ظهر ٢٤ أغسطس وجاء صوت الانفجار من جهة فيزوف فصم الآذان، واتجهت نحوه أنظار السكان الفزعين . وانشقت فوهة الجبل وانطلقت النيران من قلبه بصوت مفزع. ثم اختفت النيران وارتفعت إلى السماء سحابة هائلة من الدخان الأسود . وسمعت انفجارات متوالية سريعة، تصم الآذان وارتفعت في الهواء أعمدة من الصخر، ثم اشتعلت متراكمة فوق بعضها البعض . وفجأة دون أي إنذار هطلت الأمطار من كل فج يصحبها وابل من الحجارة وكتل من الطين، وقطع صغيرة من حجر الخفاف . ومن آن لآخر قطع كبيرة تشبه القنابل. وكانت هذه المقذوفات تنهال باستمرار و بغزارة حتي حجبت الشمس وتحول النهار إلى ليل، بينما كانت ومضات البرق المتقطع تنير ذلك المنظر الرهيب وكانت الطيور تسقط ميتة أو صدوقة، وقذف البحر الثائر بالأسماك الميتة على الشاطئ .

دفنت هركولانيوم أولا تحت حائط مائج من الطين وصل ارتفاعه في بعض الحالات إلى ثلاثين أو أربعين قدما، فاض على كل ما صادفه ودفن المنازل والمعبد

وملأ البدرومات ولم يبق أمام السكان إلا الفرار ... وانطلق الذين يملكون عربات بالون الخيل بسياطهم محاولين في نفس الوقت أن يحملوا المشاعل لينيروا الطريق للهرب بعيدا نحو البحر أو نحو نابولى ".

ثم جاء دور بومبي، ونظرا لأن الكارثة لم تدهم المدينة فجأة، فقد أضاع السكان وقتا ثمينا . و كان كثير منهم يراقبون برعب تقلصات الجيل آملين مبتهلين أن تدفع الرياح سحابة الحمم بعيدا عنهم، وكانت تشبه شجرة الصنوبر الهائلة، ويبلغ ارتفاعها ١٠٠٠ قدم . إن الذين مروا بتجربة الغارات الجوية إبان الحرب العالمية الثانية يعرفون جيدا غريزة تمسك المرء بمحل إقامته وممتلكاته أطول وقت ممكن.

لكن الرياح دفعت السحابة المميتة نحو المدينة وبدأ السكان ينشدون النجاة بالهرب.

(كان اللابيللى يتراكم أكواما كبيرة، والحصى الخفيف ينطلق في جميع الاتجاهات والريح يدفع نحو المدينة كرات ضخمة يزيد وزن الواحدة منها على أربعة عشر طنا، وخلال وقت قصير غرق كل شيء، وانهارت أسقف كثيرة تحت ثقل المقذوفات وبينما يجاهد الهاربون خلال أكوام اللابيللى التي يبلغ سمكها تسعة أو عشرة أقدام كانت الحمم البيضاء تختلط بالمطر وتسقط دون هوادة وتعوقهم، مما أدى إلى اختناق عدد لا يحصى من السكان، حتى في الطريق العام بسبب غازات الكبريت الفظيعة .كانت الحمم

المبتلة بالمطر تلتصق بأيديهم وأقدامهم، ومن لم يستطيع الهرب عقب الانفجار مباشرة مات موتا ذريعاً).

ونظراً لاضطرار السكان إلى الفرار فجأة، بقى كل شيء بالمدينة على حاله . ترك خنزير لم ينضج بعد في قدره بأحد المنازل. وفي منزل آخر ترك الخبز في الفرن، وقرر أحد الأثرياء ويسمى كاكيليوس جوكوندوس – وولداه كوينتوس وسكستوس، أن يتركوا منزلهم الجميل ويلجأوا إلى منزل صديقهم فيزونيوس، فوجدوه قد ترك منزله وهرب بعائلته، ولكنه نسي أن يحل عقال الكلب الذي يحرس المنزل، وكان مربوطا بالقرب من الفناء .

(سقطت الحجارة غزيرة في الفناء وقفز الحيوان المسكين بقدر ما سمحت له السلسلة المثبتة علقة من البرونز في طوق حول رقبته، فاختنق الكلب آخر الأمر ووجد ممددة وقد تصلبت سيقانه الأربعة)

وغصت الشوارع بحشود من الهاربين الذين يجاهدون في شق طريقهم إلى بوابة هر كولانيوم غرب المدينة، واستطاع الذين يقيمون في تلك الجهة أن يهربوا وكان من بينهم كايوس سالوستيوس الذي يمتلك فيلا جميلة على ناصية شارع مركورى .

(ولم يبق بالمنزل إلا صاحبته التي أضاعت وقتها في جمع بعض الأشياء الثمينة فهلكت في الحمم المبتلة اللزجة بالقرب من منزلها و تبعثر من حولها ما كان معه امن حلى و نقود ومرآة فضية ووجد بالقرب منها ثلاث خادمات).

واستمرت الحجارة والحمم تنهمر في الظلام، ودخان الكبريت يلهب العيون ويلسع الحلق و حشود الرجال و النساء يكافحون ويتدفقون من البوابة

حيث وجدت جثث كثيرة مكدسة فوق بعضها البعض :

(كان الواحد يسقط تلو الآخر في الحمم . وكثير من السكان انتقلوا إلى العالم الآخر وهم يحملون على ظهورهم أكياسة مليئة بالذهب والفضة).

وقد يكون أبشع منظر هو الذي اكتشف في منزل (بشارع المقابر) حيث اجتمع بعضهم في حفل جنائزي عقب وفاة أحد الأقارب فانقض الموت على المحتفلين بسرعة لم تتح لهم فرصة مغادرة الأرائك التي كانوا مستلقين عليها، وأغلب الظن أنهم اختنقوا بغازات سامة . ووجدهم المنقبون في حجرة الطعام المزينة بالصور وهم يحيون ذكرى موت قريبهم وذكرى موتهم في آن واحد .

وقبل أن نترك بومى، نعرض صور أخيرة للمدينة المنظر نفس : فيلا (الأسرار الجميلة التي سبق وصنفها، ذات الرياض الفخمة التي تملكها إحدى الكاهنات السابقات للإله ديونزيوس . تقع الفيلا خارج الأسوار بالقرب من البحر، والمفروض أن فرصة النجاة كانت متاحة لسكانها أكثر مما هي متاحة اللذين يعيشون داخل المدينة. ولقد وجد المنقبون فيها مجموعة الصور التي تمثل

تدشين الشابة التي تتلمذ على يد الكاهنة، كما وجدوا أيضا بالطابق العلوي جثث نساء لم يتمكن من الهروب.

وكتب كورتى يقول:

لم يستطعن الهروب لأن أرض الغرفة و سقفها انهارا فوقعت النساء على الأرض وبقين هكذا يحليهن الجميلة من خواتم وسلاسل ذهبية تزين أطرافهن

التي تحطمت . وكانت إحداهن وهي شابة صغيرة تقبض بيد متقلصة على مرآة من البرونز ... ووصلت فتاة أخرى حتى مدخل المنزل م خارت قواها فسقطت . ووجد كذلك رجل لعله كان بواب المنزل . وبعد أن طاف خلال حجرات عديدة لجأ إلى حجرة الحراسة الصغيرة حيث قضى في أظلم ركن بها . ووجد وهو ينظر كالمأخوذ إلى خاتم بأصبعه الخنصر محلى بحجر الكالسدونى يحمل نقشة لصورة امرأة [1] .

---

(1) **Corti, E.C.C. The Destruction and Ressurrection of Pompeii and Herculaneum. Routledge and Kegan Paul 1951.**

الفصل الحادي عشر

بئر تششن إتزا المقدسة

عندما نعبر المحيط الأطلسي كي ترى ما اندثر من مدن في وسط وجنوب أمريكا، نجد أنفسنا مرة ثانية في نفس الظروف التي عشناها مع باثة أوائل القرن التاسع عشر الذين وصفنا مغامراتهم في بداية هذا الكتاب. ذلك أن الرجال الذين قاموا بالكشف عن مدن الأزتك والمايا والإنكا كانوا أكثر شبهاً بكلوديوس رتش وهنرى لايرد، مهم السير ليونارد و ولى وسير فلندرز بترى مثلا (على الرغم من أن هذه المدن أحدث تاريخية من مدن نينوى أو بابل).

وعندما نقرأ بعض كتب هؤلاء الرجال نعود إلى المغامرات والعناء والخاطر والعجب . لكن هذا لا يعني أن عملهم لم يرتكز على القواعد العلمية، أو أن ملاحظاتهم لم تكن دقيقة، إنما أعنى أننا نجد حولهم جوا من الانفعال الصبياني البرية المنعش في آن واحد. وعلى سبيل المثال نعرض هنا وصفة كتبه ت. أ. ويلارد لمدينة تششن إتزا في بلاد المايا العظيمة، بأدغال يوكاتان، كما قصه عليه صديقه العجوز إدوارد تو مدون، معبرا عن انطباعاته، حين رأى هذه المدينة للمرة الأولى، وهو الذي قضى جزء كبيرة من حياته ينقب فيها . قال :

"قضيت أياماً من رحلتي بالقطار، ثم ركبت (النولان)، ذلك الاختراع الشيطاني الذي يهد البدن من قمة الرأس لأخمص القدم، وأخيرا ركبت جوادا كنت أغفو فوقه وهو يسير متثاقلا يغلبه النعاس . ولم يفلح ضوء القمر

الساحر في إيقاظ ذهني المكدود و بدني المنهوك . وظللنا نسير الهوينا ساعة تلو الأخرى، وبعد منتصف الليل بساعات لا أعرف عددها، سمعت دليلي يصيح فجأة باللغة المحلية، وأفقت النفسي واعتدلت على السرج.

كان زميلي الهندي يشير أمامه إلى شيء ما على بعد، فرفعت عيني، وفي الحال أفقت تماما إذ رأيت في ضوء القمر المتلاشي ما يبدو وكأنه معبد إغريقي هائل الحجم فوق تل عال . و خيل لي وأنا أنظر إليه أن أماى حصنا ضخما يرتفع فوق البحر من فوق نتوء صخري، وكان المنظر يزداد وضوحا وضخامة كلما اقتربت منه دابتي المتهالكة، وشعرت كأن قلبي توقف لحظة، ثم عاد ينبض السرعة فائقة .

ولقد نقبل أسلوبا كهذا بين آن وآن، ولكن اطراده، يدفع القارئ بعد صفحات قليلة إلى إسقاط كثير من المبالغات في أسلوب مستر ويلارد المزخرف، مثل : أهزت قدماى، وأنا أنظر مرتعدة منتظرة نقمة الآلهة التي دنسنا معبدها . ويمضي فيقول : إنه رأى بعين الخيال شابة من أهالي المايا وهي تلقي في بئر تششن إتزا المقدس قربانا لإله الأمطار .

وما هذه المحنة المنسقة التي يحملها صغار الكهنة بخشوع ؟ . هؤلاء الرجال ببشرتهم السمراء و بنيتهم القوية، هل هي نعش ؟ هل هي تابوت ضخم ؟ هل قضت الضحية نحبها ؟ لا. إنها تتحرك . إنها جميلة، لا شائبة فيها ... إنها أجمل فتاة على الأرض .. عيناها تنطقان بالرعب، الخوف يشل حركتها ويجمد أطرافها ... خوف من المجهول. إن ملابسها الشفافة تنبئ عن جهنم رقيق في عنفوان الصبا ... دفعة أخيرة و تلقى عروس الإله . يوم تشاك، بعيداً نحو البئر . ويدور الجسد اللدن في الهواء ثم يسقط سريعة سريعة حتى

يرتطم بالماء الداكن على عمق سبعين قدما .... ويسمع صدى الارتطام بالماء ثم يخيم سكون تمام .. لاشيء غير تماوج المياه . لقد راقت العروس الشابة في عيني سيدها، الإله المطعم . (نوه أوخ بوم تشاك).

إن هذا الإسراف في الأسلوب الأدبي قد يثير الابتسام، ومع ذلك فإن و بلارد يعرض أمامنا صورة حقيقية لما كان يحدث هناك . وما من شك أن ما رآه تومسون بعين الخيال ووصفه ويلارد عن لسانه قد وقع فيلا في تلك البقعة، وتكرر وقوعه مرات ومرات . و جاء الدليل على يد تومسون بعد سنوات عديدة عندما خاطر بحياته، إذ نزل برداء الغطاسين ليكشف عن بثر تشسن إتزا، وقبل أن نوضح كيف ولماذا قام بهذا العمل، علينا أولا أن نعرض لمحة من تاريخ وأساطير شعب المايا.

المايا هم سكان ولاية بوكانان الأصليين، في المكسيك، وكانو أكثر هنود أمريكا الوسطى تقدمة ورقيا، يكتبون خطأ هيروغليفية خاصة، وقد تركوا وثائق مدونة على الورق و منقوشة على الصخر. أما دينهم فكان يمت بصلة وثيقة إلى أديان جيرانهم في الشمال، وهم شعب الأزتك، فكانوا يعبدون الشمس وغيرها من آلهة الطبيعة، وأقاموا معابد وأهرامات تشبه تلك التي أقامها الأزتك، كما أنهم قدموا القرابين البشرية مثل جيرانهم . كانت ثقافتهم من نفس ثقافة الشعوب الهندية الكبرى الأخرى، وكانت لغتهم قريبة من لغة هذه الشعوب، كما أنهم استعملوا الأسلحة والأدوات، وبعضها مصنوع من الحجارة والخشب . والفارق بينهم أن المايا كانوا شعبا يفلح الأرض، أما الأزتك وشعب مقاتل .

ودراسة تاريخ شعوب هنود أمريكا أصعب بكثير من دراسة تاريخ مصر و

غربى آسيا، فلم يسمع بهم أحد من الأوربيين قبل وصول كولومبوس لبلادهم . وعندما وصل غزاة الأسبان إلى أمريكا في القرن التالي، كان النهب همهم، فلم يبقوا على سجلات الحضارات القديمة التي اكتشفوها، وإنما دمروها بسرعة . ومها أعجب المرء بشجاعة كورتيز وجنوده المغامرين، فإن تاريخهم سجل حافل بالانحطاط والجشع والقوم مثل باقي تاريخ البشر الدموي .

ومن حق الأسبان أن نثبت هنا أن شعب المايا كانوا قساة، فقد مارسوا تقديم القرابين البشرية، وانزعج القساوسة الأسبان الذين أصطحبهم الغزاة . وقاموا بتلقين المايا تعاليم الديانة المسيحية الرحيمة، ولعلهم سلكوا إلى ذلك سبلا معينة، جاء وصفها في سجل ما ياوى قديم؟

(عندئذ بدأت تعاليم المسيحية التي انتشرت في أراضينا ... وبدأ تنفيذ الإعدام شنقا، ثم عرفها القيد بالحبال، ودعا أطفال الشباب من إخواننا للقيام بالأشغال الشاقة، ودفعنا الدية . بعد ذلك فرضت علينا التعاليم السبع لكلمة الرب : فلنستقبل ضيوفنا با ترحاب، لقد جاء إخواننا الكبار [1].

ومن ناحية أخرى بجدر بنا أن نذكر أن رجال الأكليروس الأسنان حاولوا بكل جهدهم أن يخففوا من تعارف الجنود وأن يحموا الهنود منهم . ولكن إسرافهم في التمسك بتعاليم الدين دفعهم – أسوء الحظ – إلى تدمير أغلب الكتابات الهندية القديمة التي لو بقيت وترجمت، لأمدتنا عن شعوب أمريكا الأصلية بمثل المعلومات التي نعرفها عن مصر و بابل . ومع ذلك، فقط بقيت بعض السجلات، إذ كتب أحد أفراد الانكا المنفيين – في أيامه الأخيرة

---

(1) Thomson, Edward Herbert. People of the Serpent. G.P . Putanam's Sons . London, 1933

– تاريخ شعبه باللغة الأسبانية، وقام بعض الكتاب الأسبان بتسجيل عادات و تقاليد الشعوت التي انتصروا عليها.

وهكذا أصبحت تلك السجلات الأسبانية هي المرجع الأساسي عن السكان الأصليين في أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم أضيفت إليها أعمال الأثريين سواء أكانوا من رجال الطليعة مثل : أدواره تومسون، و تيو بيرت مالير، وديزيريه شارنيه، أم من الذين تدربوا على البحث العلمي مثل : فا يانات، وسوا نتون وسبندن، وغيرهم .

ولا نستطيع هنا أن نبحث المشاكل المعقدة الخاصة بتاريخ الحضارات الأمريكية القديمة لشعوب الأزتك و التولتك، والمايا ... الخ. إذ أن الآراء عنها متضاربة، ومع ذلك يقول دكتور فارانت ر الراحل) إن أول الذين دخلوا القارة الأمريكية وصلوها من آسيا عن طريق مر بهرنج، و تاريخ وصولهم غير معروف . ولكن حدث في عام ١٩٤٧ أن عثر دكتور (هلموث دى تيرا) بالقرب من تكسبان بالمكسيك، على بقايا صياد من عصر ما قبل التاريخ، وكانت البقايا في حالة سلمية ومعها دون شك بقايا فيل (الأرخيد سكودون) الذي اندثر . وهذا الرجل الذي كان يعيش على صيد الفيلة منذ خمسة عشر ألف عام، يشبه إلى حد بعيد الهنود البدائيين الذين يعيشون في هضبة المكسيك حالياً ومع ذلك فهو ينتمي إلى نفس العصر الذي عاش خلاله الأوربيون يرسمون على جدران الكهوف، وهو "عصر الحجرى القديم المتأخر.

وكما هو الحال في مصر والعراق، نشأت الحضارة الأمريكية في الأماكن التي استطاع سكانها الاستقرار واستغلال الأرض في زراعة الحبوب . وكان

العالم الجديد مليئة بمثل هذه الأماكن ولا سيما في أمريكا الوسطى ومنطقة جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية، وقد وصل هنود تلك المنطقتين إلى ذروة ثقافتهم ماديا واجتماعياً).

وقد عرفو الزراعة في كلتا المنطقتين . ويقول د. قايانت في هذا الصدد:

"كانت هضبات بيرو تنتج البطاطس، ومع ذلك فقد كانت المحاصيل الغذائية الأساسية الأمريكية منتشرة في جميع المناطق الزراعية أيام فتح الأسبان البلاد . ولم يتضح بعد ما إذا كانت هذه المحاصيل قد زرعت أول ما زرعت في بيرو أم في أمريكا الوسطى . ولكن ينبغي أن نتذكر أن جميع محاصيل هنود أمريكا، دون استثناء، كانت مجهولة تماما في آسيا وأوربا وأفريقيا قبل استقرار البيض في أمريكا . وعندما دخلت هذه المحاصيل إلى تلك البلاد زادت على ضعف إنتاجها الأصلي " [1].

وثمة نقطة ثانية علينا أن نتذكرها خصوصا عندما نبحث الآثار المعمارية الهائلة التي شيدها هنود أمريكا .، ذلك أنهم – باستثناء أهالي بيرو – لم يكن لديهم دواب للنقل أو المواصلات، مثل الجياد والبغال والثيران . كان سكان منطقة الأنديز يستعملون حيوان اللاما للنقل، وينتفعون بصوفه . أما الحيوان الذي عرفه الجميع فكان الكلب الذي استغله أهل الشمال لحمل المتاع، بينما كان أهل المكسيك يأكلون لحمه، لأنهم لم يعرفوا البقر والأغنام.

ولعل عدم وجود دواب النقل كان من بين الأسباب التي لم تسمح بهجرة

---

(1) الجزء الذي بين الأقواس الصغيرة بقلم المؤلف .

تلك الشعوب من مكان لآخر على نطاق واسع، كذلك لم تعرف أمريكا – قبل دخول البيض – الحرب التي تنشأ نتيجة لتزايد أعداد السكان كما عرفها العالم القديم وقد تفسر تلك الأسباب نشأة حضارات و لغات متعددة مستقلة عن بعضها [1]، ومع أن شعوب المايا والألمك و الزابوتك و التولتك، والأزتك، والأنكا، تنتمي جميعها إلى الغزاة الآسيويين الأول الذين دخلوا القارة الأمريكية، وأن الشبه واضح بين لغاتهم وعاداتهم ودياناتهم وفنونهم وملابسهم وأسلحتهم وأدواتهم، فإن هذه الشعوب كانت تميل للعزلة، ورغم نشوب المعارك بينهم، فإن فنون القتال لم تزدهر عندهم، ولم تكن أعمال القتل والنهب التي سادت أيام الاستعمار الأبيض، من أساليب الهنود السياسية .

ومن المستحيل تأريخ تلك الحضارات تأريخا دقيقا، فرغم أن شعب المايا قد وضع لنفسه تقويم دقيقة، فإننا لم نستطع حتى الآن ربط هذا التقويم بالتاريخ الميلادي ربطة دقيقة، ومع ذلك فإن الأثريين يرجعون نشأة الحضارة في أمريكا إلى حوالي عام ٤٠٠م، وإن كانت بعض الآثار التي عثر عليها هناك ترجع إلى ما بين عام ٨٠٠م وعام ١٤٠٠م. وهكذا نستطيع أن نقرر أن أول تلك الحضارات قد نشأت حوالي نهاية عصر الإمبراطورية الرومانية، وأن آخرها كانت معاصرة الأواخر العصور الوسطى في أوربا، وهكذا يحتمل أن تكون أجمل ما في تشِشن إتزا عاصمة شعب المانيا قد شيدت في نفس التاريخ الذي شيدت فيه كاتدرائية سالسبورى بانجلترا . لقد كانت مدن المايا في مقاطعة يوكاتان مراكز دينية مثل مدن سيلان القديمة . ولا تزال آثارها

---

(1) أن هذا لا يعني عدم وجود بيئات متحضرة في امريكا قبل عام ٤٠٠ ميلادية، وما نعرفه باسم الحضارات الوسطى، يرجع في الواقع إلى بداية مدير المسيحية .

باقية في عدة أماكن مثل (هواول) و (أوا كزا لتون) و (بالنسكة) و (سان جوزيه) . لكن أهم آثار المايا توجد في العاصمة تششن إتزان حيث عثر على عمائر هائلة شيدت من كتل حجرية ضخمة . وقد رأى إدوارد تومسون هذه المباني بارزة من الأدغال. ويقول في وصفها :

أن تششن إتزا في الواقع مكونة من مدينتين المدينة واحدة ، كادت المدينة القديمة منهما أن تختفي تحت غابة كثيقة . ويمكن الاستدلال على موقعها من تلال صغيرة تكسوها أعشاب كثة، نبتت فيها أشجار كبيرة، و تتناثر على جوانبها أحجار ذات نقوش . أما المدينة الحديثة فواضحة المعالم تحددها مبان مازالت قائمة . وتمتد المدينتان فوق مساحة تبلغ حوالي اثني عشر ميلا مربعا . ويوجد في منطقة المدينة الحديثة التي أشرت إليها مبنى في حالة تكاد تكون سليمة تماما وكأنه شيد منذ حوالي عشرين أو ثلاثين عاما لا أكثر . وعشر من هذه المباني مازالت محتفظة بسقوفها، ويمكن استعمالها للسكن . والتخطيط الوحيد الذي يمكن أن نتخيلة من شكل المدينة هو أن تلك المباني كانت تتوسط المدينة، وكانت معابد ومساكن المملوك والعظماء من أفراد الدولة، ومن حولها تتناثر، لأميال عديدة، مساكن مستطيلة الشكل، كانت خاصة بأفراد الشعب .

وعندما نزل تومسون بأراضي يوكاتان، كان يشغل منصب قنصل أمريكا، وقد سحرته البلاد وشه ها، لاسيما مدنها القديمة، لدرجة أنه اشترى القرية (هاسيندا) التي تقوم تششن إتزا عليها، وأقام بها ثلاثين عاماً يدرس وينقب في آثارها . ومع أن مؤسسة كارنيجي واصلت العمل هناك من بعده، إلا أن كتاب People of the Serpent الذي ألفه، وكتاب City of the Sacred well الذي ألفه صديقه ويلارد، يشتملان على وصف شيق عن أول الكشوف الأثرية

هناك بقلم يشف عن حب و حماس مشتعل للموضوع. وكان تومسون يعمل في الآثار كمحترف، ويحبها حب جارفة، كما كان الحال مع شلمان مكتشف طروادة و موكيناى، الشكل لا يرد مكتشف نينوى .

إن تسلسل التواريخ الذي وضعه تومسون لم يكن مضبوطا، بل إن بعض استنتاجاته جاءت مخالفة للواقع، ومع ذلك فإن اندماجه الكلى لافي المباني القديمة فحسب، بل وفي أساطير و عادات شعب المايا الذي عاش معه وأحبه، يعوض هذا النقص . إن ما سجله خلال الثلاثين عاما من العمل المتواصل الذي قام به على نفقته الخاصة، ليفيض بالروح الإنسانية، ويوحي بروح التفاني في سبيل بلوغ الهدف، وهى روح فتقر إلها الكثير من مؤلفات من جاء بعده من أثريين.

ومن أهم الأساطير التي سحرته، تلك الخاصة ببئر تششن اتزا المقدسة . وفي كتاب Relacion de las Cosas de Yucatan الذي ألفه الأسقف دييجودى لاندا وهو من كبار رجال الأكليروس الذين رافقوا الأسبان في غزو المكسيك، نجد ما يلي :

" من الساحة المقابلة لهذه المسارح (في تششن اتزا) يمتد طريق فسيح جميل إلى البئر التي تقع على بعد بضعة أمتار .

وإعتاد الأهالي، وما زالوا، أن يلقوا في هذه البئر رجالا أحياء يتقربون بهم إلى الألهة إذا أصابهم القحط، وهم يعتقدون أن هؤلاء الرجال لا يموتون، مع أن أحدا لم يرهم ثانية على الإطلاق، كذلك يلق الأهالي في البر بأشياء ثمينة وأحجار كريمة من مقتنياتهم، حتى يمكن القول إنه إذا كان في تلك البلاد ذهب، فإن هذه البئر تحتوي على أكبر جزء منه، وهكذا كان الهنود يعبرون

عن تمجيدهم العظيم لتلك البئر" .

وثمة أساطير أخرى تقول إن الأهالي في بعض المناسبات كانوا يلقون في البئر بأجمل عذراء قربانا لإله الأمطار، (يوم تشاك) الذي يعتقدون أن قصره في قاع البئر . وفي ظروف أخرى كانوا يلقون في البئر بنساء دون قيود ويتركونهن لعدة ساعات ثم يرفعون من يبقين على قيد الحياة من البئر بوساطة حبال تلقي لهن ويستجوبونهن. ويقول دون فيجو سارمينتودى فيجويرووا في تقرير كتبه عام ١٥٧٩ ورفعه إلى شارل الخامس ملك أسبانيا :

اعتاد النبلاء وكبار القوم، أن يصوموا ويتقشفوا لمدة ستين يوما، ثم يذهبون في مطلع الفجر إلى البئر (Cenote) ويلقون فيها بنساء من أتباعهم بعد أن ينبهوا عليهن بأن يطلبن لأسيادهن عاما مواتية لاحتياجاتهم ورغباتهم .

ثم يقذف بالنساء دون قيود فيسقطن في البئر بقوة تحدث صوت آ شديدآ، و عندما يأتي الظهر كانوا يدلون حبالا لرفع من تنادي عليهم منهن . وبعد خروج هؤلاء النسوة وهن شبه أموات، كانوا يشعلون النار من حولهن ويحرقون أمامهن بخور الكوپال، حتى إذا أتقن وسيطرن على حواسهن، قلن إن في البئر أناساً كثيرين من الرجال والنساء، وإنهم استقبلوهن، وإنهن شاهدن تحت الماء فجوات وحفرة كثيرة، وأن المقيمين في البئر أجابوا أسئلتهن فعرفن ما يخبؤه العام القادم من خير وشر لسادتهن.

وفي تششن إتز ثلاث آبار رئيسية طبيعية، وعدد لا بأس به من الآبار الأصغر حجما. وكلمة (تشي) بلغة المايا معناها (فم) وكلمة (تشن) معناها بئر، وقد اختار الأهالي تلك البقة لغزارة المياه فيها . والبئر المقدسة لجوة طبيعية كبيرة في الصخر يبلغ أقصى عرض لها حوالي ١٦٠ قدماً، ماؤها

أخضر اللون، وهي في الواقع بحيره صغيرة يغطي سطحها عادة غشاء من تراب حجر الجير.

وعندما وصل توم سون إلى تششن إتزا، كان الطريق المقدس المؤدي إلى البئر في حالة سيئة، وقد انطمست معالمه إلى حد ما بسبب جذور الأشجار النامية بقربه . ومع ذلك أمكن تتبعة حتى حافة البئر، و بالقرب من أحد المباني الأهرامية وجدت بقايا مبني صغير كانوا يقومون فيه بالمراسم الأخيرة قبل أن يلقوا بالضحايا في البئر.

وعزم نوه سون على استكشاف البئ ليتأكد من صحة ما نسب المايا في صددها من عادات، وكان أمامه عمل هائل، ويبدو أنه قرر– بادى، ذي بدء – القيام دمية الناس في البير باعتبارها خير السبل للحصول على الأشياء التي قد تكون راقدة في القاع، لكن كان عليه أولا أن ينزع الطين الذي تراكم فيها عبر القرون، وهو أمر يحتاج إلى كراكة . وفي انتظار تلك الكراكة ذهب تومسون إلى مدينة دوستن لأخذ دروس في الغطس على يد كابتن أفرايم نكرسون .

وكنب تومسون يقول :

تحت إشرافه (نكر سون) الفنى وصبره، أصبحت في الوقت المناسب غطاساً لا بأس به، ولو أنني لم أكن ممتازة كما اتضح لي ذلك فيما بعد. وكان على بعد ذلك أن أجهز كراكة ومعها ونش، و بكر، وحبال، ورافع متين، وذراع متحركة طولها ثلاثون قدماً.

وعندما تم شحن هذه الأدوات إلى أقرب ميناء ونقلها بصعوبة عبر الأدغال إلى تششن اتزا، أقامها تومسون على حافة البئر . وكان عليه أن

يختار البقعة التي يركزها فها لإنزال الكراكة، لأن البئر كان عرضها ١٦٠ قدما واتساعها حوالي ثماني أقدام . وبديهى أن نزح البئر كلها عملية لا جدوى منها.

ولكي يحدد المكان الذي ينتظر أن يجد به بقايا من الآثار قام بتجربة مروعة وصفها بقوله:

[لكي أحدد ... ما أسميته بالمنطقة الخصبة، ألقيت في البئر كتلا من الخشب مخروطة على شكل أجسام بشرية، كل منها في مثل وزن المواطن العادي . بعد ذلك سحبتها للخارج ثانية . وعند قياس الجبل الذي استعمل في هذه العملية استطعت أن أحدد المسافة التي كانت الصحايا تقطعها قبل أن تصل إلى القاع، و بالتالي حددت الموقع الذي يحتمل أن أجد فيه أية آثار][1].

كانت أول مرحلة من التجربة مخيبة للآمال . كانت الكراكة تختفي كل يوم تحت المياه و تطبق بأسنانها على ما في قاع البئر، وترفع للسطح ثانية، فإذا حمولتها عبارة عن كتلة من القاذورات والوحل كريهة الرائحة، ونباتات تحللت، وجذوع أشجار وكان كل حمل كريه وفحص بعناية، و يصفي لاكتشاف ما قد يكون به من آثار . ولم يعثر على شيء يستحق الذكر سوى بعض شقافات من الفخار ربما ألقاها في البئر الأطفال في أي وقت من الأوقات، وكان العمال الهنود الذين يعملون مع تومسون يعتقدون بطبيعة الحال أنه مجنون، ولكنهم لم يتبرموا نظر آ لأنهم كانوا يحصلون على أجرهم

---

(1) Thomson, Edward. People of the Serpent. G. P. Putnam's Sons. London, 1933.

. واستمر نزح البئر في الأيام الشديدة الحرارة تحت نظرات الضفادع والأبراص التي كانت ترقب ما يجري من شقوقها في جدران البئر وعيونها تلمع كبات الخرز.

[وجاءتنا الكراكة عدة مرات بهياكل عظيمة لغزلان وكلاب متوحشة، وصادفنا مرة عظام نمر وبقرة كدليل صامت على مأساة قديمة كان مسرحها في الغابة ... تلا ذلك فترة طويلة اختفت فيها حتى هذه الآثار، ولم تعد الكراكة تأتي إلا بالأوحال وأوراق الشجر وبعض الأحجار أحيانا . وبدأت آمالي تتلاشى حتى كادت تختفي . كان العمل لا ينتهي، وتعافه النفس...] (١)

إلى أن جاء يوم رطب مطر، وقد كاد الأمل ينفد، فإذا الكراكة تأتي شيئين بدا لأول وهلة أنهما من بيض النعام، وكان لونهما مائلا للصفرة، وعندما فصهما تومسون تبين أنهما قطعتان من صنع الكوبال الذكي الرائعة. كشط جزءاً من إحدى القطعتين وجففها وأشعلها فانطلقت منها رائحة ذكية . وتذكر عندئذ أن دون ديوجو كان قد قال في التقرير الذي قدمه الملك أسبانيا:

[بعد أن أخرجت النساء من البشر ... أشعلت النيران من حولهن وأطلق بخور الكوبال أمامهن].

وكثرت كرات الكوبال التي تخرجها الكرامة، وكان بعضها يحمل آثار انطباعات السلة التي كانت بها .وفي ذات مرة جاءت الكراكة بإناء مثلث الجوانب علوء بالكوبال، وبخور صمغي، وقطع خشبية في حالة سليمة، تشبه

---

(١) Willard, T. A. The City of the Sacred Well. Neinemann, London.

الصفارة أو سكين تقليم الشجر :

ويقول ويلارد براسه الألوف عن هذه الأداة (إن الأهمية التاريخية لهذه المدية الخشبية لتفوق أهمية أي سيف من الصلب) . والواقع أن هذه الأداة وأمثالها تعتبر أول نماذج من المقلاع اليدوى (bul - che) الذي استعمله شعب المايا القديم في إطلاق القذائف، وكثيرا ما ورد رسمه منحوتا، ولكن لم تكتشف منه أية نماذج سليمة قبل ذلك . ولم يتطرق العطب إلى المدية وهي في الماء، إلا أنها بدأت تتحلل بعد أن استخرجت من البئر، لكن تومسون سارع لإنقاذها بالمواد الواقية. وزاد عدد كرات الكوبال وجاءت معها كميات كبيرة من بخور المطاط وأشياء مصنوعة من المطاط . وسبق أن قال (توركمادا) عن المايا إنهم يشعلون النيران في أوان بها كوبال ومطاط أثناء احتفالات تقديم القرابين . واكتشف تومسون أن سطح كثير من كتل الكوبال كان مطعماً بحبيبات من المطاط "، وفي بعض الأحيان وجد شرائع من الخشب مثبتة في قطع من المطاط، والمعتقد أنها كانت تستعمل لإشعال الكوبال .

وبعد هذه الاكتشافات بقليل، حملت إليهم الكراكة جسما أسود اللون أثار الرعب بين العمال والهنود، وقد وصف تومسون هذا الحادث بقوله :

[دفع أحد العمال ذراعيه حتى المرفقين في كتلة الوحل كالمعتاد، لند ارتد إلى الوراء وهو يصرخ في رعب شديد ... وأشار إلى ثعبان صغير داكن اللون له طوق أبيض حول رقبته، وقد رفع رأسه من الوحل مهددا، كان له نفس شكل وحجم ومظهر حية سامة خطيرة منتشرة في يوكاتان].

ولم يكن هناك داع للفزع، فقد كان الثعبان مصنوعا من المطاط، وجاء

الدليل القاطع على الحقيقة المرة عن عادات المايا القديمة، حين حملت الكراكة جمجمة سليمة صقلتها المياه حتى ابيض لونها، ثم تكاثر بعد ذلك عدد الجماجم والعظام الآدمية، و كان معظم الهياكل لفتيات صغيرات السن. ولكن الكراكة كانت تخرج بين الحين والحين عظام كتفين عريضين وجمجمة سميكة وهيكلا ضخما الرجل فارع البنية، لاشك أنه كان من المقاتلين الأشداء الذين قدموا ضمن الضحايا وهو في عنفوان شبابه ليزين بلاط إله الأمطار (1) .

ولم يجد تومسون أي فرق بين هذه الجماجم وتلك التي في مقابر المايا المحدثين وكانت الجماجم التي عثر عليها في البئر لصبايا تتراوح أعمارهن بين أربع عشرة سنة وعشرين سنة . و بقيت القبضة الفولاذية تأتي لعدة شهور بقايا آدمية وآثار ثمينة . وأصبحت كرات الكوبال معملة لكثرتها . ولو أنها كانت دليلا على كثرة الضحايا والنذور التي قدمت للالهة عبر الأجيال . وقال أحد حكماء المايا لصديقه تومسون (في قديم الزمن كان آباؤنا يحرقون الصمغ المقدس، فيحمل عبيره صلواتهم ويصعد بها إلى إلههم الذي يقيم في الشمس). وبدأت أشياء ثمينة أخرى تأتي بين فكي الكراكة : أوان و مباخر ورءوس لحراب ورءوس سهام، و بلط ومطارق من الظهران والكاس المتبلور، وأزاميل من النحاس، وأسطوانات من النحاس المطروق، تحمل بعضها صور آلمة المايا القديمة . كذلك عثر على أدوات مصنوعة من الذهب، أهمها عدد كبير من الأجراس الصغيرة التي هشمت عمد قبل إلقائها في البئر . كما وجدت أدوات وحلى للزينة مصنوعة من حجر اليشم، لكنها كانت هي الأخرى مهشمة عمدة، لم تكن قد سحقت تماما و إنما طويت بيد ماهرة

---

(1) Willard, T. A. The City of the Sacred Well. Heinemann, London.

حتى يمكن إعادتها لوضعها الأصلي بسهولة .

ويرى تومسون أن هذه الأشياء قد (أتلفت) بمقتضى الطقوس الدينية، كما كانت القرابين البشرية تقتل لتصعد أرواحها إلى (يوم تشاك) إله الأمطار وهو يذكر هنا عادة مماثلة رآها عند المايا المحدثين . ففي جنازة امرأة من المايا مزق (بعضهم) جلبابها ونعلها قبل دفنها . ويلاحظ أن تومسون لم يذكر (ربما عن جهل بالموضوع) أن الأسر المبكرة في مصر القديمة كانت تمارس عادة مائلة، فقد رأيت بنفسي (المؤلف) أواني هشمت عمدة قبل وضعها في إحدى الحجرات بأهرام زوشر (٢٨٠٠ ق.م) في سقارة .

وبعد شهور من العمل، أطبقت الأسنان الفولاذية على كسر من الحجر، ومعنى هذا أنها وصلت إلى قاع البئر الصخري بعد أن رفعت طبقات الطين السميكة وهنا بدا دور مثير وعجيب في هذه العملية. أدرك تومسون أن قاع البئر ليس مستوية وأن به فوات ربما استقرت فيها أشياء لم يتسن للكراكة أن تطبق عليها وأن الطريق الوحيد لاستخراجها هو نزول البئر بملابس الغطس وتحسس قاعها . وشرع فعلا في التنفيذ بمصاحبة واحد من اثنين من اليونانيين محترفي الغطس، استأجرهما لهذا الغرض.

ألقيت عوامة على سطح الماء، و ثبت تومسون فوقها مضخة لضغط الهواء . قام الأهالي على تشغيلها بعد أن مرهم اليونانيان .

ويقول تومسون :

"عندما شعر اليونانيان أن الرجال تعلموا طريقة تشغيل المضخة ... كنا نحن على استعداد للغطس ... نزلنا إلى العوامة في خزان الكرامة ووقف

المساعد مع الرجال الذين يديرون المضخة لمراقبتهم، وارتدين ملابسنا المصنوعة من قماش لا يتسرب منه الماء، ووضعنا على رءوسنا خوذات كبيرة من النحاس تزن الواحدة أكثر من ثلاثين رطلا، وقد جهزت منظار وصمام للهواء قرب الأذنين " .

وعندئذ بدأت أعجب عملية الحفر تحت سطح الماء تيل كوستو كانت الكراكة قد حفرت حفرة ضخمة جداً في طبقات الطين اثراكدة في قاع البئر إلى أن وصلت للصخر الذي تحتها، وإلى هذه الحفرة نزل تومسون ومساعده.

" وخلال الأقدام العشرة الأولى التي هبطناها تحول لون الضوء من الأصفر إلى الأخضر، إلى البنفسجي الداكن، ثم ساد الظلام الشامل . وحين أخذت شهيقا وفتحت صمام الهواء في خوذتي سمعت صوتا أشبه بالضجيج عند أذني، وبعد ذلك توقف، الأم . وكررت هذه العملية عدة مرات قبل أن أشعر بالقاع تحت قدمي ... وشعرت ... بانفعال غريب عندما أدركت أنني أول شخص يصل هذا المكان وهو على قيد الحياة ويعلم أنه سيغادره حيا . بعد ذلك وصل الغطاس اليوناني ووقف بجانبي وتصافحنا".

كانت البطاريات الكهربائية التي مع الغطاسين عديمة النفع في مثل هذا العمل . وعندما تحسس تومسون الجدران من حوله أدرك أنها من طين مضغوط، إذ أن الكراكة قضمت جزءا كبيرا من الطين إلى عمق ثلاثين قدما، وكان الجزء السفلى من الطين مضغوطا لدرجة أنه أمسك بقطع كبيرة من الصخر، وأعمدة، وجذور أشجار . وكانت جميعها مغروسة في الطين كما تغرس حبات الزبيب في الكعكة، ومن آن لآخر كانت إحدى الصخور تنساب من الجدار الطيني وتندفع فوق تومسون ومساعده، بينما يتحسسون طريقهم في الظلام .

"وعندما تقع كتل الصخر كانت المياه المندفعة أمامها وحولها تصفعنا وتلقي بنا بشدة فتنقلب رأسا على عقب متأرجحين في ماء مثل زلال البيض في كوب من الماء، وكنا نبق على هذا الحال إلى أن تهدأ المياه فتعتدل على أرجلنا ثانية " .

وعثر تومسون في قاع البئر على أحجار كبيرة ملساء، تحسس بعضها فوجده منقوشة، وقد ربطت هذه الأحجار بسلاسل ورفعت إلى سطح الأرض، ووجد على أحدها نقشا يمثل رجلا جالسا ربما كان إلهة أو كاهنا . وبعد رفع هذه الكتل الثقيلة استطاع تومسون أن يفحص فوات قاع البئر، وبينما كان يبحث بأصابعه صادفته عدة أشياء صغيرة مصنوعة من الحجر والمعدن كدسها في سلة بجانبه . وعندما أفرغ هذه السلة بعد أن صعد إلى سطح الأرض وجد أنها مصنوعة من الذهب ومن حجر اليشم، كانت بينها فصوص من اليشم و خواتم جميلة مطروقة، وعدد كبير من الأجراس المصنوعة من الذهب، وفي يوم واحد عثر على مائة نموذج لفن المايا، منها تاجان من الذهب على شكل ثعابين بأجنحة، وصورة رمزية، وأشياء يبدو أنها كانت رؤوساً ذهبية لصولجانات، ووجد كذلك قطعاً كثيرة من النحاس أو النحاس والذهب، وأطواقا صغيرة نحاسية وأزاميل نحاسية.

" وعندما قرأت تقرير تومسون تذكرت اكتشاف د. ج شوجارث لكهف الإله زيوس المقدس بجزيرة كريت [1]، فقد وجد المنقبون هناك مئات من هدايا النذور الصغيرة ثبتها المتعبدون في شقوق الصخر منذ ألفين أو ثلاثة آلاف عام . وليست هناك صلة بين الكشفين بطبيعة الحال، اللهم إلا ما اعتاده الأقدمون من تقديم التذور للآلهة .

---

(1) راجع كتاب المؤلف The Bull of Minos

وهناك تناقض غريب بين ما ذكره ويلارد وما سجله المكتشف نفسه في كتابه : (People of the Serpent) عن القيمة المادية الأشياء المكتشفة، من ذلك مثلا أن ويلارد يتحدث عن إناء من الذهب ... قطره تسع بوصات ... و عدة أوان أصغر قطر الواحد منها حوالي ثلاث بوصات ... ونماذج صغيرة من الذهب لحيوانات وحشرات ... واثنتي عشرة أسطوانة من الذهب كان صانعها قد جهزها لينقش عليها رسمة ما فيما بعد، وسكاكين بأيد من ذهب، وعدة أجراس من الذهب الخالص حتى المطرقة المدلاة بداخلها.

كذلك وصف عدداً من هذه الأشياء الجميلة بينها (أكواب وأقداح من الذهب الخالص، وأسطوانات مطروقة ومنقوشة) هذا إلى أن تومسون نفسه قال له :

"لو أن الأشياء التي انتشلت من البئر وضعت في بوتقة صائغ لتحولت إلى سبائك تساوى مئات الآلاف من الدولارات ... وهو مبلغ يبرر ما أنفقت من جهد ووقت ومال في هذه العملية، لو أنني كنت دنيء النفس لنظرت إليها من الناحية المادية .

لكننا نجد أن تومسون يقول في كتابه سالف الذكر :

" إن الأشياء المصنوعة من الذهب الخالص سواء كانت مصبوبة أو مطروقة أو منحوتة أو مضغوطة، قليلة و ليست بذات أهمية، نسبية . وأغلب، الأشياء التي قيل إنها من الذهب كانت سبيكة تزيد فيها نسبة النحاس بدرجة ملموسة، وترجع قيمتها إلى الرموز والصور المنقوشة عليها ... إن القيمة (المالية) للأشياء التي انتشلت من البئر المقدسة بكل هذا الجهد والمال كانت، في الواقع تافهة ...".

وإذا كنت قد أطلت في الكتابة عن البئر المقدسة دون المباني الكبيرة التي تحيط بها، فليس السب هو أن تجربة تومسون كانت فريدة في عالم الحفريات فحسب، وإنما لأن الطقوس البشعة التي كانت تقام على حافة البئر تفسير الغرض الديني من إقامة هذه المباني . كان المايا شعبة زراعية مثل شعب مصر و بابل، يعتمد في حياته على المحاصيل التي ينتجها، وقد أدركوا أن خصوبة أراضيهم، تقع تحت رحمة قوى غامضة لا تخضع لسيطرتهم : وكانوا يضطرون إلى الهجرة من أماكنهم إذا نزلتهم فترة طويلة من القحط أو توالت عليهم المحاصيل الهزيلة التي تؤدي إلى المجاعة .

وقد جاء فيما كتبه الأسبان عن شعب المايا أن سكان تشش اتزا كثيرة ما اضطروا إلى الهجرة منها، ثم العودة إليها، وأكدت أعمان الحفر هذه الكتابات . وحين كان الأهالي يصابون بأمراض تقضى على آلاف منهم دون أن يعرفوا لذلك سببا، فإنهم يعتقدون أن المسئول ليس إلا إلها عليهم أن يسترضوه بالهدايا . كان عندهم إله للحرب ينصرهم على أعدائهم، وآلهة المطر والريح والنار، والتناسل، والموت .

كان المايا – كأقاربهم من الشعوب الهندية الأخرى، الأزتك، والناهواتل يقدسون إلها أكبر، هو إله الحضارة أو العلم والكهنوت، وقد عرف هذا الإله ع ند الأزتك باسم (كوتناكوتل) بينما أطلق عليه المايا اسم (كوكولكان) ويصورونه عادة في شكل ثعبان ذي أجنحة . وفي تششن إتزا يوجد في كل ركن من أركان الهرم المدرج الكبير ويعرف باسم كاستيلونقش الثعبان يتموج من القاعدة إلى المصطبة التي استقر المعبد من فوقها. ويتكون هذا الهرم من تسع مصاطب مدرجة، وبكل جانب منه سلم عريض به ١٠٤ درجة، طوله ١١٩ قدما و عرضه ٢٨,٧ قدما . ويحدثنا كورتيز وغيره من الكتاب بأن

الأزتك في (تنوشتيتلان) (العاصمة) كانوا يسحبون الأسرى على هذا الدرج ويقدمونهم قرابين بطريقة وحشية ينتزعون قلوبهم من صدورهم وهم على قيد الحياة . وتوجد صور واضحة في رسوم الآزتك تمثل هذه الطقوس التي يحتمل أن سكان تششن إتزا كانوا يمارسون مثلها.

ويعتبر هذا الهرم، من حيث فن العمارة، قطعة رائعة تجمع بين العناصر المايوية والعناصر المكسيكية، أحجاره الضخمة مخروطة ومثبتة بدقة . وقد استعملت الأيدي البشرية في رفعها، كما حدث عند بناء أهرامات مصر، إذ لم تكن لدى المايا دواب لحمل الأثقال، حتى ولا الجير . ويستقر الهرم فوق مصطبة صناعية يبلغ ارتفاعها عشر أقدام، وسطحها مرصوف بكسارة الحجارة، وهى تمتد شمالا مسافة ثلاثمائة باردة، حتى تصل إلى حافة البئر المقدسة، وغرب الكاستيلو توجد ساحة الاحتفالات بين سورين متوازيين، طول الواحد منها (٢٧٠) قدماً وعرضه ٣٤ قدماً، وكانت الألعاب الدينية تقام في المساحة، وهي عبارة عن مباراة يحاول اللاعب فيها أن يلقى بكرة من المطاط خلال حلقات مبنية بالحجر ومثبته في الحواجز المذكورة . ومازالت هذه الحلقات باقية حتى الآن في تششن إتزا وغيرها من بلاد الأزتك والمايا، كما أن ألعابة مماثلة مازالت تمارس في أمريكا اللاتينية حتى أيامنا هذه . وعندما كنت في المكسيك منذ بضع سنين لاحظت أن كل قرية، مهما كانت صغيرة – تحتوى على ساحة للعب الكرة وعلى حلقة من حديد مثبتة في عامود . ومن سخرية القدر أن لعبة (نت بول) (كرة الشبكة) البريئة التي تلعبها الطالبات كانت في بدايتها جزءا من الطقوس التي تقام لترضية آلهة هنود أمريكا الشرسة.

وتزدان بعض مباني تشبشن إتزا بالنحت الفاخر، بين توجد على جدران

بعضها الآخر آثار صور ملونة . ومن هذه المباني نذكر " معبد النمر" وبه إفريز من صور النمر الأمريكي، بين كل صورة والتالية رسم درع وزخارف . وبداخل المعبد منظر لموقعة حربية تصور جنود المايا مسلحين بالرماح، وهم يقذفون عصيهم عند الهجوم على إحدى المدن، كانت، سيوفهم مصنوعة من الخشب المطعم بالظران، كما أن رماحهم تحمل رءوساً من النظر أن أيضا . لم يستخدم المايا المعادن في صنع أسلحتهم، وكان هذا من الأسباب التي مرت على الأسبان فتح المكسيك بقوة ضئيلة، إذ كانوا مسلحين بالأقواس والسهام، و بسيوف مصنوعة من الصلب فضلا عن الأسلحة النارية . هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى، أولها أن الأسبان استخدموا الخيول التي لم يرها المايا قبل ذلك بتاتا، وثانيها : تفكاك القبائل الهندية التي تحالف بعضها مع الأسبان على أمل أن تساعدهم الأسلحة الأوربية في التغلب على أعدائهم من القبائل الأخرى، واستغل الغزاة هذا الوضع فكانوا يضربون قبيلة بأخرى حتى سيطروا على البلاد جميعها آخر الأمر .

وهناك مبنى آخر غريب الشكل يبلغ ارتفاعه أربعين قدما به سلم متعرج و حجرات دائرية، ويعتقد الأثريون أنه كان مرى صدا. وكان لدى شعب المايا تقوم بالغ الدقة الدرجة جعلت الفلكي د هام بولت، يشك أول الأمر في أنه من وضع المايا . وثمة بناء آخر هائل الحجم يبدو من بعيد و كأنه قلعة، لكنه في الواقع مكون من عدة طوابق، وقد بقي سليمة في تششن اتزا، ويطلق الأهالي عليه اسم La Casa del Monjas أي دير الراهبات، و عرض هذا المبنى حوالي ٣٠٠ قدما، وفي وسطه ثلاثة طوابق مدرجة ترتفع إلى تسعين قدماً . ويحمل المبنى آثار ترميم متعدة . يرتفع الطابق الثاني عن سطح الأرض ثلاثين قدماً، ويمكن الوصول إليه عن طريق سلم سميك من الحجر

عرضه عشرون قدما، و من فوقه طابق ثالث متصل يسلم آخر.

وبالجزء الرئيسي من المبني خمس بوابات، لكنه خلو من أية نوافذ، شأن جميع المباني في تششن أتزا، وبداخله حجرات كثيرة ضيقة تتصل ببعضها البعض بأبواب وعدة مخابئ لعلها كانت تستخدم في حفظ المخطوطات المقدسة، ولعلها نفس المخطوطات التي قام أسقف دى لاندا المتعصب بإحراقها في ميدان عام . ويقول أحد المؤرخين الأسبان : إن الأهالي أطلقوا عندئذ أصواتهم بالنحيب. وعلق تومسون على هذا بقوله : ولا عجب في ذلك فقد رأوا مقدساتهم تحترق في النار .. بل رأوا تاريخهم كله يتحول إلى دخان ورماد.

ولا زلنا نجهل الغرض الرئيسي من إقامة هذا المبنى الغريب، ولو أن التسمية المحلية التي تطلق عليه قد تمدنا بشيء من الدلالة، فمن المعلوم أن بعض الشعوب الهندية مثل الأزتك، كانت تعزل النساء والبنات عن المجتمع لإعدادهن للاشتراك في الطقوس الدينية . ولاشك أن الحفلات الدينية المعقدة عند المايا، كانت تتطلب درجة عالية من التدريب، ولعل هذا المبنى كان مخصصة لإقامة الكاهنات.

وأكثر اكتشافات تومسون إثارة للعجب، تلك السلسلة من المقابر التي وجدت فوق بعضها البعض بداخل هرم صغير يقع غرب بيت الكاهنات. وعند الخصر تلك المنطقة، تبين أنها تل لا شكل له، تكسوه الأعشاب والأشجار، ومن فوقه بقايا نموذج مصغر لأحد المعابد، وعلى جوانب الهرم الأربعة، السلالم التقليدية، لكنها كانت محطمة وعلى جانب كل منها حاصر على شكل ثعابين من الحجر، وخص تومسون أرض الهرم الحجية بعصا فولاذية فسمع رنينا في بقعة معينة منه . فلع بعض الحجارة ووجد تحتها حجرة مربعة

تغلغلت جذور الأشجار في داخلها حتى ملأتها . وبعد تنظيفها من هذه الجذور ومن الحشرات التي تعيش عليها. وجد تومسون في قاعها بقايا هيكل عظمي أكلت النيران جزءا كبيرا منه ووجد أيضا بعض الأواني الفخارية . وقد نقل كل هذه الأشياء إلى الخارج، ثم دق الأرض بعصاه فسمع نفس الرنين، فاستنتج أن تحت الأرض حجرة أخرى، ورفع جزءاً من الأرض، وفعلا وجد حجرة ثالثة بها بقايا عظام بشرية لكنها في حالة سليمة أكثر من سابقتها، ومعها أوان لتقديم النذور وأدوات للزينة.

وكان في مكانه هذا قريباً من رأس الهرم، وتوقع أن تكون هناك مقابر عديدة أخرى تحت تلك التي وجدها، فواصل الكشف عنها، وكلما رفع جزءا من الأرض في أحد المستويات وجد تحته حجرة أخرى بها بقايا هيكل عظمي، وهكذا حتى أتم الكشف عن خمس مقابر، كل منها تعلو الأخرى، وقد وجد في بعضها أجراساً من النحاس وخرزاً مصقولا من الكريستال الصخري وأشياء أخرى، وكانت أرضية آخر مقبرة في مستوى قاعدة الهرم، وظن أن الأمر انتهى عند ذلك، لكنه عندما دق الأرض سمع نفس الرنين، وحين رفع جزء منها، وجد أمامه – بدلا من الحجرة التي اعتاد أن يجدها، سلماً منحوتاً في الصخر يؤدى إلى حجرة، وقد امتلأ السلم والحجرة معا بأكداس من رماد خشب محروق تطلب رفعه جهدا كبيرة. وكتب تومسون يقول : (كان السبيل الوحيد للوصول إلى داخل الحجرة، أن استلقي على ظهري وأدفع الرماد بقدمي، وهذا ما فعلته .

وعندما تم تنظيف هذه الحجرة و جد فصوصاً مصقولة من الخرز، احترق بعضها بسبب الحرارة المرتفعة، كما وجد بعض كسر الفخار . واعتقد تومسون أن هذا المكان كان خزانة تخلفات من جنازات سابقة . وكانت هذه الحجرة

على شكل قرطاس، مدخلها عريض لكنه يضيق في الطرف المقابل إلى أن ينتهي عند حائط من الصخر . وأيقن تومسون أنه وصل إلى نهاية كشغفه ويقول :

"كنا قرابة آخر الأسبوع واعتقدنا أن عملنا أوشك أن ينتهي . وكان العمل على هذا العمق بداخل المسقط الذي يتخلله الهواء بصعوبة، أمرا لا يسر النفس، فالجو الخانق، والحرارة المرتفعة، وضوء الشموع الخافت والدخان المتصاعد منها كل أولئك لا يبعث على شيء من الراحة .

كنا نحن الثلاثة : مانويل، وبيدرو، وأنا لانرتدى إلا السراويل . وكنا أشبه بعمال تنظيف المداخن منا بباحثين في العلوم الأثرية . ولما كان العمل على وشك أن ينتهي في ذلك المكان، فقد واصلناه بأقصى عزم، فالعمال يحفرون وينقبون، بينما أتوقف أحيانا لتدوين بعض البيانات . وقرابة آخر النهار لم تبق إلا أكوام قليلة متناثرة من الرماد، وحجر مسطح كبير يرتكز على حافة الجدار المقابل ".

وقرر تومسون قبل مغادرة المكان أن يرفع هذا الحجر وينفض الرماد من خلفه لعله يجد بعض فصوص وقطع أثرية صغيرة، وفي هذا يقول:

"أمسكت، بالحجر بكلتا يدي، وسحبته نحوى، فاندفع فجأة ووقعت على ظهري وأنا مسك به، ووقع معي زملائي كذلك، وبدلا من كومة الرماد التي توقعنا أن نجدها، رأينا فجوة كبيرة مستديرة ومن ورائها ظلام دامس . وانطلق منها ريح بارد رطب، فانطفأت شموعنا في الحال، وأصبحنا في ظلام حالك ... جعل العاملين الوطنيين يتسمران في مكانهما من شدة الرعب.

"وأخيرا تكلم بيدرو قائلا : إنها طاقة جهنم ... وسمعت أسنانه تصطك

ذلك أن جهنم بالنسبة إلى شعب المايا القديم – ويسمونها رمتنال – ليست ناراً مشتعلة، إنما هي مكان بارد تهيم فيه الأرواح تائهة، يشل وجودها الصقيع بينما تجاهد إلى الأبد بين الأوحال السميكة.

وأنزل تومسون في هذه الفجوة مصباحاً ربطه إلى شريط، واتضح له أن عمق الفجوة خمسون قدما، ولم يذكر ما إذا كانت منحوتة في الحجر الصلد. أم أنها كانت مغارة طبيعية، ولكنني أرجع الافتراض الأخير، كما أعتقد أيضا أن ما وصفه تومسون بالريح الذي انطلق ...، كان مجرد مبالغة . وفي اليوم التالي نزل المنقب نفسه إلى الفجوة مشدودة إلى حبل، بعد أن سلح نفسه كما يقول " محمدية صيد حادة أمسكتها بأسناني لكي أستعمل يدي إذا اقتضى الأمر،، ووجد ضمن ما وجد إناء جميلا من الألباستر به فصوص من حجر اليشم وقلادة . وكان الإناء مشروخة، وإلى جواره أشياء أخرى كثيرة، منها أواني للنذور مصنوعة من الطين المحروق، ويبلغ ارتفاع الإناء ثلاثة أقدام، ومباخر، ولوحة كبيرة عليها النقش التقليدي الأشخاص، وكرة كبيرة مصقولة من حجر اليشم، وحلى منقوشة لتزيين الأذنين، وقطعا أخرى من الصدف مثبتة في محار، وضعت لتمثل عينين بصورة ما، ووجد أيضا الآلىء بيضاوية الشكل، كانت جزءا من عقد، وقد أتلفها التراب أو بخور الكوبال عند إشعاله . ولم يستعمل تومسون مديته، ولو أنه ذكر أن الشقوق التي بالمغارة كانت خاصة بعنكب تزينتوم tzeentum وهو من الحشرات الخبيثة، كبير الحجم، سريع لدرجة يصعب معها صيده وقتله، وتسبب لدغته حمى يصعب العلاج منها .

ويرى تومسون أن هذه المقبرة كانت لكبير الكهنة، بينما المقابر التي تعلوها كانت لأتباعه أو خدمه، وأن جثهم وضعت بها لتحرس هذا الشخص العظيم بعد موته، كما كانت تحرسه في الحياة، ومع ذلك فلم يذكر تومسون

ولا ويلارد أن الحجرات التي تحت الهرم كانت تحتوي على عظام بشرية، علما بأن كل حجرة من التي فوقها كان بها هيكل آدمى . ولم تتضح هذه المسالة حتى الآن بصفة نهائية .

وشهد تومسون في أعوامه الأخيرة بالمكسيك مأساة أليمة وخيبة أمل، إذ قام بعض الثوار من الأهالي بحرق منزله وإتلاف مستنداته وتحفه. وبعد أن أعاد بناء منزله، اشتبك مع حكومة المكسيك، وفي ذلك يقول :

" وانتشرت أخبار سخيفة عن قيمة الأشياء التي استخرجتها من بئر تشثن إتزا المقدسة . وقال بعض أصدقائي المتحمسين إن الأشياء الذهبية التي اكتشفتها تساوى نصف مليون دولار. وعندما وصلت هذه الأنباء إلى أذان موظفي الحكومة بدأوا يترقبون.

وقررت حكومة المكسيك أن من حقها أن تحصل مني على مبلغ مليون وثلاثمائة ألف بيزو، وإلا استولت على المنطقة التي أعمل فيها، وأقامت ضدى دعوى قضائية لم أعرف نتيجتها".

لكن بمجهود الرجل الصلب لم يذهب سدى، فقد نجح على الأقل في اجتذاب الأثر وبين من الأمريكان كى يدرسوا عن كثب الحضارات القديمة التي نشأت في قارتهم، وعاونه في أبحاثه كل من متحف بهبودى و متحف شيكاغو[١] . و بعد ذلك قامت مؤسسة كارنيجى بمواصلة العمل، وأتخذ أعضاء بعثتها منطقة تومسون مقر لهم . وقد استمر الأثريون في الكشف والتنقيب بهذه البقعة الرائعة، واستعملوا طرقا وموارد علمية أكثر من التي

---

(١) **Peabody Museum of Harvard — Field Columbian Museum of Chicago.**

كانت في متناول تومسون . وقد أصبحت تششن إتزا الآن مركزاً سياحية . ويستطيع الزائر الحديث أن يقود سيارته فوق طريق ممهدة، وأن يرى المعابد الكبيرة والأهرامات التي نظفت تماما من الأعشاب، وتم ترميمها وإصلاحها، فشمخت رائعة فوق أميال من الأدغال التي كان البحاثة الأولون يتعثرون في ممراتها الخشنة .

ومع أننا عرفنا الكثير عن حضارات هنود أمريكا، إلا أن معلوماتنا عن تلك الحضارات أقل بكثير مما نعرفه عن حضارات مصر والعراق . ومع ذلك فإن معلوماتنا تزداد كل يوم بفضل جهود علماء الآثار الأمريكيين، لكن إتلاف أغلب المستندات القديمة بأيدي الغزاة الأسبان يعتبر خسارة لا تعوض. ومع أن تاريخ المايا والانكا، والأزتك، وغيرهم يرجع إلى بضعة قرون فقط، فإنهم يبدون أكثر بعدة عنا من البابليين و الحيثيين وأهل أور الكلدانين. ومع ذلك قد خلفوا من ورائهم ما خلد ذكرهم، فكلما أكلنا البطاطس أو القمع الهندي أو الطماطم، وكلا لعبنا بكرة من المطاط، أو أخذنا جرعة من الكينين، أو أشعلنا الطباق، وجدنا ثمة رابطة – مهما كانت هزيلة – تربطنا بشعب قدم الضحايا لآلهة المطر، والرياح، والنار، وأقام مدن مثل تششن إتزا

الفصل الثاني عشر

مأساة الانكا

إن قصص المدن التي اندثرت في وديان نائية يصعب الوصول إليها، أو تلك التي تختفي في أدغال كثة لا يطرقها البشر لوعورتها، تهيئ مادة مستحبة للروايات العاطفية . وأية مدينة لم يرها الرجل الأبيض إطلاقا، تثير في النفس إحساسا جارفا بالرغبة في كشف المجهول، وهو إحساس يتضاءل الآن باطراد كلما تزايد كشفنا بسطح الأرض.

ولم يكن الأمر كذلك عند ملاحي القرنين السادس عشر والسابع عشر، فهؤلاء كانت الدنيا الجديدة، جديدة حقا بالنسبة لهم . ولكن سبل المواصلات تقدمت تقدما عظيما خلال القرن الماضي، وبلغ هذا التقدم ذروته في السفر عن طريق الجو، وهكذا، باستثناء منطقتي القطب الشمالي والقطب الجنوبي، وبعض مناطق آسيا وأمريكا الجنوبية، عرفنا الكوكب الذي نعيش فوقه ووضعنا له الخرائط، لكن الذين يقومون بتخطيط الخرائط يخطئون أحيانا، ونتيجة لهذه الأخطاء، بالإضافة إلى طبيعة المنطقة الجبلية التي تحول دون التغلغل فيها، بقيت إحدى المدن القديمة مجهولة حتى عام ١٩١١ . ولهذا التاريخ أهمية خاصة، إذ أن السفر عن طريق الجو بدأ بعده مباشرة . ومدينة الانكا التي يطلقون عليها اسم ماتشو بيتشو (ولو أن هذا ليس اسمها الأصلي) تقع فوق نتوء عال بجبال الأنديز في بيرو، اكتشفها حيرام بنجهام رئيس البعثة التي أوفدتها إلى بيرو جامعة بيل والجمعية الوطنية الجغرافية، و عضو نادى الألب الأمريكى، وأستاذ تاريخ أمريكا اللاتينية بجامعة ييل، ولهذه

الألقاب مغزاها، فهي تعنى أن ينجهام كان يجمع بين معلومات المؤرخ وروح المغامر وشجاعة متسلق الجبال . ومع أنه عبر عن تقديره العميق لزملائه من أعضاء البعثات التي رأسها ولمساعديه الآخرين، بما في ذلك المساحين وعلماء الطبيعة، والأثريين، والأطباء، إلا أن الفضل في الأعمال الخارقة التي تمت، يرجع إليه هو بصفة خاصة، كما أن البيانات التي قدمها في كتابه " مدينة الانكا المفقودة، معلومات فريدة في نوعها، ولا يمكن الاستعاضة عنها بأية بيانات أخرى . وبرغم سعة اطلاعي على كتب الأسفار، وبرغم ما قمت به أنا من رحلات حول العالم، فليست هناك قصة سيطرت على مشاعري بقدر ما سيطرت قصة كشف بنجهام الواقعية . ومن ثم فقد اعتمدت اعتمادا كبيرا على كتب بنجهام، ولاسيما كتابه سالف الذكر [1] الذي أدين لمؤلفه و ناشره بالشكر والتقدير . وما أدونه في هذا الفصل من كتابي، ليس إلا موجزة للقصة، أغفلت فيه تفاصيلها المثيرة التي يجدر بالقارئ أن يطلع عليها في كتاب المؤلف نفسه .

وقبل أن أبدأ الكتابة في موضوع الاكتشاف بالذات، ينبغي أن أشير إلى بعض التواريخ القديمة التي وجد فيها بنجهام دليلا هداه إلى اكتشافه . عندما دخل الغازى، " فرانشسكو بيزارو، بلاد المكسيك عام ١٥٣١ وجدها خاضعة الحكم ملوك ينتمون إلى شعب قديم ويحمل كل منهم لقب إنكا، ومع أن هذه التسمية أطلقت فيما بعد على الشعب بأجمعه إلا أنها في أول الأمر كانت تعني : ملك أو حاكم، فكان سكان بيرو القدامي مثلا يقولون : رانكا تو باك أمارو، كما نقول (أي الإنجليز) الملك شارل الثاني، وعاش أول إنكا ويسمى (مانكوكا پاك ؛ حوالي عام ١٠٠٠م. أما آخر إنكا ويسمى

---

(1) Bingham, Hiram, Lost City of the Incas, Phoenix House, London, 1951.

"تو باك أمارو " فقد أعدمه الأسبان هو وأفراد أسرته في عام ١٥٧٢. ونحن نستمد معلوماتنا عن تاريخ هؤلاء الملوك وخاصة الأربعة الأواخر، مما دونه الكتاب الأسبان في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وهم الكتاب الذين رافقوا الحملة الأسبانية أو جاءوا بعدها بفترة قصيرة، ولم يكن لدى الانكا أنفسهم خط يكتبون به. ولكن د تيتوكوزى وهو أحد ملوكهم أملى على سكرتيره المستيزو [1] قصة حياة وموت أبيه رمانكو ودون الرجل هذه القصة بلغة أسبانية ركيكة ثم راجعها فيما بعدقس يدعى ماركس جارسيا . وثمة مؤرخ آخر من سلالة الانكا أسمه "جارسيلاسوانكادى لافيجا" كان قد رحل من بيرو إلى أسبانيا وهو في العاشرة في عمره حيث أقام طوال حياته وفي آخر أيامه دون معلوماته عن تاريخ شعبه في كتاب بعنوان "مذكرات ملكية" واعتمد برسكوت إلى حد ما في وضع مؤلفه عن فتح المكسيك على كتاب « مذكرات ملكية » ومن الكتاب الآخرين الذين تناولوا الموضوع بيدرو سانشو، وكان أحد سكر تيرى بيزارو، وفرناندو مو بنسيئوس الذي جاء بيرو عام ١٦٢٩ ليشغل منصب مستشار النائب الملك وألف عدة كتب منها كتاب عن تاريخ الانكا، والأب كالانشاء وهو قس كتب كتاباً طويلا مملا أسماه: تاريخ التعاليم الخلقية عند الآباء الاغسطين وتسعة أعشار هذا الكتاب لا يمك الاعتماد عليها، ولكن عشره الباقي له أهميته التاريخية، إذ يحدثنا عن تفاصيل المغامرة التي قام بها المبشران دييجو وماركس الزيارة الانكا تيتو كوزي في المعقل الجبل الذي فرا إليه هربا من الأسبان والمأساة التي تعرضا لها.

ولدينا كذلك ما كتبه دورن دييجو الذي حاول في عام ١٥٦٥ أن يلقن

---

(1) مستيزو **Mestizo** : رجل يجري في عروقه خليط من دم الانكا والأسبان .

انكا تيتوكوزى "تعاليم المسيحية" والوصف الذي دونه كابتن "بلتازاردى أوكامبو" لجنازة تيتوكوزى . ومذكرات كابتن جارسيا الذي يروي فيها قصة مطاردته وقبضه على انكا تو باكامارو آخر ملك للبلاد. ومن هذه السجلات وغيرها نستطيع أن نعيد الخطوط العريضة لتاريخ الملوك الأربعة الأواخر . ومحاولتهم اليائسة للاحتفاظ بما تبقى من ممتلكاتهم قبل أن يستولى الغزاة على البلاد كلها .

تقع البلاد التي نسميها الآن بيرو على الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية، في مواجهة المحيط الهادي . تحدها اكوادورو كولومبيا من ناحية الشمال . والبرازيل من ناجية الشرق، و بوليفيا من ناحية الجنوب الشرقي وشيلي من ناحية الجنوب . وترتفع الأرض من الساحل نحو هضاب يتراوح ارتفاعها بين ٦٠٠٠ و ١٢٠٠٠ قدماً ثم تتجه إلى سلسلة جبال أنديز الثلاثية التي يبلغ عرضها ٢٥٠ ميلا، بل أن بعض قمم جبالها تصل أحيانا إلى ما يزيد على ٢٠٠٠٠ قدم، وبعض ممرات هذه الجبال أكثر ارتفاعا من أعلى جبال أوربا.

وتعتبر بيرو بلد المفارقات العجيبة، ففيها الأدغال الحارة الكثيفة، وفيها أيضا جبال تذكرنا بجبال الألب ذات القمم الثلجية . وقبل مجيء الانكا إلى بيرو كان يسكنها شعبان على درجة عالية من الحضارة، هما شعب اماراس و شعب شيموس؛ ولا نعرف عنهما إلا النزر اليسير، ولكن عندما دخل الأسبان في البلاد عام ١٥٣١ وجدوا الانكا يحكمون شعبة بلغت فنونه و علومه درجة رفيعة من الرقي لا يمكن أن يكون قد أدركها إلا بعد زمن طويل يزيد عن الخمسمائة عام التي تفصل بين تاريخ أول حاكم وهو انكا مانكو (عام ١٠٠٠ بعد الميلاد) وآخر حكامهم في أيام بيزارو .

وقد استطاعت هذه الشعوب التي عمرت البلاد أكثر من ألفي عام أن تضع للرى نظاما يفوق أي نظام آخر عرفته القارة الأمريكية . فلم يتراجعوا أمام طبيعة الأرض الجبلية وقلة الوديان، وخططوا مصاطب مدرجة بسفوح الجبال شديدة الانحدار وذلك لتثبيت التربية في مكانها، وحافظوا على خصوبة الأرض باستعمال السماد، وزرعوا الغلال وأنواعا متعددة من الطماطم، والفول، والكاسافا cassava والبطاطا والبطاطس ... إلى غير ذلك من المحاصيل التي استنبطوها جميعها من النباتات البرية . وحتى أيامنا هذه نجد أن النبات البري الذي استنبطوا منه البطاطس مازال موجودة بجبال الأنديز، لاتزيد ثمرته على حجم حبة البازلاء، ومع ذلك فإن هنود أمريكا الجنوبية الأولين، استطاعوا أن يحصلوا على اثنتي عشرة فصيلة البطاطس من هذا النبات البري، نستعملها نحن الآن. وقبل الفتح الأسباني، لم تكن هذه المحاصيل معروفة خارج القارة الأمريكية .

إن غالبية التربة الزراعية التي تستغل الآن في جبال الأنديز، قد أوجدها الانكا ومن سبقهم من الشعوب. إلا أن القمح والشعير حلا محل البطاطس والذرة التي كان الانكا يزرعونها . وقد استعمل هؤلاء سجاد الجوانو . وكانوا يحصلون عليه من جزر آهلة بالطيور قرب الساحل . وبلغ من اهتمامهم بهذه الطيور أن قتلها كان يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون. وفي الوديان التي تمر بالصحراء بين اكوادور و شيلى قام هؤلاء المزارعون المهرة بتحويل مجاري الأنهار. وحفروا الترع وغذوها مياه الجليد المتساقط من جبال أنديز .

وكذلك اكتشفوا الفوائد الطبية لعقار الكينين (يستخرج من قشور شجر الكنكونا) واستخرجوا الكوكايين من نبات الكوكا .

وتفوقوا على هنود وسط وشمال أمريكا في استئناس الحيوانات . فربوا الخنزير الهندي لأكله، وعن طريق التهجين حصلوا من الجمل الأمريكى (جواناكو guanaco

على حيوان اللاما والالباكا. وفي وقت ما كانت الملابس تصنع من شعر الالباكا الأملس . أما الآن فالقماش الذي يسمى بهذا الاسم شيء آخر. وكما يقول بنجهام: "استغل التجار الماكرون هذه التسمية في صناعة أقمشة خشنة مصنوعة من صوف الماعز" .

كانت آلاف الأميال من الطرق تربط ما بين مدن إمبراطورية الإنكا التي كانت في ذاك الوقت، بالإضافة إلى بيرو، تمتد فوق بوليفيا واكوادور، كما وصل سلطانها إلى غابات جران شاكو Gran Chaco **في البرازيل، ونظرا لأن الانكا لم يستعملوا المركبات ذات العجلات، فإنهم لم يهتموا بتمهيد طرقهم، لذلك كانت بها فجوات عميقة الغور .**

أما الأنفاق والجسور فكانت تتسع لمرور رأس واحد من اللاما لا أكثر. وكانت الجسور عبارة عن هياكل خطيرة معلقة فوق أنهار سريعة التيار ووهاد عميقة الغور، وهي مصنوعة من حبال مجدولة من فروع شجر الليانا (الليانا شجر متسلق ينمو في أدغال بيرو) ويبلغ طول بعض هذه الجسور ثلاثمائة قدما، سطحها هابط ويهزها الريح، وكثيرا ما كان المسافر الغريب (من غير الهنود) يضطر إلى الزحف على يديه وركبتيه عند عبورها، وكانت هذه الجسور تنزل الرعب في قلوب الأسبان . ولو كانت لدى الانكا خبرة عسكرية تماثل خبرتهم الزراعية، لفكروا في تدمير هذه الجسور للحيلولة دون غزو بلادهم أو تعويقه على الأقل .

وعبر شبكة الطرق هذه كانت قوافل اللاما تسير ببطء، ويسرع العداءون وهم يحملون الرسائل من مدينة لأخرى، ولم تكن تلك الرسائل مكتوبة، إذ لم يعرف الانكا الكتابة، لكنهم كانوا يستعملون حبالا ذات عقد (يسمونها كويبوس) وكان ترتيب العقد بشكل معين يؤدي المعنى المطلوب . وكان العداءون يحملون أحياناً مأكولات خاصة المائدة الملك . وتؤكد إحدى المستندات القديمة، أنه كان في وسع العداء أن يحمل السمك من المحيط الهادي، وأن يعبر به الجبال، ثم يسلمه بمدينة كوزكو عاصمة الإنكا، وهو بعد صالح للأكل .

واستعمل شعب الإنكا العقاقير المخدرة، لإراحة الذهن والنفس من متاعب الحياة، مثله في ذلك مثل الشعوب المتحضرة الأخرى، كقدماء المصريين والسومريين، وفي مقدمة هذه العقاقير، الكحول . كانوا يقطرون شراباً قوياً يسمى "شيشا" ويتناولونه فيسكرهم أحياناً لأيام متتالية . وقد علق رودريجز تعليقاً طريفاً على هذه العادة بعد عودته من زيارة تيتو كوزى معقله، في محاولة التلقينه الديانة المسيحية، فقال إن ميل الانكا للخمر يتضح جليا في تلك الاصطلاحات العديدة التي تزخر بها لغتهم والتي تصف الأطوار التي يمر بها المخمور .

وكانت حكومة الإنكا حكومة مطلقة خيرة، فليس ثمة جائع، وليس ثمة ضال لا مأوى له، وكانت ملكية الأرض ملكية جماعية، ولكل مواطن نصيبه الذي يزرعه، فإذا تزوج وأنجب أطفالا أزداد نصيبه بما يتناسب مع عدد أفراد أسرته، وهناك عدالة في توزيع الغذاء على السكان، لكن هذه الأوضاع تطلبت تنظيم بالغ الدقة، ومن ثم وضعت القواعد التي تنظم كل نواحي الحياة و تتدخل في كل شأن من شئون الأفراد . فكانوا مثلا يعاقبون الكسالى . ومع

ذلك كان عامة أفراد الشعب يعاملون بالعدل والقسطاس، وبعكس هنود أمريكا الوسطى، فالانكا حين ينتصرون على أحد الشعوب، لا يعاملونه معاملة العبيد وإنما يشجعونه على الاندماج فيهم، وهم في هذه الناحية يشبهون الرومان .

ويرتكز دين الإنكا على عبادة الشمس بصفة خاصة . ولا تزال هناك معابد للشمس في كوزكو، عاصمة البلاد، وفي غيرها من المدن. وإذا كان شعب الانكا قد كف عن تقديم القرابين البشرية أيام الفتح الأسباني، إلا أن هذه العادة ظلت باقية لدى القبائل التي تقيم عند الساحل وتخضع لسلطان الانكا .

وبالإضافة إلى الشمس والقمر، عبد الانكا إلهة مجهولا معتقدين أن روحه تسيطر على كل شيء، وكانوا يرمزون إليه في كوزكو بلوحة كبيرة مسطحة من الذهب النقي، ولكن عبادة الشمس هي التي سادت . وكان لدى الإنكا شأنهم في ذلك شأن المايا – أديرة أو مدارس داخلية للنساء والبنات اللاتي ينتمين إلى الأوساط الراقية، ويسمونهن عذارى الشمس . وقد مارس كهنة الانكا عادة طريفة يقيدون بها الشمس عند الانقلاب الشتوي، وفي كثير من معابدهم كمعبد قاتشوبتشو مثلا، تجد أعمدة من الحجر لهذا الغرض . ففي خلال فصلي الخريف والشتاء، يرى الانكا الشمس التي يعتمدون عليها وهي تبتعد عنهم باطراد من جهة نحو الشمال، فاعتقدوا أنهم إذا تركوها حرة في سيرها هذا، فقد لا تعود إليهم أبدأ بعد ذلك ومن ثم ينزل بهم القحط، ولما كان كهنة الانكا مهرة في علم الفلك فقد عرفوا تاريخ الانقلاب الشتوى، وحددوا وقت حدوثه موعد للقيام باحتفالات وطقوس تقيد الشمس فيها إلى عمود، كما يقيد الحيوان تماما . وعندما يبدو أن قرص الشمس قد توقف

ليعود إليهم ثانية، كان الشعب يتهلل ويبتهج، وهكذا يقوى سلطان الكهنة وتزداد هيبتهم . ويحتمل أن نفس الطقوس كانت تقام أيضا وقت الانقلاب الصيفي.

تلك كانت الحضارة القائمة في بيرو عندما وصلت سفن الأسبان إلى شواطئهم تحمل جنودا بأيديهم أسلحة من الصلب، وخيلا، و كهنة متحمسين لتلقين الديانة المسيحية لشعب وثنى نبت أصلا بغرب آسيا في النصف المقابل من الكرة الأرضية. ولا تستطيع أن نعرض هنا إلا موجزة للمأساة التي فصلها بر سكوت في كتابه وسيلها المؤرخون الأسيان، ويحسن بالقاري أن يطلع عليها، فعندما استولى بيزارو عام **١٥٣٣** على كوزكو عاصمة الانكا اختار شابا من نبلاء الانكا اسمه مانكو ونصبه ملكا . وسر مانكو في أول الأمر، لكنه عندما أدرك أنه مجرد دمية في أيدي سادته الأسبان ترد عليهم، معتقدا أن تفوق عدد الهنود سيساعده على طرد المستعمرين من بلاده . بيد أن الخراب والهراوات، و العصى والمقاليع لم تستطع الصمود في وجه أسلحة الأسنان النارية، خاصة وأن الغزاة كان يساندهم هنود منشقون يرفضون الخضوع للانكا .

وانكسر جيش مانكو وفر هو وزوجته وعائلته وأتباعه تاركا مدينة أجداده الكبيرة بقلعتها وقصرها و معابدها واتجه نحو وادي أورو باميا . كان بصحبته أبناؤه الثلاثة ومن بينهم تيتو كوزى الذي كان في السادسة من عمره وهو الذي أملى قصة حياة أبيه عندما أصبح ملكا فيما بعد.

وكان أول خط دفاع اتخذه مانكو هو وادي نهر أورو بامبا المعتدل المناخ، لكن الأسبان تعقبوه هناك، وبعد عدة معارك عنيفة عاد مانكو إلى "أو

للانتايتام بوا"، وكانت آخر مدينة هامة في الوادي قبل الوصول إلى الجبال العالية . ومن سوء الحظ أن بعض جنوده أفرطوا في شرب الخمر أثناء حفل كان قد أقامه الهنود المنطقة . وفاجأتهم قوة صغيرة من الأسبان فاضطروا للفرار، واستولى الأسبان ضمن أشياء أخرى على موميات أجداد مانكو وكان قد حملها معه من كوزكو، كما استولوا على كثير من المجوهرات والحلي والأشياء الثمينة .

كذلك أسروا زوجة مانكو وابنه تيتوكوزى وآخرين من العائلة المالكة . أما مانكو فقد تمكن من الحرب ولجأ إلى أعالي الجبال في مكان منيع .

وكتب بنجهام :

" كلنا يعرف الصعاب التي صادفها هانيبال و نابليون ليصلوا بجيوشهم إلى إيطاليا عبر الممرات المنخفضة – نسبية – بجبال الألب . فلا عجب إذا استحال على بيزارو أن يلحق بالانكا مانكو عبر ممرات يزيد ارتفاعها عن ارتفاع قمة ، الجبل الأبيض، ذاتها، وليس في جبال الأنديز كلها مثل ذلك العدد من القمم الثلجية الرائعة التي تمتاز بها البقعة التي لجأ إليها مانكو، ومن بينها فيرونيكا (**١٩,٣٤٣** قدماً)، سالكانتاى (**٢٠,٥٦٥** قدماً)، سوراى (**١٩,٤٣٧** قدماً)، وسوير وكوشا (**١٩٧،١٨** قدماً)، وجميعها من أبرز معالم المنطقة، وبعضها يرى على بعد مئات الأميال، ولم يستطع أحد أن يتسلق أيا منها حتى الآن كما نعرف".

وتذكر المراجع القديمة أن مانكو استقر في قلعة تقع فوق قمة أحد الجبال، وتعرف بأسماء متعددة منها فيتكوس أو ريتيكوس أو بتكوس. وثمة مراجع أخرى تتحدث عن قلعة ثانية تسمى فيلكا باميا . وتقع هذه الأماكن

في منطقة جافة المناخ، سهلة الرى، وتزرع فيها الغلال والبطاطس . وهكذا أقام مانكو وأتباعه هناك في رغد من العيش . وذكر تيتوكوزى الذي ورث الحكم بعد ما نكو أن أباه كان يقوم بغارات للإيقاع بالتجار الأسبان ونهب سلعهم وهم في طريقهم من كوزكو إلى ليما . وكان عليه في تلك الحالة أن يعبر نهر ابوريماك العظيم (و أبوريماك معناه المتكلم العظيم) فوق طوافات، ثم ينتظر في هدوء على حافة الطريق . كانت هذه الغارات تنجح بالرغم من تفوق أسلحة الأسبان. وكان الانكا يستعملون الرمح، والهراوة والمقلاع الذي يمكن أن يقتل الجواد ويحطم سيفا من الصلب على بعد خمسين خطوة [١] كذلك كانو مهرة في استعمال البولا [٢]، وهو سلاح مكون من ثلاثة أحجار مثبتة في حبل، يطلق على الجواد فتقيد أرجله أو تربط ذراعى الرجل إلى جانبيه . وبعد كل إغارة كان على مانكو أن يعود مع أتباعه إلى قلعة فيتكوس على قمة التل.

واستشاط بيزارو غضباً من هذه الغارات و أرسل قوة للقبض على مانكو، إلا أن جنوده أنهكهم تسلق الجبال وأثر فيهم الارتفاع الشاهق الذي بلغ ١٥٠٠٠ قدماً . فوقعوا في كمين وقطعهم الانكا (رب)، ولم ينج منهم إلا عدد قليل . وبعد هذه الكارثة ترك الأسبان مانكو وشأنه لوقت ما . وحدث في عام ١٥٤٢ أن وقع بيزارو صريعا إذ اغتاله أحد أتباع زميله الأسباني ، الماجرو، وقامت حرب أهلية من جراء هذا الحادث هزم فيها أتباع الماجرو وفر بعض اللاجئين إلى قلعة فيتكوس حيث انضموا إلى مانكو الذي رحب بهم، وكان « جوميز بيريز » روديجو مانديز » يقودان هؤلاء الجند الفارين،

---

(١) بمعدل ٥٧ سنتى للخطوة الواحدة . أوربا وآسيا .

(٢) وجدت أسلحة مماثلة لهذه في بقاع من ما قبل التاريخ في كل من أوروبا وآسيا

وهما الرجلان اللذان قال عنها الأب كالانشا « إنها و غدان يستحقان ترحيب مانكو، . والواقع أن الرجلين كانا من الأوغاد فعلا، أما عن استحقاقهم اكرم الانكا فأمر يمكن البت فيه بعد معرفة الحادث البشع الذي وقع فيما بعد – سارت الأمور سيرة حسنة في أول الأمر إذا درب اللاجئان مانكو على استعمال الأسلحة النارية وركوب الخيل . وعندما أرسل ملك أسبانيا شارل الخامس نائبة جديدة عنه يحمل أوامر صارمة بوجوب معاملة الهنود معاملة حسنة، أقنع جو مير و مانديز مانكو بكتابة رسالة لنائب الملك الجديد يطلب فيها مقابلته، والعفو عن المتمردين الأسبان الذين لجأوا إليه . وحمل جوميز الرسالة إلى كوزكو وحصل على العفو عنه وعاد إلى فيتكوس بالأخبار السارة . واستعد ما نكو للرحيل إلى كوزكو مع أتباعه لولا أن حادثة وقع فأثبت أن تصرف خاطئة من فرد واحد قد يغير مجرى التاريخ.

ولدينا عدة روايات عن هذا الحادث أقربها إلى الحقيقة رواية جارسيلاسو انكادى لافيجا (ولو أنه كتها بعد وقوع الحادث خمسين عام) و ما رواه تيتو كوزى ثاني أولاد مانكو، وكان مقيمة في فيتكوس في ذلك الوقت بعد أن هرب من الأسبان وانضم لأبيه . يقول « جارسيلاسو، إن اللاجئين كانوا قد لقنوا الانكا عددا من الألعاب مثل الكرة والأوتاد، والقرص، والشطرنج . وكانوا يلعبون بطريقة جدية تنتهي أحيانا بعراك (من تأثير تعاطيهم الشيشا) . وفي ذات يوم بعد عودة جوميز من كوزكو كان يلعب بالكرة مع مانكو واختلف الاثنان على عدد النقط بينها ويقول جارسيلاسو، كانت هذه الخلافات كثيرة ما تقوم بينهما . وكان بيريز سريع الغضب، حاد الطبع، متهورة وجاهلا يتمسك بأتفه الأسباب ليستفز الانكا وينازعه"

"وعندما نفذ صبر الانكا من وقاحته، دفعه في صدره وطلب منه أن

يراعى من يخاطبه . واشتعل بيريز غضبا، فلم يفكر في مصيره أو مصير زملائه فرفع ده بالكرة وضرب رأس الانكا بشدة فألقاه على الأرض [1].

تلك رواية جارسيلاسو . أما تيتوكوزى – وكان في الخامسة عشرة من عمره فيقص علينا رواية مختلفة، قال إنه أثناء لعبة القرص، بينما كان مانكو يرفع يده بالقرص انقض عليه عدد من الأسبان شاهرين سيوفهم وقتلوه، وعندما أسرع تيتوكوزى للدفاع عن أبيه يقول «ألقوا على حرية تفاديتها بصعوبة . فأصابني الرعب وفررت إلى الأدغال . وحاولوا أن يلحقوا بي ولكنهم فشلوا .

أما الرواية الثالثة فتقول : إن العراك كان بسبب لعبة الشطرنج بين الأنكا وديبجو مانديز، وأن هذا الأخير أطلق العنان أغضبه، و نعت مانكو بأنه كلب، وانفعل مانكو لهذه الإهانة وضرب ديبجو بقبضة يده، فما كان من هذا الأخير إلا أن طعنه بخنجره وحاول الأسبان الحرب و لكن يسرني القول إن الانكا لحقوا بهم وانتزعوهم من فوق جيادهم وأعدموهم بطريقة وحشية . وقضى مانكو نحبه بعد ثلاثة أيام تاركا ثلاثة أولاد : " شايرى تو باك " و " تيتو كوزى " و "توباك أمارو" وهم آخر (ملوك) الانكا . ونستطيع أن نستشف طباعهم من قصة حياتهم . كان تيتوكوزى أقوى إخوته وأكثرهم هيبة . و نظرا لأنه كان شاهد عيان لموت أبيه، فقد كان يشعر بمرارة نحو الأسبان . أما شقيقاه فقد وثقا بالأسبان فكان مصيرهما الهلاك .

كان شايرى تو باك هادي الطباع، أقنعوه بالعودة إلى كوزكو حيث اعتنق المسيحية و تزوج أميرة من الإنكا، وتوفي بعد ذلك بعامين بسبب مرضه على

---

(1) ترجمة سير / كليميننز ماركهام .

حد قول الأسبان. أما الإنكا فيعتقدون أنه قتل مسمومة . في ذاك الوقت كان تيتوكوزى قد بلغ الثلاثين من عمره، وعندما وصل إليه نبأ موت أبيه كان فر إلى وادى كورديليرا فيلكا بامبا، المنيع، واستولى على الحكم . ويقول المؤرخون إنه أدخل شقيقه الأصغر في " بيت الشمس " بصحبة العذارى المختارات و المشرفات عليهن . ولم يكن هذا الملجأ المقدس في فيتكوس بل في مكان يسمى نيلكا بامبا، ويقول الأستاذ بنجهام .. ولما كان الأسبان يجهلون هذا المكان فقد كان يصلح لإقامة تيتوكوزى هو الآخر ".

و بديهى أن الانكا كانوا يستقبلون المبعوثين الأسبان في فيتكوس بتحفظ شديد، وليس ثمة دليل على أن أيا منهم رأي « فيلا بامبا، . ومع ذلك فقد سمح الانكا لاثنين من المبشرين بالاقتراب منها . وقد وصف هذا الحادث وصفة شيقة "دون دييجو رودريجيز دى فيجويروا"، وهو أسباني قام بمحاولة فاشلة لإقناع تيتوكوزى باعتناق الديانة المسيحية . وفي وصفه حديث بديع عن الإنكا عندما قابل هذا الأخير وهو في أبهة الملك، يحيط به رجال البلاط والمقاتلون، يقول :

"شيد ثلاثمائة هندى ومعهم غيرهم من البلدان المجاورة، مسرحا كبيرا من الطين الأحمر « ليعتليه الانكا (الملك). ووقفوا في انتظاره وطلبوا إلى أن أتقدم لاستقباله ... وظهرت عدة أسراب فوق التل، وجاءت الرسل لتخبرنا أنه في الطريق . ووصل الانكا، يتقدم الجميع، على رأسه ريش له ألوان كثيرة زاهية، وفوق صدره لوحة من الفضة، وفي إحدى يديه درع ورمح من الذهب، وعلى ساقيه رباط من الريش علقت به مجموعة من الأجراس، وعلى رأسه تاج وحول عنقه

تاج آخر، في إحدى يديه خنجر ذهبي وعلى وجهه قناع متعدد الألوان[1].

هكذا وصف رودر يجيز الملابس الرسمية التي يرتديها أباطرة بيرو أيام كانوا في أوج مجدهم وسلطانهم، عندما كانوا يحكمون إمبراطورية تمتد من غابات أمازون إلى ساحل المحيط الهادىء وهي الإمبراطورية التي انكمشت حالية إلى منطقة جبلية في الأندين . لكن تيتو كوزي في تلك الأيام كان الانكا (الملك) المعتز بمجد أجداده .

لقد ذكرت فيما سبق أن شخصيات الانكا الثلاثة تبدو واضحة من خلال تاريخهم . كان تيتو كوزى أقواهم جميعا، يمتاز بالذكاء، ولا شك أن حقده الشديد دفعه إلى الانتقام، وهذا يوضح لنا سبب تصرفه مع رودريجيز والقسين اللذين جاء بعده على الصورة التي ستعرضها . كان يعلم يقينا أن لا أمل له في الانتصار على الأسبان، لكنه كان عازمة على السخرية منهم وإزعاجهم.

ونجح في بلوغ هدفه. ويستطيع القاري أن يطلع على ما كتب عن الأسبان الذين لم يدركوا ألاعيب ذلك الملك الداهية، وواجهوا تصرفاته منزعجين. أول الأمر دعا "الانكا" المهيب رودريجيز إلى مقر حكمه . وكتب رودريجيز:

إن مظهره (الملك) يدل على رجولة وجدية . كان مرتدياً قميصاً من الحرير الأزرق ومن فوقه عباءة من قماش ثمين جدة . يقدم له الطعام في أوان من فضة، تقف من خلفه عشرون أو ثلاثون امرأة لخدمته . ودعاني لتناول

---

(1) ترجمة : سير كليمنتز ماركهام .

طعام حيث كان مع نسائه و كبير وزرائه".

وبعد أن " استفسر من المبعوث الأسباني عما إذا كان قد تعرف على قادته. رحل الانكا بنفس النظام الذي سبق أن جاء به، تصاحبه أنغام الصفافير الفضية والأبواق . و تعزف الموسيقى عند تغيير طاقم الورديات .

وفي صباح اليوم التالي استدعى الملك رودريجيز مرة ثانية ليراقب جنوده وكانوا قد أفرطوا في الشراب بتشجي ع من الانكا دون شك ويقول الأسباني : "من فوق بقعة مرتفعة عن الأرض رأيت احتفال الرجال وسمعت أغانهم. كانوا يرقصون رقصة الحرب ورماحهم بأيديهم، ثم يتبادلونها . وكانوا يتصرفون على هذه الصورة من فعل الشيشا التي أحتسوها ".

وكان الرجل على حق، فإن جزءا من الاحتفال الذي قدمه تيتوكوزى لضيفه كان عبارة عن استعراض قام به ستمائة هندى (من قبيلة آنتى) وهم مقاتلون شرسون من أدغال الأمازون، وكانوا مخمورين جداً .

"تقدم الرجال بترتيب ونظام، وحيوا الشمس والانكا واتخذوا أماكنهم ثم لوح الملك مرة أخرى برمحه، وقال إنه يستطيع أن يثير كافة هنود بيرو بمجرد إشارة.. بعد ذلك اقترح جميع هؤلاء الأفتى، أن يلتهموني حيا إذا رغب هو في ذلك. وقالوا له : ماذا أنت فاعل بصاحب اللحية الهزيل هذا، الذي يحاول أن يخدعك؟ من الأفضل أن تأكله في الحال"..

" وتقدم نحوى اثنان من الكفرة شاهرين رماحهم قائلين: «ذوو اللحى !؟ إنهم أعداؤنا !" [1] . وضحكت وأنا أستعيذ بالله، ثم رجوت الانكا أن يرأف

([1]) أن شعب الانكا يحلق وجهه .

بي ويحميني وهكذا أنقذني منهم وأخذاني حتى الصباح ".

ويبدو أن الانكا أقتنع بشجاعة ضيفه ولباقته فأذن له بإقامة بعض الصلبان ولو أن أتباعه كانوا غير موافقين على ذلك . ويبدو أيضا أنه فكر في ترك فيتاوس والعودة إلى بوكاى بأسفل الوادي حيث كان سايرى تو باك يقيم في الماضي، لكن حدث أن تشجع الأسبان بسبب نجاح مبعوثهم بدرجة ملموسة وأرسلوا مبعوثة آخر ومعه ثلاثون جنديا إلى قلعة الانكا، فما كان من هذا الأخير إلا أن قطع الجسر فاضطر الأسبان إلى العودة من حيث أتوا . وكذلك أعيد رودريجيز إلى كوزكو، ولكن الملك احتفظ بسكرتير يتكلم بالأسبانية اسمه مارتن باندو، وهو الذي دون فيما بعد قصة حياة تتوكوزى .

بعد تلك الأحداث جاء اثنان تعيسان من القساوسة الأوغستين، هما الأخ دييجو والأخ ماركوس، وكانت قصتهما مزيج من المأساة والمهزلة . كان ذلك عام ١٥٦٥ عندما قرر فيليب الثاني ملك الأسبان المتعصب أن يفرض الديانة المسيحية على إمبراطوريته بأجمعها . وبدا أول الأمر أن تيتو كوزى اعتنق الدين الجديد، وأذن لأحد القسيسين بإقامة كنيسة بمكان يسمى «بوكيورا " حيث كان الملك يجمع بلاطه وجيوشه . "كانت بوكيورا قريبة من فيتكوس، ولهذا الاسم أهمية خاصة، لأنه أدى إلى أحد الأدلة التي ساعدت الأستاذ بنجهام على اكتشاف مدن الانكا المفقودة . ونحن نعتمد على ما سجله الأب كالانشا المبشر عن القسين، وه بيانات متحيزة دون شك نفهم منها أن الأخ دييجو كان لطيفة، طيب القلب اكتسب حب الهنود بمعالجتهم من الأمراض، أما الأخ ماركوس فكان متعنتة متعصبة، يعنف الهنود على إدمانهم في شرب الشيشا التي « تعودهم، على حد قول كالانشا و على الفسق المحرم، والفجور، والقتل، . وبلغ ماركوس ذروة الرعونة (ولو أن هذا

يحتاج إلى شجاعة فائقة) عندما دنس معبد الشمس بالقرب من فيتكوس. ويقول كالانشا إنه كان مشيدة في قرية تسمى « شوكيباليا، وبه (صخرة بيضاء فوق نبع) [1] فكان هذا الوصف المختصر دليلا آخر استغله بنجهام في اكتشافاته .

ومما يدل على رحابة صدر الانكا أنه لم يأمر بإعدام القسيسين في الحال، وربما يرجع هذا المكانة الأب دييجو وين الفقراء. ومع ذلك فقد فرض عليهما تجربة قاسية – ونفهم مما قاله كالانشا عن الانكا، أن هذا الأخير كان يعلم بأن العفة والصبر من صفات المسيحيين، وعلى هذا الأساس قرر أن يطبق عليهما تجربة عملية . إن كالانشا لم يقل هذا الكلام على وجه التحديد، و مع ذلك يبدولي أن الانكا – وهو رجل ذكي – دفع القسيسين إلى هذا الوضع المزري لمجرد التسلية، بناء على فكرة خبيثة طرأت له للتهكم عليهما . وفيما يلى قصة هذه التجربة العملية :

نظراً لأن القسيسين سبق أن طليا مرارا الذهاب إلى "فليكا باميا" وهي مقر تيتوكوزى الرئيسي، التي لم يقع عليها بصر أي أسباني، والتي ذكر كالانشا أنها تعتبر « جامعة الوثنية، حيث تقيم نساء الشمس المختارات، فقد وافق تيتوكوزى أخيراً على طلبهما، وقال لهما : (هيا معي، فإني راغب في تسليتكما) . ويقول الرجلان إن الرحلة كانت شاقة وطويلة . دامت ثلاثة أيام من بوكيورا حيث مقر قيادة جيش الانكا إلى قدس الأقداس في الجبال . وكانوا في موسم الأمطار، فأنهك السفر والصقيع القسيسين . وعندما وصلا إلى مكان يسمى أونجاكاشا، و جدا الطريق غارقة في المياه . ويقول، كالانشا

---

(1) العبارة إلى بين القوسين بقلم المؤلف .

:

بعد مطلع الفجر بقليل نزل القسيسان إلى الوادي وخيل إليهما أنهما وصلا إلى بحيرة، وقال ألانكا : (هيا، يجب أن تمر كانا في الماء . وكان الكافر القاسي محمولا على محفة، أما القسان كانا يسيران حافيين ! ودخل الرجلان في الماء بمرح، إذ أدركا أن إهانة الانكا لهما على هذه الصورة وتعذيبه لها، يرجعان إلى حقده من تبشير هما بالديانة المسيحية .

وأخيراً وصلا إلى اليابسة ير تعدان من شدة البرد، ويكسوهما الوحل وعندئذ الإياب إلى كوزكو، أخبرهما الانكا أنه اختار هذا الطريق الوعر بأمل أن يدفعهما الاشمئزاز إلى الإياب إلى كوزكو.

ويقول كالانشا إنهم (الهنود) أغرقوا الأرض بالماء وحولوا مجرى النهر لأن القسمين رغبا في الذهاب (وكثيرا ما حاولا) إلى فيلكا باميا للتبشير، وهي المدينة الرئيسية التي توجد فيها جامعة الوثنية، وأساتذة السحر والمنكر.

ولم ير القسان المدينة أبداً . ويقول كالانشا "لم يوافق الانكا على إقامتهما بالمدينة، وأمر أن يقام لها مسكن خارجها، حتى لا يتمكنا من مشاهدة العبادة، والاحتفالات الدينية، والطقوس التي يشترك الانكا وقواده فيها يوميا مع السحرة. وأقام القسان خارج المدينة يبشرون ضاء الوثنية، وهناك طبق عليه ما تيتو كوزى تجربته الثانية ليختبر درجة تمسكهما بشروط العفة".

ويعتبر وصف كالافشا لهذه التجربة من أطرف ما صادفني في مجال الفكاهة غير المقصودة، وما يزيد في التسلية أن الوصف دون بطريقة جدية

بالرغم من أنه يثير الضحك.

فقد اختار الانكا بعضاً من أجمل نساء الشمس المختارات، اللاتي جئن من وديان الساحل الدافئة (حيث لا يعرف معنى الحياء والطهر والعفة) والنساء اللاتي اختارهن ألانكا من أجمل نساء المنطقة وأكثرهن أناقة وزينة وإغراء "واستعملن كل مالديهن من تعاليم الشيطان، وفنون الشهوة، والإغراء. ومع ذلك فقد دافع رجلا الدين محماس اضطر النساء إلى الإياب بالخذلان والخيبة، لكن الانكا لم يهزم، فأرسل المزيد من النساء خلال الليل بطوله، متنكرات في زى القساوسة، ونظرا لأن الحجرات والحانات عند الهنود لا توجد لا أبواب أو مفاتيح، فقد استطاعت النسوة الوصول إلى فراش القسيسين ..

وواصل الانكا الهجوم على دفعات متعددة، والنسوة يتبادلن ملابس الكهنوت فيما بينهن . وحين ترك القسان مسكنهما ولجأ إلى العراء طاردتهما النساء مستعملات كل ما وسعهن من أساليب الإغراء الشديد ». انتهى وصف كالا نشا .

وبعد تلك التجربة التي يبدو أن القسين خرجا منها منتصرين، تساهل تيتو كوزى مهما وأذن لهما بالعودة إلى بوكيورا لمواصلة تعالي هما . وحاول القسان خلال هذه الفترة أن يد نسا ر معبد الشمس، وهو عبارة عن صخرة بيضاء فوق نبع ماء . ورجم السكان الأخ ماركوس بالطوب حتى أخرجوه من المدينة، أما الأخ دييجو فقد أذنوا له بالبقاء. وانتهت حياته هناك بمأساة فقد أقام الانكا (مايسميه الأستاذ بنجهام) « حفلة سائلة، أصيب بعدها بالتهاب رئوي . وحاول الأخ دييجو أن يعالجه بعقاقيره أو على الأقل أن يدفعه إلى

اعتناق المسيحية والاعتراف قبل موته حتى يباركه القس، لكن الانكا مات، واتهمت إحدى زوجاته دييجو بأنه تسبب في موته . فأعدموه (بقسوة بالغة) ويصف كالانشا هذا الحادث وصفاً ضافياً، ودقيقاً .

وسرعان ما جاءت بعد ذلك نهاية آخر انكا حكم البلاد، فقد جاءوا بالشاب من "بيت النساء المختارات" حيث كان تيتو كوزى قد وضعه ونصبوه ملكا،

لكنه كان يفتقر إما إلى شجاعة أبيه، وإما إلى حصافة أخيه، فلم يستطع أن يقف في وجه الأسبان لعدم درايته بفنون الحكم والحرب . وتجمعت من حوله ظروف سيئة أودت به إلى هلاك سريع : ففي أول الأمر دعا نائب الملك الأسباني . د توباك آمارو، للعودة إلى كوزكو، لكن السفير الذي حمل تلك الدعوة اغتيل وهو في طريقه إلى قلعة الانكا . فثار نائب الملك وأرسل حملة تأديبية برئاسة كا بتن جارسيا وأمره بالقبض على الانكا . ولو أن مانكو أو تيتو كوزى كان مكانه لهدم الجسور ودعم الاستحكامات التي تحرس مداخل مملكة الانكا ولكن تو باك آمار و لم يفعل شيئا عن هذا، بل ترك الجسور قائمة وأهمل الاستحكامات و بعد أن هاجم جارسيا القلعة و الصغرى، (غالبا فيتكوس) واحتلها، طارد الانكا ومن بقي من أتباعه، الذين تناقص عددهم، إلى وادى با ميا كو ناس المتغلغل في أدغال الأمازون . وكانت عملية شاقة استدعت الكثير من شجاعة الأسبان، وكاد جارسيا وجنوده أن يموتوا جوعا، وعبروا الأنهار المتدفقة حفاة الأقدام وصنعوا الطوافات، وشقوا طريقهم في الأدغال إلى أن انتهى الأمر، كما يقول جار سيا بأن آثر الانكا أن يسلم نفسه للأسبان بدلا من أن يموت جوعا .

وكانت النهاية الحتمية . أخذ آخر انكا في موكب إلى كوزكو حيث أقيمت محكمة صورية حكمت باعدامه هو وزوجته وأتباعه . ونفذ الحكم بقسوة شيطانية. ولو أن تيتو كوزى الكافر كان على قيد الحياة لأخبر أخاه عن نوع الرحمة التي تنتظره من الأسبان .

الفصل الثالث عشر

اكتشاف فيلكا باما

تحدثنا في الفصل السابق عن الأدلة التي فتحت أمام بنجهام طريق الكشف عن مدن الانكا المندثرة . وكانت هذه الأدلة، بالإضافة إلى القصص المحلى الذي توارثه أبناء الشعب، هي كل ما لديه من البيانات التي ساعدته على القيام بأول بعثة كشفية في بيرو . كان بنجهام من محي تسلق الجبال، حتى لقد تسلق الجبال لأول مرة أيام كان في الرابعة من عمره . ويقول بنجهام و كنت أرغب وأنا شاب – في أن أهيء نفسى لتدريس تاريخ أمريكا الجنوبية وأن أكتب عن سيمون بوليفار القائد العظيم، ولذلك تتبعت الطريق التي سلكها عبر جبال آنديز من فنزويلا إلى كولومبيا . وعندما أصبح بنجهام عضوا في أول مؤتمر على أمريكى عام ١٩٠٨، قام برحلة في جبال الأنديز، وتتبع خط سير الأسبان القديم من بونس آيريس إلى الما، ودخل الأنديز من مدينة كوزكو على ظهر بغل، وهكذا وطىء أرض الانكا لأول مرة وسحرته القصص التي سمعها عن تلك البلاد الجميلة التي لم تكتشف بعد، كما سحره جلالها وروعتها، فقرر أن يعود إليها على رأس بعثة منظمة وهو يأمل الوصول إلى أعلى قمة في أمريكا (جبل كورو بونا ٢٣,٠٠٠ قدماً)، لكي يجمع كمية من الأدلة في حقلي الجيولوجيا والأحياء، ولكي يكتشف – وهذا هو الأهم – آخر عاصمة الشعب انكا ولم يكن ينجهام في ذلك العهد قد أصبح أثريا بعد .

ورافقه – في رحلته الأولى – الأستاذ بومان، أخصائي الجيولوجيا والجغرافيا، والأستاذ هارى فونت، للطبيعيات، ودكتور / وليام ج . ارفنج

الجراح، وكاى هندر كسون أستاذ الطوبوغرافيا، وتوكر المهندس، و بول لانيوس، مساعده .

لم يكن بنجهام طبعاً، أول مكتشف يزور المنطقة فقد سبقه إليها كاستلنو، وماركو، وفينر، وسكوير، وغيرهم . وفي ١٨٣٤ قام الكونت سارتيجس برحلة شاقة طويلة في جبال آنديز، وكذلك فعل ريموندى عام ١٨٦٥، وترك الرجلان وصفاً للمنطقة، كما ترك ريموندى خريطة أخذها بنجهام معه في رحلته ضمن خرائط أخرى أحدث تاريخا . وترك الرحالة مدينة كوزكو بمعابدها وقصورها الفخمة، واتجه نحو وادى " أوروبا مبا " فيما وراء " اولانتاينامبو " حتى وصل إلى تورونتوى حيث ينتهي الوادي المزروع ذو المناخ المعتدل، وحيث يبدأ أخدود أوروبا مها الكبير.

وفي أواخر العقد التاسع من القرن الماضي، وقبل أن يقوم بنجهام برحلته باثنى عشر عاما أو خمسة عشر عاما مهدت السلطات) طريقة يتبع النهر، وذلك بتفجير حافة الأخدود، وقبل شق هذا الطريق، كان السير عند أسفل الجبل أمراً مستحيلا .

يشق نهر أوروبامبا طريقه خلال صخور الجرانيت ويسير في تيار سريع خطر ومنخفضات لا يمكن عبورها إلا بصعوبة، هذا إذا تيسر عبورها على الإطلاق . وأغلب الظن أن الهنود كانوا فيما مضى يمرون في مدق مواز للنهر زاحفين على الصخور وربما أضطروا أحيانا إلى القفز من صخرة لأخرى بمساعدة فروع الشجر اللدنية، حتى يصلوا إلى المدرجات الخصبة التي

تكسو الوادي) [1]

وقبل شق الطريق الجديد الموازي للنهر كان الوصول من مدينة كوزكو إلى أسفل وادي أوروبامبا ممكناً عن طريق ممرين اثنين فقط : الأول ممر "بانتيكالا" شمالا، والآخر ممر يقع بين جبل سالكانتاى (٢٠,٥٦٥ قدماً) وجبل سوارى (١٩,٤٣٧). وفي كلتا الحالتين ترتفع الممرات أكثر من ١٢٠٠٠ قدم، وكثيراً ما يستحيل عبورها ولاسيما في موسم الشتاء . وقبل شق الطريق الجديدة كانت المنطقة الجبلية التي تتوسط الممرات القديمة مجهولة تماما إذ لم يصل إليها أحد على الإطلاق في مدى أربعة قرون من الزمان .

وفي بيرو عدة مناطق استقر بها شعب الانكا، وكان بعضها في أماكن نائية، ومن بينها مناطق رجح بعض الباحثين أنها المواقع التي شيدت بها مدينتا فيتكوس وفيلكا باميا الدارستان. ونقب بنجهام في عديد من هذه المناطق، مثل قلعة شوكوكوير و الجبلية التي تشرف على أعالى وادى آبوريماك (المتكلم العظيم) . ولكي يصل إلى شوكوكويرو اضطر لعبور جسر معلق طوله ٢٧٠ قدماً وعرضه ثلاثة أقدام يهتز بشكل مخيف فوق نهر تتدفق مياهه بسرعة مرعبة وضجيج يفوق كل صوت آخر من حوله . وعلق الرحالة على ذلك بقوله "لا يفكر أحد في الأنديز أن يتعلم السباحة" (لاستحالتها مع سرعة التيار).

ولم يقتنع الرحالة بأن شوكوكوير وهي إحدى المدن التي جاء وصفها في سجلات القرن السادس عشر، واتفق معه في الرأي دون كارلوس روميرو (

---

(1) Bingham, Hiram. Lost City of the Incas. Phoenix House, 1951.

وهو من علماء بيرو) فقال :

"في السجلات ما يؤكد أن آخر عاصمة الشعب الانكا لم تكن في شوكوكويرو، وإنما كانت تقع فيما وراء سلسلة الجبال في المنطقة التي شاهدت فيها القمم التي يكسوها الجليد" .

واستطاع بنجهام ورفاقه بفضل الطريق الجديد أن يسيروا في محاذاة نهر أوروباميا بحثا عن " صخرة بيضاء كبيرة فوق نبع" [يمتد الطريق خلال أرض يفوق جمالها كل وصف، لها جلال و عظمة جبال روي الكندية، ولها الجمال الأخاذ الذي تتسم به نوانو بالي القريبة من هونولولو . وأستطيع القول إنه لم يصادفني في العالم أجمع مكان يضاهي تلك المنطقة من حيث تعدد أوجه الجمال وسحرها الطاغي. فبالإضافة إلى قمم الجبال العظيمة التي يكسوها الجليد والتي تطل من فوق السحاب على ارتفاع يزيد على ميلين، ومساقط الجرانيت ذي الألوان المتعددة التي ترتفع آلاف الأقدام فوق المياه المتدفقة الزبدة المر عدة، بالإضافة إلى كل هذا نشاهد مناظر متباينة منها زهر الأوركيد و نبات السرخص، وسحر الأدغال الغامض . وتجتذب المرء إلى المضي قدما مفاجآت تتكرر عند تعاريخ المضايق العميقة الغور التي تزحف تاركة وراءها مساقط شاهقة [١] .

ومن آن لآخر كانت تصادف الرحالة مدقات قديمة، وبعد أن عبروا المخرج السفلى بالأخدود، وجدوا أمامهم المدرجات الرائعة التي كان الإنكا قد أقاموها على جانبي الوادي، ووجدوا كذلك عددا من المدن والحصون، ولكن الوصف المعروف لمدينة فيتكوس لم يكن منطبقة على أي منها .

---

(١) Lost City of the Incas.

وصادف بنجهام حصناً جبليا استوقف نظره من حيث الحجم والفخامة، لكنه لم يدرك أهميته عندئذ، وسوف أمضى معه في الطريق الذي ساسكه، وأترك وصف هذا الحصن إلى ما بعد.

سارينجهام وزملاؤه في وادى اوربامبا، وكانوا يتوقفون عند القرى والمزارع ليستفسروا من سكانها عن آثار الانكا، وكان ينجهام قد حمل معه مد و فات قديمة ليعرضها أو يقرأها على الهنود الذين ينزل عندهم، وكان عادة يبوء بالفشل، فالآثار منتشرة هنا وهناك أو عند قمم الجبال، لكنها عند الدراسة كانت لا تطابق الوصف الذي يبحث عنه، وقابلهم في إحدى المزارع أحد الكتاب، mestiga وعندما سمعهم يذكرون كلمة د بوراك رومى، (الصخرة البيضاء) بعث فيهم الأمل بقوله إنه يعرف مكانا بهذا الاسم على مسافة ما، واضطروا أن يشقوا طريقهم داخل الأدغال إلى ذلك المكان، وعندما وصلوا إليه وهم منهوكو القوى، وجدوا منزلا عادية من منازل الانكا البدائية ليست له أهمية تذكر.

وفي مدينة سانتا أنا عند النقطة التي يبدأ منها سير القوارب في أوروباميا، قابلهم د دون بدروديوك، وهو من أهالي كولومبيا، لكنه أقام طويلا في بيرو، وأبدى بعملهم اهتماماً ملحوظاً، لكنه قال لهم إنه لا يعرف بالمنطقة أي مكان بهذا الاسم (فتكوس) أو حتى ما يشابهه . ودعا الرجل إلى ضيعته كل أصدقائه وجيرانه ليستفسر منهم ينجهام وزملاؤه عن كل ما يريدون . ومرة ثانية لم يصلوا إلى أية نتيجة، وخابت آمالهم . عندئذ قرر بنجهام أن يبحث في وادي فلكا بامبا، واستعان بخريطة كان "ريموند" أخصائي الخرائط قد رسمها حين مسح تلك المنطقة منذ سبعين عاما . واعتقد ينجهام بناء على البيانات التي تركها بالتازار او كامبو وكابتن جارسيا – اللذان عاصرا الفتح

الأسباني – أن وادي فل كابامبا هو نفس وادى فتكوس الذي حاول آخر ملوك الانكا أن يفر عن طريقه، لكن ريوند لم يشر إلى أية آثار للانكا بالمنطقة، ويقول بنجهام، لذلك بدأنا البحث ونحن في منتهى التردد، ... ووصلت البعثة أخيرة إلى الوادي الذي يحده من الجانبين جبال عالية و شديدة الانحدار تكسوها الأدغال . وفي قرية "لو كما" قابلوا " مجروفيجو " وهو موظف حكومي يعرف المنطقة جيداً، وعرض عليه نجهام أن يدفع له دولاراً فضيا من عملة بيرو مقابل كل آثر يدلهم عليه . ووافق الرجل العجوز بشيء من الامتعاض على أن يساعدهم، ولو أنه لم يكن قد سمع بتاتا عن أي مكان يسمى فتكوس، ولم يستطع التعرف على أي من الأماكن التي ذكرها الأب كالانشافي سجلاته منذ أربعة قرون. وفي الواقع لم يخف مجروفيجو احتقاره للعملية بأكملها.

في اليوم التالي تركت البعثة مدينة لو كما، وركبت النهر، ووجدوا أمامهم تلا يبلغ ارتفاعه ألف قدم تكسو قمته الأشجار والأعشاب، وله جوانب صخرية شديدة الانحدار، وقال مجروفيجو إنه توجد آثار متهدمة برأس التل، وإن التل يسمى روزا با تا Rosapata وهو اسم مكون من كلمتين : ياتا وهي كلمة هندية ومعناها "تل" و "روزاس " وهي كلمة أسبانية ومعناها "ورد"، لم يعر بنجهام هذا التفسير إلا اهتماما عابرة في أول الأمر، حتى إذا قال بعضهم دون قصد إن القرية التي تقع عند التل تسمى بوكيورا استرعى الأمر انتباهه .

وبوكيورا اسم المكان الذي استقبل تيتو كوزى فيه رودريجيز استقبالا رسمية، وهو المكان الذي أقام فيه القسان كنيسة، فهل يمكن أن يكون هو نفس المكان الذي وصلوا إليه ؟ إذا كان الأمر كذلك فان تكون فتكوس بعيدة، لأن الأخ ماركس والأخ دييجو سارا في الموكب من بوكيورا إلى «بيت

الشمس الذي يقع بالقرب من فتكوس، على حد قول كالانشا. لكن بنجهام ورجاله لم يجدوا في القرية حين وصلوا إليها أية أدلة، وحتى المباتي لم تكن قديمة العهد.

وعبر بنجهام وزملاؤه نهر فلكا بامبا وروافده تنكوكاشا، وسار مجروفيجو أمام بنجهام وزملائه وصعدوا إلى تل روزا با تا، فكان أول ما صادفهم مبنى قديم متهدم جنوبى التل، وكان واضحا أنه من آثار الانكا، وربما كان حصنا صغيرة لكنه لم يكن حصن فيتكوس، وبينما هم يصمدون تذكر بنجهام أن كابتن جارسيا ذكر في وصفه لقلعة فتكوس أنها تقع فوق قة عالية جداً، تحيط بها صخور مدببة وأدغال، ومحاولة الصعود إليها مخاطرة جسيمة، ويكاد يكون الاستيلاء عليها أمر مستحيلا.

وعندما وصلوا إلى القمة اكتشف بنجهام أن الحصن عال فعلا وتحيط به صخور مدية، وقد أقيم جدار في الناحية التي يمكن الوصول منها إلى الحصن بحيث يعجز أي مهاجم من الخارج عن تثبيت أصبع قدمه . وفي أعلى القمة وجدت بمجموعة من المباني المهدمة تشغل مستطيلا طوله ١٦٠ قدماً وعرضه ١٤٥ قدماً، ومن حول هذا المستطيل نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر مبنى أخرى تشغل مربعة من الأرض به فناء رئيسي وعدد من الأفنية الصغيرة . وكان واضحا أن المباني جميعها من آثار الانكا، وقد أتلفها العابثون الذين يبحثون عن مخلفات ثمينة، لدرجة أن ينجهام لم يستطع تحديد مقاييسها بالضبط، وقد استلفت نظره بشكل خاص مبنى ضخم يبلغ طوله ٢٩٠ قدما و عرضه ٤٣ قدما، مزود بثلاثين بابا، على كل جانب خمسة عشر منها، وليست به نوافذ على الإطلاق، ويمتد في المبني من الواجهة إلى الخلف، ثلاثة مرات تفصل بين عشرة غرف كبيرة، وكانت مداخل هذه

الممرات أو الطرقات مصنوعة بعناية من الجرانيت الفاخر، وكذلك العتبات التي يبلغ طول الكتلة منها ثمانية أقدام، وكتب المستكشف يقول : (كان هذا المكان صالحا لإقامة ملك الانكا المني من كوزكو، وتذكر وصف فتكوس الذي كتبه المؤرخ الأسباني اوكامبو حيث قال :

[يوجد مكان فسيح جداً ومستوى، به مبنى فخم أقيم بفن رفيع جداً، وكانت جميع عتبات الأبواب، الرئيسي منها وغير الرئيسي، منحوتة تحتاً دقيقاً.]

وأغلب الظن أن أوكامبو حين قال إن الأبواب كانت « منحوتة لم يكن يقصد أنها كانت مزخرفة بالنحت، إنما قصد أنها كانت مخروطة بدقة، أما المباني التي على قمة تل روزاباتا، فكانت مطابقة لما جاء في وصف أوكامبو عن قلعة فيكتوس،، ومع ذلك لم يكن بنجهام متأكدا من ذاك تماما : فأين الصخرة البيضاء (بوراك رومى) التي فوق النبع ؟؟ والمفروض أن تكون على مقربة من من المكان ؟ وفي تلك الليلة في . تتكوتشا كا، عندما ذكر بعضهم تلك الصخرة أجاب أحد أصدقاء مجروفيجو ببساطة : " أي نعم توجد صخرة كبيرة بيضاء فوق نبع، إنها في واد على مسافة قصيرة من هنا سأدلكم عليها غداً ".

ومرة أخرى خاب أمل المستكشفين . قاده الدليل إلى صخرة بيضاء بها مكان للجلوس منحوت على أحد جانبيها . وبالقرب منها وجدوا مغارة ربما كانت تحتوي على موميات في وقت ما، لكنهم لم يجدوا النبع الذي وصفه كالانشا، كما أنه لا يمكن أن تكون هذه الصخرة صرحا من صروح الانكا الذي وصف بأنه « معبد الشمس،. و بدأ رجال البعثة وبنجهام في مشاركة

الدليل في شهوره با اشك و عدم الرضا عن العملية، وكان اهتمام الر حل بآثار الانكا مركزة على الدولار الفضي الذي حصل عليه مقابل كل أثر يقود البعثة إليه. وكان يعتقد أن الرحلة من أولها لآخرها عملية تافهة عديمة الجدوى . فقد عاش طوال حياته في تلك المنطقة ولم يسمع بمكان مثل هذا (الذي يصفونه) فكيف يتسني لجماعة من الأمريكان أن يجدوه ؟.

ولعل الشك كان قد بدأ يتسرب إلى بنجهام نفسه ولو أنه لم يعترف بذلك، ولكن بعد ظهر نفس اليوم، تتبع مجرى من مجاري الماء الدقيقة خلال الغابة، وفاة وجد نفسه في مكان فسيح وأمامه صخرة كبيرة بيضاء تسطع تحت الشمس الغاربة، وتحت الأشجار وجد بقايا معبد متهدم للانكا، وبجزء من صخرة ضخمة من الجرانيت يجرى تحت أحد جوانبها نبع صغير، . كان هذا بعد ظهر التاسع من أغسطس عام ١٩١١. ويقول :

[لم يكن هناك مجرد كوخ واحد، وكان الصمت مخيماً، ولا شك أن المكان كان نموذجية لإقامة الحفلات الروحانية لتلك الديانة القديمة، ويبدو أن اختيار هذا المكان كمركز للعبادة كان راجعة المنظر الصخرة الغريب، والنبع الذي ينساب تحت ظلها، ولا شك أنه كان رمز كبير آلهة الجبال، الذي مازال هنود تلك المنطقة يقدسونه . « لقد عثرنا أخيرة على المكان الذي كان الكهنة يواجهون الشرق منه ليحيوا الشمس و يمدون أيديهم إليها ويلقون قبلاتهم نحوها»

ونستطيع أن نتخيل كهنة الشمس بملابسهم الرسمية الرائعة وهم وقوف فوق حافة الصخرة، يضيء وجوههم نور الصباح الوردى، إلى أن يصعد الإله العظيم ان الشرق فوق التلال ليتقبل صلواتهم . ويرتفع الإله إلى القمة،

نستطيع أن تتخيلهم وهم يهلون قائلين : أيتها الشمس، يامن خلقت كوزكو وتامبو، أمنحى الانكما النصر على الدوام، طالما أنك خلقتهم لهذا

وهكذا اتضح أن روزا باتاهى فتكوس وأن بوكيوريا هي البلدة التي ذكرتها السجلات وأن هذا هو معبد الشمس الذي دنسه القسان، وبقي على البعثة أن تكتشف فلكا باميا مقر تيتوكوزى الرئيسي، حيث يوجد د بيت النساء المختارات وغيره من المباني المخصصة للطقوس الدينية التي فشل القسان في الوصول إليها والتي يقال إنه لم يرها أي أسباني، ولكن أين فلكا بامبا ؟. لقد ذكر كالانشا أنها على مسيرة ثلاثة أيام من فتكوس. ولكن في أي اتجاه؟.

وقبل أن يواصل بنجهام السير. فحصر فتكوس بعناية، ووجد في المجمع المقابل القصر الانكا عدداً من المباني ذات المظهر الخشن، لعلها أقيمت للاجئين الأسبان الذين آواهم ماند و وخانوه في آخر الأمر، فقد عثر فيها على مصنوعات أوربية، كمسامير حدوة حصان أكلها الصدأ، ومشبك معدني، وقطع لزينة اللجام والسرج، وثلاث قيثارات . واعتقد ينجهام أول الأمر أن تلك الأشياء من مخلفات هنود محدثين أقاموا عند رأس التل، ولكن الفكرة تبدو بعيدة الاحتيال لصعوبة رفع الماء فوق سفح التل المنحدر، فهل كانت من مخلفات الأسبان التي كان مانكو يستولى عليها في غزواته على التجار وهم في طريقهم من كوزكو إلى ليها ؟ أم هل كانت هذه الأشياء ملكا للأسبان الذين لجأوا إليه، مثل جوميز و منديز وغيرهم؟ ولقد تحدث رودريجيز مانديز عن "مقصين" قدمهما هدية إلى تيتو كوزى . وقد وجد بنجهام مقصا صدئاً في فيتكوس.

---

(1) Bingham, Hiram. Lost City of the Incas. Phoenix House, 1951.

إن البحث على هذا المنوال لا يعتبر بعثة أثرية فنية، إذ أنه يترك مجالا للشك، ومع ذلك كانت تلك خبرة يحسد عليها بنجهام ورفاقه إذ نتخيلهم واقفين في الفناء المقابل لقصر الانكا (مانكو) المتهدم، وهم يؤكدون أن تلك البقعة كانت مسرحا للأساة التي قتل فيها جوميز المخمور مضيفه الملكي.

وواصل رجال البعثة بحثهم عن فلكا بامبا، فضوا جنوباً نحو واد بامبا كوتاس الرطب، متغلغلين في أدغال يسكنها هنود متوحشون عراة – من سلالة الأنتي، أكلة لحوم البشر الذين هددوا بأكل رودريجيز فيجويروا و نعتوه بالرجل الهزيل الملتحي. في تلك الغابة، بأعالى نهر الأمازون، وبعيدا عن مسقط رأيه، خضع آخر ملوك الانكا تو باك آمارو التعيس – وسلم نفسه إلى كابتن جارسيا الذي لا يعرف الرحمة، والذي أعاده إلى كوزكو ليلقي حتفه . يقول جارسيا أن . الانكا، آثر أن يسلم نفسه للأسبان حتى لايموت جوعا، وربما كان السبب في ذلك أن شعوب الأنتي أكلون لحم القردة التي تعج بها المنطقة، وأغلب الظن أن تو باك آمارو الذي عاش في رفاهية (بيت النساء المختارات، لم تطاوعه نفسه على أكل طعام هؤلاء المتوحشين ولعله خاف و الأنتي، أنفسهم، وكما ذكر بنجهام، لو أن حلفاء تو بالا استطاعوا أن يقدموا له الغذاء الذي اعتاد عليه فأغلب الظن أنهم ما كانوا ليسمحوا لكما بتن جارسيا بأسره .

اندفع بنجهام إلى استكشاف وادى با مبا كو ناس بسبب أنباء سمعها عن مدينة الانكا تسمى اسبيريتوا بامبا (قرية الأشباح) وتوصلت البعثة بمساعدة مزارع بدعى دسآ فيدرا، إلى اكتشاف بعض مباني من عهد الأنكا، وجدت بد اخل الأدغال على ضفاف أحد روافد نهر بامباكو ناس . وعلق

بنجهام على هذا التكشف قوله : « ليس من المعقول أن نفترض أن كاهن الشمس و عذاراها الذين فروا من كوز كو بمصاحبة مانكو يميلون للعيش في هذا الوادى الحار بعد الرفاهية التي كانوا يتمتعون بها في فلكا باميا، إن فارق المناخ بين المكانين مثل الفارق بين مصر و سكوتلاندة . والغذاء الذي اعتادوا عليه ليس متوافرة في أسبيريتو بامبا، وكان في استطاعتهم أن يلجأوا إلى أماكن أخرى يتاح لهم فيها الأمن و العزلة التي يحتاجون إليها، بالإضافة إلى مناخ معقول منعش، و محاصيل زراعية أشبه بتلك التي اعتادوا عليها.

والذي حدث فعلا هو أن ينجهام كان قد اكتشف موقع فلكا بامبا دون أن يدرك ذلك. فقد وصل إليها في يوليو من عام ١٩١١ وهو في طريقه إلى أوروبامبا، كما ذكرنا في أول هذا الفصل، وكانت تقع أسفل قلعة سالايونسكو بالقرب من تورونتوى، وبعد أن مرت البعثة بمكان يسمى ماكيينا، وصلت إلى سهل مكشوف يسمى ماندوباميا تحيط به مساقط عملاقة من جميع النواحي فيما عدا تلك التي بها نهر سريع التيار" .

في تلك البقعة قابل بنجهام رجلا يسمى تكور آرتياجا أخبره بوجود آثار ميان قائمة فوق الجبل المقابل ؛ وكانت هذه المنطقة – كما ذكرت من قبل – مغلقة أمام المستكشفين جميعا قبل شق الطريق الجديد المؤدى للنهر الهادر خلال الأخدود . وكان المستكشفون القدامى لا يستطيعون الوصول إليها إلا عن طريق مرات شاهقة فوق الجبال، ولهذه الأسباب بقيت المنطقة مجهولة للأجانب، لايرتادها إلا الهنود، وفي صباح يوم ٤ يوليو اتجه بنجهام إلى الآثار المذكورة، وكان يصاحبه آرتياجا وجندي من أهالي بيروا، والصول كاراسكو، أما باقي أعضاء البعثة فقد رفضوا تسلق الجبل، وقال عالم الطبيعات إنه يفضل البحث عن مزيدمن الفراشات التي تعيش قرب النهر أما

الجراح فكان يغسل ملابسه، وهكذا أصبح من حظ بنجهام أن يكون أول رجل أبيض يرى قلعة الانكا هذه القائمة فوق الجبل .

ذهب آرتياجا بالرجل نحو جسر مصرع بطريقة بدائية، عبارة عن ست قطع من الخشب، يشدها إلى بعضها البعض عدد من فروع الشجر، وبدأت عملية التسلق، ويتحدث ينجهام قائلا:

[في أغلب الأوقات كنا نزحف على أربع، ونتشبث أحيانا بأظافرنا .. كان يصادفنا من آن لآخر سلم بدائي مصنوع و مثبت بطريقة تسمح بالمرور فوق المنحدر الذي يستحيل عبوره بدونه، و في مكان آخر كان المنحدر مكسوة بحشائش زلقة يصعب الارتكاز فوقها أو الإمساك بشيء من تحتها . وضح آرتياجا شاكيا من كثرة الأفاعي و بقي الصول كاراسكو صامتة، ومن حسن حظه أنه كان يلبس حذاء الجيش السميك . كانت درجة الرطوبة مرتفعة، وكنا في المنطقة التي يبلغ فيها التكاثف ذروته، وكان الحر شديدا، والإنسان في حاجة إلى ما ينشطه].

عند الظهر وصل بنجهام منهوكا إلى كوخ صغير على ارتفاع ألفي قدم فوق سطح النهر، وهنا عرفه آرتياجا باثنين من الهنود – الفاريز وريشارت – كانا يقيمان في هذا المكان القعي لسبب اتضح فيما بعد، حين قاد الهنديان بنجام ورفاقه إلى أعلى، فوجدوا أمامهم مدرجات عريضة من التربة الخصبة أقامها الانكا القدامى. وعندما اكتشف الهند بان هذه المصاطب كانت تكسوها أشجار كثيفة، لكن الرجلين مهدا الأرض وزرعاها بالأذرة والبطاطا، والبطاطس، والقصب، والفول، والطماطم، . ويقول بنجهام :

" كانت تلك البقعة تتصل بالعالم الخارجي، عن أحد طريقين : الطريق

الذي ذقنا مرارته، وطريق آخر أصعب بكثير، عبارة عن مدق خطر فوق صخر يطل على هاوية شاهقة، وكان السبيل الوحيد الذي يبقى لها في موسم الأمطار عندما يصبح السلم الذي صعدنا عليه غير صالح للاستعمال، ولم أدهش عندما أخبراني أنها لا يذهبان إلى بلدتها غير مرة واحدة كل شهر " .

ومع ذلك فليس ثمة شيء غير عادي في مدرجات الانكا، لكن المنظر كان يستحق متاعب تسلق الجبل، ويضيف ينجهام قوله :

" كانت المنحدرات الشاهقة الخضراء تطل فوق نهر أوروباميا المتدفق في أسفل الوادى، وأمامنا مباشرة، عند شمال الوادي، جبل من الجرانيت يبلغ ارتفاعه ألف قدم، وفيما وراءه قمم جبال يكسوها الجليد وتعممها الغيوم، ويزيد ارتفاعها عن سطح الموقع الذي نقف عليه بآلاف الأقدام ".

استقر بنجهام لفترة في مكانه وهو يتأمل جمال الطبيعة، كان منهكا لايرغب في الحركة، لكنه تحرك أخيرة وتتبع الهنود فوق المنحدرات، فصعد فوق أشجار ملقاة على الأرض، و تعثر في أجمات البوص، إلى أن وجد نفسه فجأة وسط مبنى من الحجر المصقول . شاهد أمامه « مبني على شكل نصف دائرة ينساب جداره الخارجي المقيى على نمط و معبد الشمس، الشهير بمدينة كوزكو ... كان يتبع انحناء الصخر الطبيعي ويمسك به بطريقة دقيقة لعلها أجمل ما رأيت في فن المعمار وكان متصلا بجدار آخر حميل من حجر الجرانيت الأبيض المصقول، وقد اختير خصيصا من النوع الفاخر .،. وكانت الخطوط الإنسيابية، و تناسق الكتل، كونان مع منظرا بهيجة . كان المبنى يفوق أجمل حدران مدينة كوزكو التي أثارت إعجاب المتفرجين عليها عبر الأجيال ... ولقد أخذ بجماله . فإذا يمكن أن يكون هذا المبنى، ولماذا لم يذكره أحد؟.

كان هذا الاكتشاف أول حلقة في سلسلة عجائب أخرى : وحث الهنديان بنجهام على مواصلة الصعود فوصل إلى سلم كبير من الجرانيت يؤدى إلى مبنيين كبيرين من الحجر الأبيض، ارتفاع الكتلة الواحدة فيه ما يزيد على طول الرجل العادي. كأن المبنيان من معابد الانكا، ويتكون كل منهما من ثلاثة جدران، والواجهة الرابعة مكشوفة، وارتفاع جدران المعبد الأكبر اثنا عشر قدمة وبها خوات كانت خصصة في الغالب لموميات الاكا . ويبدو أن كلا من المعيدين لم يكن له سقف في أي وقت مضى، كانت الكتل الحجرية التي تكون أعلى الجدران جميلة و مكشوفة لتسهل دخول الشمس .. "وفحصت الكتل الأكبر حجماً في أسفل الجدار و قدرت أن الواحدة تزن من عشرة إلى خمسة عشر طنا" و عند جنوب المعبد يوجد فناء يقوم شرقى مبني أكثر عجبا، يبدو أنه هو الآخر كان معبدة، ثم ثلاث نوافذ تطل على الأخدود نحو الشمس المشرقة، ولم تكتشف قبل ذلك أية نوافذ بهذا الشكل من حيث الأداء والتصميم، مما يثبت أن هذا المبنى كان له هدف خاص...".

وتذكر ينجهام أن " سالكما يمروا – وهو مؤرخ من بيرو– كتب و صفا الأثار بلاده في عام ١٦٢٠ – قد قال إن ما نكو الأول – وهو أول ملوك الانسكا، أمر بإقامة مبني ذي ثلاث نوافذ في مكان ولادته، وقد عاش مانكو الأول حوالي عام ١٠٠٠ بعد الميلاد، أي قبل خمسة قرون من حكم مانكو الثاني الذي قاوم حكم الأسيان . ويقول بنجام إنه ظن أول الأمر أنه اكتشف مدينة أول د انكا، ولم يدرك فيما بعد أنها كانت عاصمة آخر حكامهم كذلك.

في العام التالي (١٩١٢) عاد بنجهام على رأس بعثة للتنقيب لمسح هذه الآثار التي تشرف من عليائها على أخدود أوروباميا، وهي مرتفعات ما تشو بتشو، نفس الاسم الذي يطلق حاليا على المدينة، وهي دون شك

المدينة التي كانت تسمى فلسكا بامبا، مقر الحكام الرئيسي وملجأهم الحصين الذي لم يتيسر للأسان أن يكتشفوه أبدا . وعمل المتبون بجد فقطعوا أشجار الغابة التي كانت تطبق على أنفاس المدينة، وتخفي بهاء الباني، وجلال الموقع، والذكريات العاطفية المرتبطة به، وقد أثار كل هذا في قلوب المنقبين شعورا جلال التضحية من أجل الهدف الذي وهبوا أنفسهم من أجله . لقد وجدوا إحدى عجائب العالم، وأعجب ما فيها أنها احتفظت بسرها حتى أوائل القرن العشرين .

تمتد الأطلال على حافة هاوية تحت قمة جبل ما تشو، ويحمي المدينة من واجهاتها الثلاث نهر أوروبامبا المتدفق، وهو يزأر في طريقه عبر الأخدود على مسافة ألفي قدم من تحتها، أما واجهتها الرابعة فلا يمكن الوصول إليها إلا بالسير فوق حافة الجبل، وهي أشبه ما تكون بسلاح مدية . والجانب الشرقي للجبل يستحيل الوصول إليه، أما الجانب الغربي ففيه مدق موار لأخدود أفق ضيق، يمتد على جانب الهاوية . لذلك تستطيع حفنة صغيرة من الرجال أن تدافع عن الحصن ضد جيش بأمره. وشرقي الجبل وغربيه معا بطلان على هاوية عمقها ١٥٠٠ قدماً يمكن قذف الأعداء فيها بالحجارة .

وحينما وجدت فجوات على الصخور كان (الانكا) يقيمون عندها سدوداً، حتى لا يتركوا أي نقطة ارتكاز يصعد الأعداء عن طريقها إليهم، ويحمي الجبل حصن صغير، ويقول عنه بنجهام إنه «أشبه بممر ثرموبيلاى[١] ". وهكذا استحال على أي غريب أن يصل إلى الأماكن المقدسة إلا بأمر د

---

(١) الممر الإغريقي الذي دارت عنده معركة تعرف باسمه بين الفرس والإغريق في الحروب الميدية، وكان من الضيق بحيث أغلقه ملك اسبرطة ليونيداس ومعه ثلاثمائة فقط من الجند الاسبرطيين وعجزت جحافل الفرس عن اقتحامه، لكنها التفت حوله وفاجأت القوات الإغريقية من الخلف .

الانكا، كما اعترف بذلك القسان ماركوس وديبجو .

ووجد المستكشفون على جبل ماتشوباشو، و قمم جبال أخرى محطات لإرسال الإشارات كي تبعث الرسائل وتستقبل عن طريقها عبر الجبال .

لقد أقيمت مدينة " فلكا باميا " على منحدرات مدرجة . يوجد بها ما يربو على مائة سلم تربط بين هذه المدرجات التي كان الأهالي يزرعونها، وكانوا يعتمدون في ري أراضيهم على الينابيع التي تتفجر على بعد ميل من المدينة . فيحولوا مجراها إلى قنوات حجرية تمر من تحت المدينة وتصب في سلسلة من الخزانات المصنوعة من الحجر . ويصب آخر خزان من هذه المجموعة في قناة توصل الماء إلى ترعة. ولم يذكر بنجهام أن بالمدينة ينابيع، وفي رأيه أن الأهالي هجروا فلكا باميا بسبب ندرة المياه فيها .

وبالمدينة حدائق كثيرة، بعضها ملحق بمنازل صغيرة، وأحيانا كانت المنازل تنظم في مجموعات . ووجد البحاثة في بعضها مصاحن حجرية لصحن الحبوب.

وتقع أجمل المباني غربي المدينة، حيث يصعد المرء بعض المدرجات فيجاد قفسه فوق تل يعلوه معبد، ومعقل جميل لتقييد الشمس . و بالقرب منه أطلال منزلين جميلين مشيدين بكتل من الجرانيت الأبيض، التي قدت وخرطت منتهى الدقة الميسرة لعمال تعوزهم الأدوات الحديثة، وقد ثبتت هذه الكتل فوق بعضها البعض دون ملاط. وجنوبي هذا التل فراغ فسيح أسماه بنجهام القصر المقدس يقوم على جانبه أكبر معبدين بالمدينة، استعملت في بنائهما كتل هائلة الحجم من الجرانيت يبلغزنة الكتلة الواحدة منها خمسة عشر طنا أو تزيد، وهي مخروطة بشكل جميل و متداخلة في بعضها البعض

بدقة و بدون ملاط، و تنحدر الجدران إلى الداخل – كما هو الحال في بعض المباني المصرية، لتدعيم المبني، وكانت الجدران وسعة الأبواب تتناقص من أسفل إلى أعلى .

ولم تكن لدى الانكا أية أدوات رافعة، أو مصنوعة من الحديد أو الصلب، ولهذا يعتقد أن هذه الكتل العملاقة من الجرانيت قد نقلت إلى أماكنها باستعمال عصى من البرونز (وجدت منها نماذج) . ويقول بنجهام إن البناء أحتاج إلى مجهود دام أجيالا، وربما قروناً .

واكتشف بنجهام عدداً من المقابر كان يجدها عادة بداخل مغارات في منحدرات صخرية تعلوها أدغال كثة. وكان الوصول إليها عسيراً بل خطراً في بعض الأحيان لكثرة الأفاعي التي تعيش في الأعشاب والتي لدغت عددا من العمال الهنود، فقد وجد بنجهام أن بعض الهياكل العظمية سقطت على الأرض عندما تأكلت اللفائف التي تربط الموميات، وكانت الجثث (تدفن) عادة وهي جالسة ترتكز فيها الذقن على الركبتين، و تدفن معها أوان خارية، وأدوات مصنوعة من العظم واحيانا من البرونز، وقد سطت الحيوانات الضارية مثل الدب والتمر على عدد من المقابر.

وأهم مقرة أسترعت النظر، كانت عبارة عن مجموعة من المغارات في منتصف الجبل إلى الشمال الشرقي من المدينة، وقد وجدت بها خمسون من جثث الانكا، جميعها من الإناث، باستثناء أربع جثث الذكور. ويقول بنجهام (كان هذا كشفة، مثيرة، إذ يدل على أن النساء المختارات كن آخر من سكن ماتشو بتشو، وهن عذارى الشمس اللاتي يرتبطن بالأماكن المقدسة المخصصة لعبادة الشمس . وعلى بعد مافي الجهة الجنوبية من هذه

المجموعة، توجد مغارات أخرى بها خمسون جثة جميعها لإناث باستثناء خمس أو ست جثث منها).

وأخيراً اكتشف مدفن منفرد لامرأة واحدة، كانت لا شك في مستوى أرق من النسوة الأخريات . وكانت فوق هذه المقبرة صخرة ضخمة يبلغ ارتفاعها خمسون قدما، وبالقرب من الهيكل العظمى بقايا كلب، ودبوسان كبيران من البرونز، وإبر للحياكة وملقاط، وبقايا من قطعة قماش، ومرآة مجوفة من البرونز، ويعتقد بنجهام أن صاحبة القير كانت كبيرة الكهنة « ماما كونا، التي ترأس الدير ويقول: "ونحن نعرف أن ماما كونا .. كانت في بعض المناسبات الدينية تشعل النار في قطعة من الصوف بتركيز شعاع الشمس عليها بوساطة مرآة مجوفة من البرونز ... ولو أننا لا ندري إذا كان هذا أمراً ممكنا أم لا.

ويبدو لأول وهلة أن بقاء مدينة بهذا الحجم والفخامة مختفية حوالي أربعة قرون أمر مستحيل، لكنه حقيقة . ويفسر المكتشف السبب في ذلك بقوله: كانت هذه البقعة في أقصى جبال الأنديز بمنطقة يستحيل الوصول إليها . ولا يوجد في بيرو بأجمعها مكان حمته الطبيعية مثل هذه المنطقة : أخدود هائل من صخر الجرانيت، ترتفع جدرانه أحيانا إلى ألف قدم، فيه من العقبات مايوهن عزيمة أكثر المستكشفين طموحة، ومع ذلك فقد عاش فوق أحد الجبال هناك شعب متحضر، فنان، خلاق، منظم، أقام في الماضي البعيد هيكلا لعبادة الشمس تحيط به هاوية شاهقة .

إن مدينتي فتكوس وفلكا بامبا [1] لم تكونا مجهولتين فقط حتى اكتشفهما بنجهام، بل لم يكن لهما أثر على الخرائط . وبينما كان بنجهام

---

(1) توجد مدينة حديثة نسبيا بنفس الاسم عند منبع نهر فلكابامبا .

ورفاقه يبحثون عن فتكوس، صعدوا من الممر الواقع قرب نهر فلكا بامبا، فوجدوا أمامهم، من ناحية الغرب، سلسلة جبال يعلو قمتها الجليد، ولم يكن لها ذكر على أي خريطة وبناء على خريطة ريموندى لم يكن بين نهري أبورياك وأوروبا ميا متسع لهذه الجبال . وبدلا من أن يجد المستكشفون أنفسهم عند تقاطع أبورياك و بامبا كو ناس وجدوا أنهم فوق ممر جبلي شاهق الارتفاع تحيط به قمم جبال ثلجية .

وفي العام التالي قام الفريد ح. بمستيد، كبير الطبوغرافيين في البعثة بحل هذا الغموض، يقول بنجهام « قرر (بستيد) أن نهرى أبورياك وأوو بامبا يبعدان عن منطقة جديدة مساحتها ١٥٠٠ ميل مربع لم يكن يعلم بوجودها أحد حتى عام ١٩١١، وأتضح أنها من أعظم المناطق الثلجية التي كانت مجهولة في أمريكا الجنوبية ومع ذلك فإن المسافة بينها وبين كوزكو (أهم مدينة بالانديز في بيرو) أقل من مائة ميل . وتتضح لنا حكمة مانسكو في اختيار هذا الموقع ملجأ، وهو الموقع الذي تحدى البحث على مر السنين.

الخاتمة

لقد ذكرت في المقدمة أن هدف هذا الكتاب هو المتعة و التسلية، وأن الفكرة التي اعتمدت عليها في اختيار بعض المدن التي اندثرت، هي مقدار ما تثيره تلك المدن من عجب في النفوس . وللقارئ أن يحكم فيما إذا كنت نجحت أم لا. وقبل أن أختتم هذا الكتاب يطيب لي أن أسجل بعض ملاحظات شخصية تراءت لي أثناء الكتابة . وسأعرض هنا هذه الملاحظات باعتبارها مجرد آراء، قد يوافق القاري عليها وقد يرفضها، كما أنني لا أدعي أنها أفكار جديدة .

الملاحظة الأولى. هي أننا عند مقارنة نشأة وازدهار وتداعى حضارات مختلفة، حضارة سومر، و آشور، والإمبراطورية الحيثية، ووادي أندوس، و سيلان، وأمريكا، نلمس صورة تكاد تكون مشتركة بينها جميعا . جميع هذه الحضارات تبدأ بالزراعة، سواء اعتمد الري فيها على نهر معين كما كان الحال في العراق، ووادي أندوس، أو على مدرجات مثل التي أقامها الأنكا في بيرو، أو باستخدام وسائل الهندسة المائية، كما فعل شعب سيلان . وفي كافة الحالات كان هذا كله يتم على يد سلطة مركزية قوية تستطيع بفضل القوانين والتنظيمات المختلفة أن تخلق مجتمعات مترابطة ومتكاملة . وفي كافة الحالات أيضا كانت هذه السلطة تتركز في هيئة الكهنة، وهم فئة من الرجال الأذكياء المتعلمين، نجد بينهم الفنيين والمهندسين والعلماء، الذين حافظوا على المعلومات التي توصلوا إليها، و نقلوها إلى الأجيال التالية، بالكتابة أحيانا و بالمشافهة أحيانا أخرى، وفي بعض الأحيان كان الملوك هم

كبار الكهنة أنفسهم، وأحيانا أخرى كان الملك يختار من بين أفراد الطبية العسكرية التي استحوذت على السلطة بفضل شجاعة أفرادها و مهارتهم في ميادين القتال، ومقدرتهم على حماية الدولة من الأعداء، ومع ذلك فقد كان هؤلاء الملوك يتحالفون مع رجال الدين، برغم أن التنافس على السلطان بين الفريقين كان يحدث كثيراً .

أما الملاحظة الثانية . فتعتبر نتيجة الأولى، ذلك أن الدين كان المحور الرئيسي للحضارات القديمة جميعاً، كما تدل المدن نفسها على ذلك بوضوح تام، ففي جميع الحالات نجد عناصر الثروة الطبيعية، سواء تمثلت في الأيدي العاملة، أو الأراضي أو الخامات أو المهارات الفنية، تستغل جميعها في بناء الصروح الدينية . وعلى سبيل المثال نستطيع أن نقارن معابد الشمس عند المايا والانكا، ومعابد السومريين أو الداجوبا في آنورادهابورا، بأهرامات مصر ومعابدها . وباستثناء المعابد، لا توجد ميان فاخرة إلا قصور الملوك، وحتى هذه كانت مرتبطة بعبادة الآلهة إن قصور آشور بانيبال وسناخريب في آشور كانت تزدان بصورة منحوتة اللآلهة . وقصور ملوك سيلان كان لها ارتباط وثيق بالمعابد، كذلك كانت قصور المايا والانكا متصلة بعباداتهم، وكان الملوك أنفسهم يشتركون في إقامة الطقوس الدينية .

إن كافة الأديان تقريبا كانت تقوم على فكرة استرضاء قوى الطبيعة التي كان القدماء يعتبرونها آلهة . مثل الشمس، والمطر، والريح، و آلة الزراعة والخصوبة .. الخ، ومن أمثلة ذلك « يوم تشاك إله الأمطار عند المايا، و"رانكى" إله الماء عند السومريين، " ورع، إله الشمس عند قدماء المصريين، وكذلك إله الشمس عند المايا والانكا . وفي أغلب الطقوس الدينية كان المتعبدون يقدمون القرابين التي من البشر في أحيان كثيرة . ويبدو أن الديانة

البوذية كانت في بداية عهدها تختلف عن هذه القاعدة العامة، ومع أن النخبة المختارة من المثقفين ما زالت تعتبر بوذا رائداً روحية لا إلهاً، إلا أن عامة الشعب كانوا يعبدونه ويقدمون له النذور في محاريبه، كما يحدث في عبادة الآلهة في العراق والمكسيك و بيرو.

وفيما يختص بمدينة بومبي الرومانية، حيث تطرق الانحلال إلى المجتمع، كانوا يأخذون الآلهة باستخفاف، لكن آلية الرومان التي أخذوها عن الإغريق عندما انتصروا عليهم، كانت آلهة مرتبطة بالطبيعة، وكان الإغريق القدامى يقدمون لها قرابين آدمية في بعض الأحيان، كما حدث مع " أجاميمنون " الذي ضحى بابنته ايفيجينيا . ويبدو أن جميع المجتمعات البشرية تقريباً قد مرت بتلك التجربة وتدل المقابر الملكية في أور الكلدانية على أن السومريين قدموا قرابين بشرية في حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م، وأن الأزتك والمايا الذين ازدهرت حضارتهم بعد هذا التاريخ بكثير، كانوا يقدمون القرابين البشرية لآلهتهم كذلك في عام ١٥٠٠ بعد الميلاد.

وتوجد أوجه شبه أخرى بين هذه الحضارات المنفصلة المتباعدة، ومن قبيل ذلك نظام الحكم البيروقراطي العقد الذي كان سائدة في سومر، إذ كان سائدة في بيرو أيضا، ولعله اتبع كذلك في هارابا، وفي موهنجودارو، وهو نظام قد يتيح الرخاء للشعب، لكنه لا يدع له فرصة تقرير المصير، والواقع أن نظام الانكما كان يشبه نظام الدول الشيوعية الحديثة بما في ذلك تمسكها بالملكية الجماعية، وكانت نفس الفكرة تنطبق على بعض الحضارات الهندية الأخرى في أمريكا الوسطى.

إن التناظر والتشابه لا يدل بشكل قاطع على وجود ارتباط مادى بين

حضارات المدن التي ذكرت في هذا الكتاب، ولقد كان الاتصال بين مصر وسومر وبين سومر ووادي أندوس اتصالا طفيفة، ولم يوجد أي اتصال على الإطلاق بين أول حضارات العالم القديم وحضارات العالم الجديد، إلا إذا اعترفنا وآمنا نظرية " قارة أطلانتا المفقودة " وهي نظرية يحيط بها كثير من الشك . وأقرب تفسير نستطيع عرضه هو أن الجنس البشرى إذا أتيحت له ظروف معينة تسبح له بالاستقرار في مكان واحد، فإنه رأى الجنس البشري) يتبع في نموه خطوطة عريضة متشابهة برغم ما تسببه ظروف الجنس والمناخ والموقع الجغرافي من اختلافات .

أما ملاحظتي الثالثة. التي يحتمل ألا يوافق عليها القارى"، فهي أن الديانات مهما بلغت من درجات السمو، لم تفلح في أن تجعل البشر أكثر تسامحاً، ورحمة وإنسانية . حقاً إن الآشوريين، وهم شعب وثني استحق لعنة الأنبياء العبرانيين، كانوا يتصرفون بمنتهى القسوة والشناعة، لكن أبشع أعمالهم البربرية لم تكن أكثر دناءة وخسة ما قام به بعض الأوربيين المسيحيين نحو هنود أمريكا بعد ثلاثة آلاف عام من تاريخ آشور . ومن جهة أخرى نجد أن بعض الشعوب القديمة الوثنية كانت رحيمة في معاملاتها، فليس ثمة دليل مثلا على استعمال القسوة لمجرد القسوة، عند الحيثيين، وقد كف الانكا ، تلقائية، عن تقديم القرابين البشرية، ويبدو لنا من تصرفاتهم أنهم كانوا أكثر عدلا وتسامحا من الأسبان، كذلك لم تكن القسوة والمعاملة البربرية وقفة على الأسبان الكاثوليك ديرهم ون غمن الأوربيين، فقد ازداد دخل انجلترا البروتستانتية من الاتجار في العبيد، وهي تجارة مارستها بوحشية من غرب أفريقيا إلى مستعمراتها في أمريكا.

وحتى في سيلان القديمة حيث تحرم الديانة البوذية قتل البشر والحيوان،

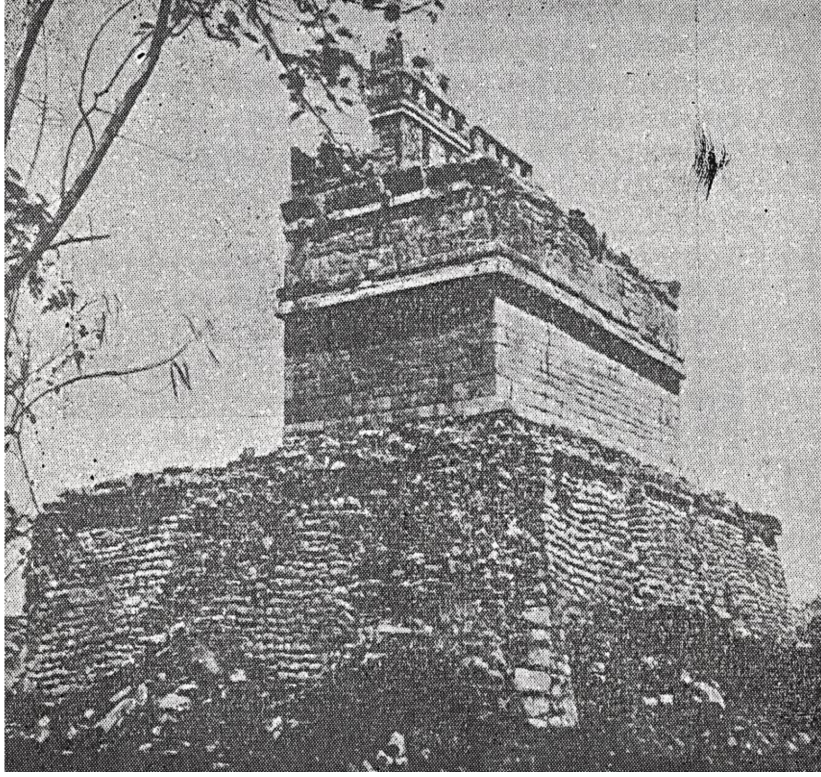
كان الحكام يأمرون بالإعدام بالخوازيق، أو بالتقطيع إربا، أو بالسحل تحت أقدام الفيلة، ومع ذلك فنحن نعلم أن هذه الأعمال البربرية تقل بشاعة عما حدث في القرن العشرين على أيدي أوربا المسيحية وروسيا الملحدة .

وبرغم كل ما ذكرناه، ففي خلال الأعوام ثلاثة الآلاف التي عاشتها حضارة مصر القديمة، تلك الحضارة التي اندثرت منذ أكثر من عشرين قرنا، نجد أعمال القسوة وعدم التسامح أقل بكثير مما نجد في غيرها من الحضارات الأخرى، علما بأن الديانة المصرية كانت ديانة تجسيد الأرواح وليس بها من التعاليم الأخلاقية إلا القليل . ويبدو لي أن الصلة بين الدين وحسن الخلق ليست شرطاً أساسياً.

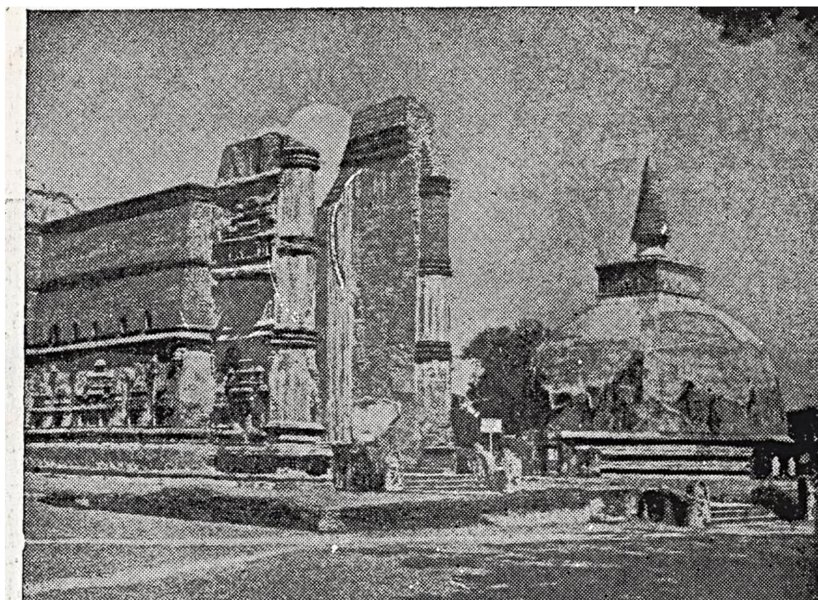
إن المدن المندثرة في العالم، تبدو مثل الهياكل العظيمة التي فرت منها الحياة، فهي تقف صامتة وشاهدة على محاولات البشر في الوصول إلى مجتمع منظم يعيش فيه آمنة مطمئنة، ولقد نجحت بعض هذه المحاولات لفترة ما، لكنها فشلت جميعا آخر الأمر، تاركة وراءها شعورا بالشك والقدر المحتوم . وكما كتب مستر جيورجيودى شيريكو في مقدمته لكتاب دكتور فاليانت (Aztecs of Mexico) .

"إن أعجب شعور ينتابنا من جراء الاطلاع على ما قبل التاريخ، هو الشعور بالقدر المحتوم . إنه شعور سيبقى إلى الأبد، فهو الدليل الخالد على عدم استقرار (non sequitur) العالم . إن أول رجل في الخليقة كان يشعر بهذا القدر في كل شيء يراه من حوله ولا بد أنه كان يرتعد كلما خطا خطوة إلى الأمام ".

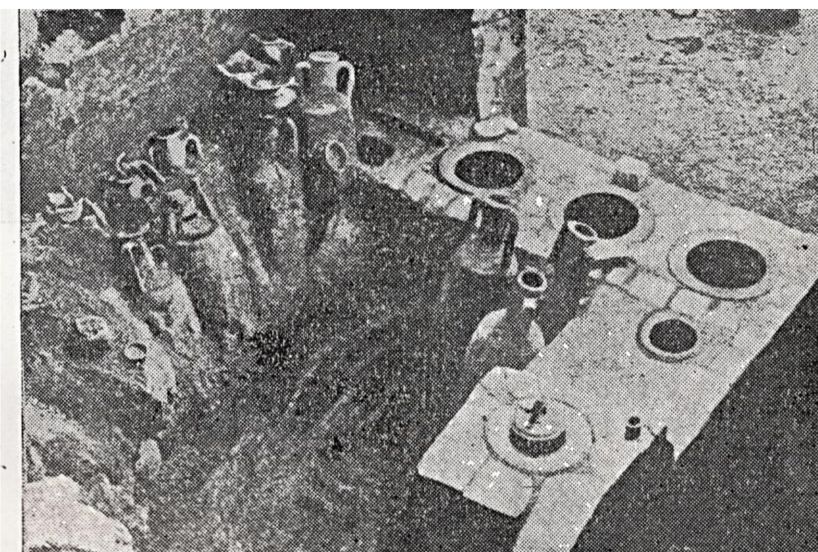
ملحق الصور



تششن اتنرا، تشتشانشوب أو المنزل الأحمر، ويعتبر نموذجا لفن شعب المايكا ويكاد يكون سليما تماما



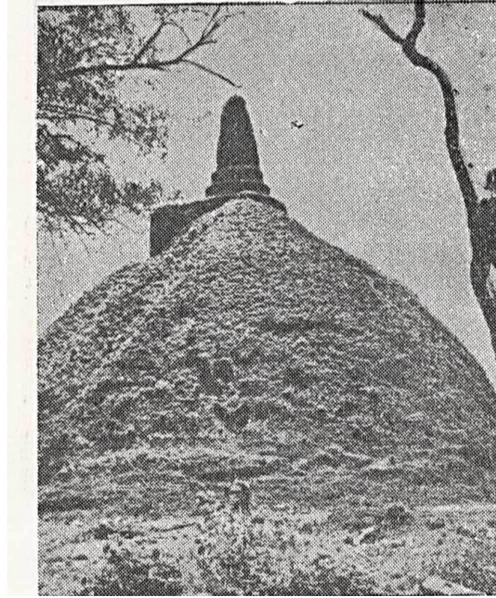
قطاع من لاتكا تيليكا وعلى اليمين نرى كيرى فيهارا وهي داجوبا في بولونا رووا، سيلان



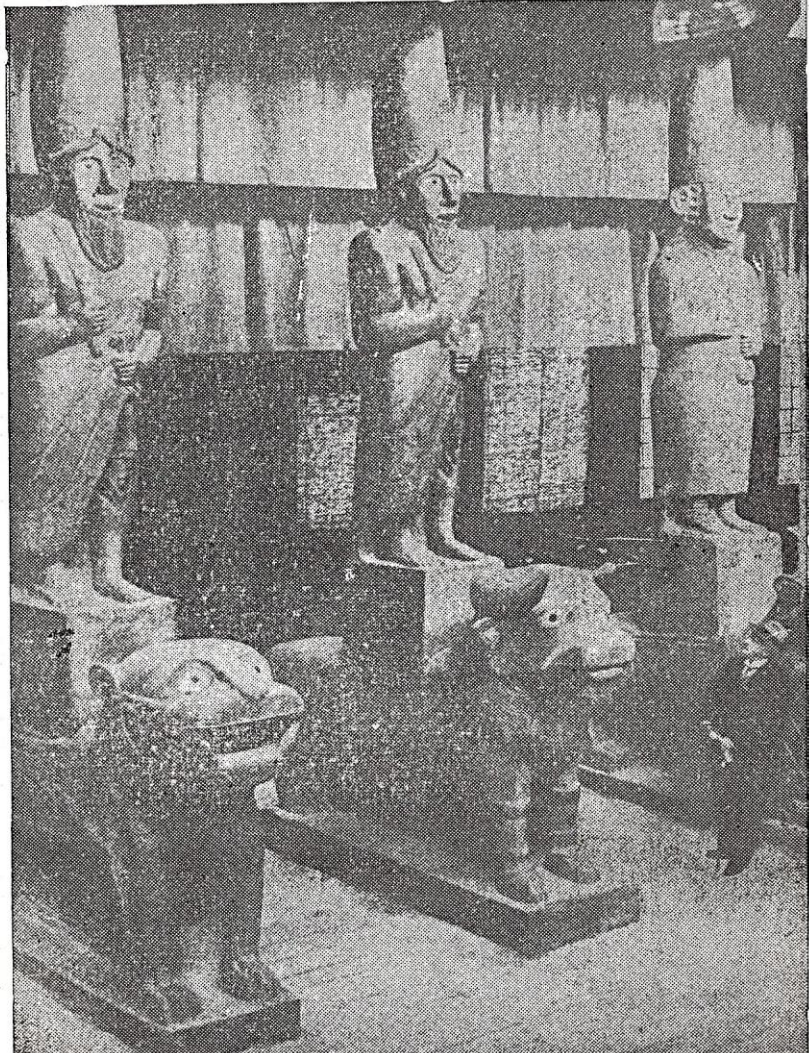
مدينة بومبي، منظر حانة أو أحد المحال العامة، وبها قوارير النبيذ وصناديق لجمع النقود



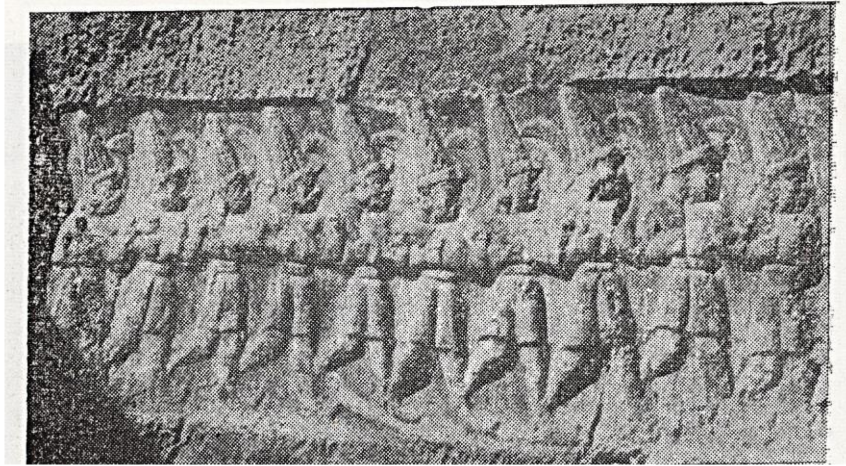
تمثال بوذا وهو واقف يحرس تمثالا آخر لبوذا وهو مستلق، اكتشف في بولونا رووا، سيلان



داجوبا من أقدم النماذج، اكتشفت بمدينة آنورادها بورا.



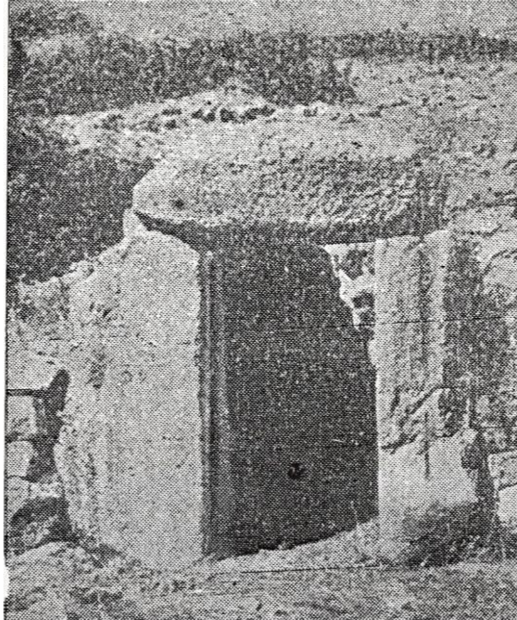
ثلاثة تماثيل حيثية، اكتشفت في تل حلاف بسوريا



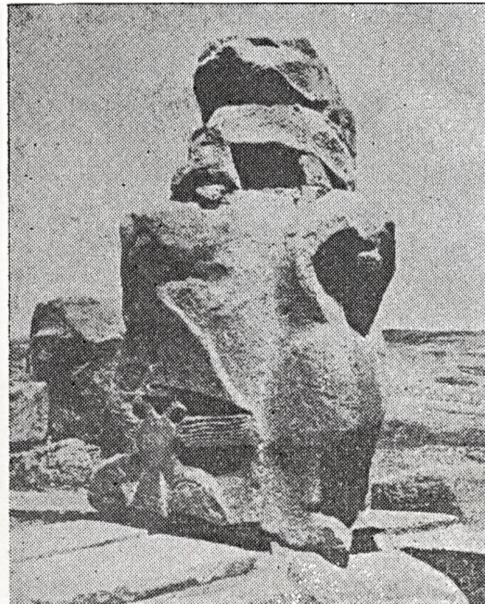
نحت بارز لجنود حيثيين، وجد بمدينة أزيليكايا



بوابة الأسد بمدينة حاتوساس، عاصمة امبراطورية الحيثيين



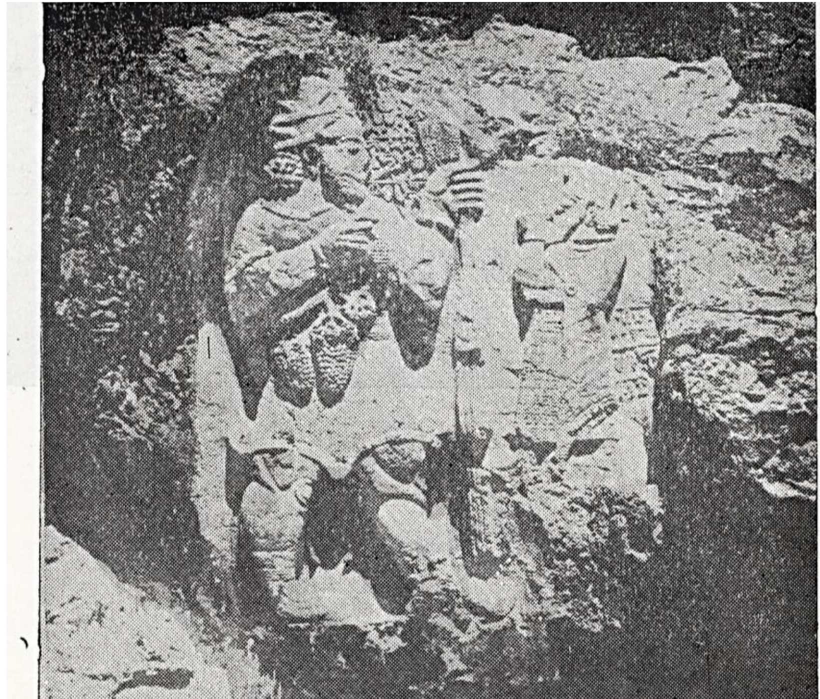
الباب السرى تحت جدار مدينة حاتوساس (بوغاز كوى) — عاصمة الحيثيين



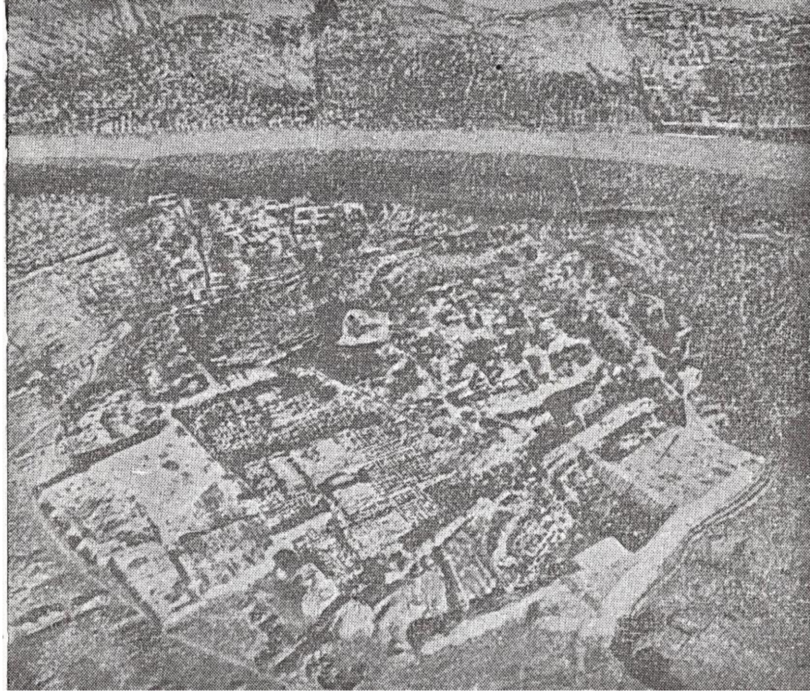
تمثال حيثي يمثل أبو الهول بمدينة ملاجاهوبوك بتركيا



نحت بارز من الفن الحيثي – منظر يمثل الصيد ومن فوقه كتابة بالهيروغليفية الحيثية



نحت حيثي بارز في ارفيز بتركيا



منظر لمدينة بابل – أُخذ من الجو

الفهرس